

جدد حیاتك  
الشيخ  
محمد الغزالى

## جدد حياتك

كثيراً ما يحب الإنسان أن يبدأ صفحة جديدة في حياته ، ولكنه يقرن هذه البداية المرغوبة بموعد مع الأقدار المجهولة ، كتحسن في حالته ، أو تحول في مكانه . وقد يقرنها بموسم معين ، أو مناسبة خاصة كعيد ميلاد ، أو غرة عام مثلاً .

وهو في هذا التسويف يشعر بأن رافداً من روافد القوة المرموقة قد يجيء مع هذا الموعد ، فينشطه بعد خمول وئمه بعد إياس .

وهذا وهم . فإنَّ تجديد الحياة ينبع قبل كل شيء من داخل النفس .

والرجل المقبل على الدنيا بعزيمة وبصر لا تخضعه الظروف المحيطة به مهما ساءت ، ولا تصرفه وفق هواها . إنَّه هو الذي يستفيد منها ، ويحافظ بخصائصه أمامها ، كبذور الأزهار التي تُطمر تحت أ蔻ام السُّبَخ ، ثم هي تشقُّ الطريق إلى أعلى مستقبلة ضوء الشمس برائحتها المنعشة !! ، لقد حولَت الحماة المسنون والماء الكدر إلى لون بهيج وعطر فواح . . . كذلك الإنسان إذا ملك نفسه وملك وقته ، واحتفظ بحرية الحركة لقاء ما يواجهه من شؤون كريهة ، إنه يقدر على فعل الكثير دون انتظار أمدادٍ خارجية تساعده على ما يريد .

إنه بقوه الكامنة ، وملكاته المدفونة فيه ، والفرص المحدودة ، أو التافهة المتاحة له يستطيع أن يبني حياته من جديد .

لا مكان لترئُّث ، إنَّ الزمان قد يفديعون يشدُّ به أعصاب السائرين في طريق الحق ، أمَّا أنْ يهاب المبعد طاقةً على الخطأ أو الجري فذاك مستحيل .

لاتعلُّق بناء حياتك على أمنية يلدها الغيب ، فإنَّ هذا الإرجاء لن يعود عليك بخير .

الحاضر القريب الماثل بين يديك ، ونفسك هذه التي بين جنبيك ، والظروف الباسمة أو الكالحة التي تلف حواليك ، هي وحدها الدعائم التي يتمضض عنها

مستقبلك . فلا مكان لإبطاء أو انتظار ، قال رسول الله ﷺ : « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل »<sup>(١)</sup> .

ثم إن كل تأخير لإنفاذ منهاج تجدّد به حياتك ، وتصلح به أعمالك لا يعني إلا إطالة الفترة الكابية التي تبغى الخلاص منها ، وبقاءك مهزوماً أمام نوازع الهوى والتفريط .

بل قد يكون ذلك طريقاً إلى انحدار أشدّ ، وهنا الطامة .

وفي ذلك قال رسول الله ﷺ : « النادم ينتظر من الله الرحمة . والمعجب ينتظر المقت . واعلموا عباد الله أن كل عامل سيقدم على عمله ، ولا يخرج من الدنيا حتى يرى حسن عمله وسوء عمله ، وإنما الأعمال بخواتيمها .

والليل والنهار مطيتان فأحسنوا السير عليهم إلى الآخرة . واحذروا التسويف فإن الموت يأتي بغتة . ولا يفتر أحدكم بحلم الله عز وجل ، فإن الجنة والنار أقرب إلى أحدكم من شراك نعله . ثم قرأ :

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مُثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۚ وَمَنْ يَعْمَلْ مُثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۚ﴾<sup>(٢)</sup>

ما أجمل أن يعيid الإنسان تنظيم نفسه بين الحين والحين ، وأن يرسل نظرات ناقدة في جوانبها ليتعرف عيوبها وأفاتها ، وأن يرسم السياسات القصيرة المدى والطويلة المدى ليتخلص من هذه الهنات التي تُزرى به .

في كل بضعة أيام أنظر إلى أدراج مكتبي لأذهب الفوضى التي حلّت به من قصاصات متناشرة ، وسجلات مبعثرة ، وأوراق أدت الغرض منها .

يجب أن أرتب كل شيء في وضعه الصحيح ، وأن يستقر في سلة المهملات ما لا معنى للاحتفاظ به .

وفي البيت ، إن غرفه وصالاته تصبح مشعّثة مرتبكة عقب أعمال يوم كامل . فإذا الأيدي الدائبة تحول هنا وهناك لتنظف الأثاث المغبر ، وتطرد القمامات الزائدة ، وتعيد إلى كل شيء رؤاهه ونظامه .

(١) مسلم .

(٢) الزلزلة ، آية ٨٠، ٧ .

ألا تستحق حياة الإنسان مثل هذا الجهد؟ . ألا تستحق نفسك أن تعهد شئونها بين الحين والحين لترى ما عرّاها من اضطراب فتزيده ، وما لحقها من إثم فتنفيه عنها مثلما تُنفي القُمامَةُ عن الساحات الظَّهُورِ؟ ! .

ألا تستحق النفس بعد كل مرحلة تقطعها من الحياة أن نعيده النظر فيما أصابها من غُنم أو غُرم؟ وأن نرجع إليها توازنها واعتدالها كلما رجّتها الأزمات ، وهزّها العراق الدائب على ظهر الأرض في تلك الدنيا المائجة؟ ..

إنَّ الإنسان أحوج الخلائق إلى التنقيب في أرجاء نفسه وتعهُّد حياته الخاصة والعامة بما يصونها من العلل والتفكك .

ذلك أن الكيان العاطفي والعقلاني للإنسان قَلَّما يبقى متamasك اللبنات مع حِدَّة الاحتكاك بصنوف الشهوات وضروب المغريات ... فإذا ترك لعوامل الهدم تنال منه فهي آتية عليه لا محالة ، وعندئذ تنفرط المشاعر العاطفية والعقلية كما تنفرط حبات العقد إذا انقطع سِلْكُه ... وهذا شأن

﴿ كُنْ أَغْفَلْنَا فِي لَبَّهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَأَبْيَحَ هُوَنَهُ وَكَانَ أَمْرٌ فُرُطًا ﴾ (١) كما يقول الله عز وجل . وكلمة « فُرُط » هذه ينبغي أن نتأمل فيها . فالعامة عندنا يسمون حبات العنبر الساقطة من عنقودها أو حبات البلح الساقطة من عُرْجونها « فرطًا » .

وانزعاج حبات الأذرة من كيرزانها المتراصنة تمهدًا لطحنهَا تُشتق تسميتها من المادة نفسها .

والنفس الإنسانية إذا تقطعت أواصرها ، ولم يربطها نظام يُنسق شئونها ويركز قواها ؛ أصبحت مشاعرها وأفكارها كهذه الحبات المنفرطة السائبة لا خير فيها ولا حرفة لها .

ومن ثم نرى ضرورة العمل الدائم لتنظيم النفس وإحكام الرقابة عليها . والله عز وجل يهيب بالبشر - قبيل كل صباح - أن يُجددوا حياتهم مع كل نهار مقبل .

فبعد أن يستريح الأنام من عناء الأمس الذاهب ، وعندما يتحرّكون في فُرُشِهم ليواجهوا مع تحركِ الفلك يومهم الجديد .

(١) الكهف آية ٢٨ .

فِي هَذِهِ الْأَوْنَةِ الْفَاصِلَةِ تُسْتَطِعُ أَنْ تَسْأَلُ : كَمْ تَعْثَرُ الْعَالَمَ فِي سِيرِهِ ؟ . كَمْ مَالَ مَعَ الْأَثْرَةِ ؟ . كَمْ اقْتَرَفَ مِنْ دِينِهِ ؟ . كَمْ أَصْلَتْهُ حَيْرَتِهِ فِي بَاتِ مُحْتَاجًا إِلَى الْمُحْبَةِ وَالْخَنَانِ ؟ .

فِي هَذِهِ الْلَّهَظَةِ يُسْتَطِعُ كُلُّ امْرَئٍ أَنْ يَجْدُدَ حَيَاتَهُ ، وَأَنْ يَعِيدَ بَنَاءَ نَفْسِهِ عَلَى أَشْعَةِ مِنَ الْأَمْلِ وَالتَّوْفِيقِ وَالْيَقْظَةِ .

إِنَّ صَوْتَ الْحَقِّ يَهْتَفُ فِي كُلِّ مَكَانٍ لِيَهْتَدِيَ الْحَائِرُونَ وَيَتَجَدَّدَ الْبَالُونُ . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِذَا مَضَى شَطَرُ الْلَّيلِ ، أَوْ ثَلَاثَاهُ ، يَنْزَلُ اللَّهُ تَبارُكُ وَتَعَالَى إِلَى السَّمَاوَاتِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ : هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَيُعْطَى ؟ . هَلْ مِنْ دَاعٍ فَيُسْتَجَابُ لَهُ ؟ . هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرَةٍ فَيُغْفَرُ لَهُ ؟ .. حَتَّى يَنْفَجِرَ الْفَجْرُ »<sup>(١)</sup> . وَفِي رَوَايَةٍ : « أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنَ الرَّبِّ فِي جَوْفِ الْلَّيلِ »<sup>(٢)</sup> . فَإِنْ أَسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مِنْ يَذْكُرُ اللَّهَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ فَكُنْ .

إِنَّهَا لَحْظَةٌ إِدبارُ اللَّيلِ وَإِقْبَالُ النَّهَارِ ، وَعَلَى أَطْلَالِ الْمَاضِيِّ الْقَرِيبِ أَوِ الْبَعِيدِ يُمْكِنُكَ أَنْ تَنْهَضَ لِتَبْنِيَ مَسْتَقِبَلَكَ .

وَلَا تَؤُودْنَكَ كُثْرَةُ الْخَطَايَا ، فَلَوْ كَانَتْ رُكَاماً أَسْوَدَ كَزَبَدَ الْبَحْرِ مَا بَالِيَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالْتَّعْفِيَةِ عَلَيْهَا إِنْ أَنْتَ اتَّجَهْتَ إِلَيْهِ قَصْدًا وَانْطَلَقْتَ إِلَيْهِ رَكْضًا .

إِنَّ الْكُنُودَ الْقَدِيمَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَائِقاً أَمَامَ أَوْبَةِ صَادِقَةِ ..

﴿ قُلْ يَعِبَادُهُ الَّذِينَ ﴾

أَسْرَرُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا يَنْتَطِلُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ  
جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٢﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴿٣﴾

وَفِي حَدِيثِ قُدْسِيِّ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : « يَا ابْنَ آدَمَ ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجُوتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَىٰ مَا كَانَ مِنْكَ وَلَا أَبَالِي . يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغْتَ ذُنُوبَكَ عَنَّ السَّمَاوَاتِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أَبَالِي . يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقِرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقَيْتَنِي لَا تَشْرُكَ بِي شَيْئاً لَأَتَيْتَكَ بِقِرَابِهَا مَغْفِرَةً »<sup>(٤)</sup> .

(١) مسلم .

(٢) الترمذى .

(٣) مسلم .

(٤) الزمر: ٥٣ - ٥٤ .

وهذا الحديث وأمثاله جُرعةٌ تُحيي الأمل في الإرادة المخدّرة ، وتنهض العزيمة الغافية وهي خَجْلٌ ل تستأنف السير إلى الله ، ولتجدد حياتها بعد ماضٍ ملتوٍ مستكينٍ<sup>(١)</sup> .

لا أدرى لماذا لا يطير العباد إلى ربهم على أجنحة من الشوق بدل أن يُساقوا إليه بسياط من الرهبة ؟ إنَّ الجهل بالله وبدينه هو علة هذا الشعور البارد ، أو هذا الشعور النافر - بالتعبير الصحيح - مع أنَّ البشر لن يجدوا أبْرَّ بهم ولا أحنى عليهم من الله عز وجل . وبره وحنته غير مشوّبين بغرض ما ، بل هما من آثار كماله الأعلى وذاته المزَّهَة . وقصة الإنسان تشير إلى أنَّ الله خلقه ليكرِّمه لا ليهينه ، وليسُودُه في العالمين ، لآخر منزلته أو يضع مقداره :

**﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَنَا لَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشًا قَلِيلًا مَا شَكُونَ ﴾**

**﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُم مِّنْ صُورَاتِ أَكْدَمَ ثُرَّ قَنَ الْمُلَائِكَةَ أَسْجُدُونَ لِأَدَمَ ﴾<sup>(٢)</sup>**

وظيفة الدين بين الناس أن يضبط مسالكهم وعلاقتهم على أساس من الحق والقسط حتى يحيوا في هذه الدنيا حياة لا جُور فيها ولا جهل .. فالدين للإنسان - كالغذاء لبدنه - ضرورة لوجوده ومتعة لحواسه .

والله عز وجل - بشريعته - مع الوالد ضد عقوق الولد ، ومع المظلوم ضد سطوة الظالم ، ومع أي امرئ ضدَّ أن يصاب في عرضه أو ماله أو دمه .

فهل هذه التعاليم قسوة على البشر ونكاياً لهم ؟! أليست محض الرحمة والخير ؟! . وإذا كلف الله أبناء آدم بعد ذلك ببعض العبادات اليسيرة ، ليحمدوا فيها آلاءه ويدركوا له حقه ، فهل هذه العبادات المفروضة هي التي يتلمس الناس من أدائها ، ويتبسمون من إيجابها ؟! . الحق أنَّ الله لم يرد للناس قاطبة إلا الْيُسْرُ والسماحة والكرامة ، ولكن الناس أبوا أن يستجيبوا لله وأن يسيراً وفق ما رسم لهم ، فزاحت بهم الأهواء في كل فج ، وطفحت الأقطار بظلمتهم وتناكريهم .

ومع هذا الضلال الذي خبطوا فيه فإن منادي الإيمان يهتف بهم أن عودوا إلى بارئكم . إن فرحته بعودتكم إليه فوق كل وصف . قال رسول الله ﷺ : « اللَّهُ أَفْرَخُ بِتُوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ فِي أَرْضِ دَوْيَةٍ مُهْلَكَةٍ ، مَعَهُ رَاحْلَتَهُ ، عَلَيْهَا طَعَامُهُ

(١) اقرأ مبحث الخطابة والمنابع من كتابنا « عقيدة المسلم » .

(٢) الأعراف : ١١ ، ١٠ .

وشرابه ، فوضع رأسه فنام نومة ، فاستيقظ وقد ذهبت راحتله !! فطلبها ، حتى إذا اشتدَّ عليه الحرُّ والعطش ، أو ما شاء الله ، قال : أرجع إلى مكانى الذى كنت فيه فأنام حتى أموت ... فوضع رأسه على ساعده ليموت ، فاستيقظ فإذا راحتله عنده عليها زاده وشرابه ، فالله أشدُّ فرحاً بتوبة المؤمن من هذا براحتله )١( .

ألا يبهرك هذا الترحاب الغامر . أترى سروراً يعدل هذه البهجة الخالصة ؟ .

إنَّ أنبيل الناس عِرْقاً وأطهرهم نفساً قلماً يجد فؤاداً يتلهَّف على لقائه بمثل هذا الحنين . فكيف بخطاء أسرف على نفسه وأساء إلى غيره ؟ . إنَّه لو وجد استقبالاً يستر عليه ما مضى لكان بحسبه ذلك الأمان المبذول ليستريح ويشرك . أما أن يفاجأ بهذه الفرحة ، وذلك الاستبشرار ، فذاك ما يثير الدهشة .

لكنَّ الله أَبْرُّ الناس وأَسْرُّ بآوبة العائدين إليه مما يظن القاصرون !! . وطبعيَّ أن تكون هذه التوبة نُقلة كاملة من حياة إلى حياة ، وفاضلاً قائماً بين عهدين متمايزين ، كما يفصل الصبح بين الظلام والضياء .

فليست هذه العودة زُورَة خاطفة يرتد الماء بعدها إلى ما ألف من فوضى وإسفاف . ولنست محاولة فاشلة ينقصها صدق العزم وقوه التحمل وطول الجلد ، كلا .. كلا . إنَّ هذه العودة الظافرة التي يفرح الله بها هي انتصار الإنسان على أسباب الضعف والخمول ، وسحقه لجراثيم الوضاعة والمعصية ، وانطلاقه من قيود الهوى والجحود ، ثم استقراره في مرحلة أخرى من الإيمان والإحسان ، والنضج والاهتداء .

هذه هي العودة التي يقول الله في صاحبها :

﴿ وَإِذْ لَغَفَارٌ وَّمَنْ نَابَ وَأَمَنَ وَعَمِلَ صَلِحَاتٍ أَهْتَدَى ﴾ )٢(

إنها حياة تجددت بعد بلى ، ونُقلة حاسمة غيرت معالم النفس ، كما تتغير الأرض الموات بعد مقادير هائلة من المياه والمخيبات .

إن تجديد الحياة لا يعني إدخال بعض الأعمال الصالحة ، أو النيات الحسنة وسط جملة ضخمة من العادات الذميمة والأخلق السيئة ، فهذا الخلط لا ينشئ به الماء مستقبلاً حميداً ، ولا مسلكاً مجيداً .

بل إنَّه لا يدلُّ على كمال أو قبول ، فإنَّ القلوب المتحجرة قد ترشح بالخير ، والأصابع الكرزة قد تتحرك بالعطاء .

(١) البخاري .

(٢) الآية : ٨٢ من سورة طه .

وَاللَّهُ أَعْزَّ وَجْلَ يَصْفِ بَعْضَ الْمَطْرُودِينَ مِنْ سَاحِتِهِ فَيَقُولُ :  
 ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّ إِنَّمَا أَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى﴾<sup>(١)</sup> وَيَقُولُ فِي الْمَكْذُوبِ بِكِتَابِهِ :

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا ؤْمَنُوا﴾<sup>(٢)</sup> وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا ذَكَرُوا  
 نَزِيلٌ مِّنْ رِّبِّ الْعَالَمِينَ﴾<sup>(٣)</sup>

فَالْأَشْرَارُ قَدْ تَمَرُّ بِضَمَائِرِهِمْ فَتَرَاتِ صَحْوٌ قَلِيلٌ ثُمَّ تَعُودُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى سَبَاتِهِ .  
 وَلَا يُسَمِّي ذَلِكَ اهْتِدَاءً ، إِنَّ الْاَهْتِدَاءَ هُوَ الطُّورُ الْأَخِيرُ لِلتَّوْبَةِ النَّصْوِحِ .

### ﴿أَتَأْتَنَا مَعَنِيَّةَ الْمُؤْمِنِ﴾

إِنَّ الْبَعْدَ عَنِ اللَّهِ لَنْ يَشْمَرَ إِلَّا عَلِقْمًا ، وَمَوَاهِبُ الذِّكَاءِ وَالْقُوَّةِ وَالْجَمَالِ وَالْمَعْرِفَةِ  
 تَتَحَوَّلُ كُلُّهَا إِلَى نِقَمٍ وَمَصَابٍ عِنْدَمَا تَعْرَى عَنْ تَوْفِيقِ اللَّهِ وَتُحْرَمُ مِنْ بَرَكَتِهِ .  
 وَلَذِلِكَ يَخُوْفُ اللَّهُ النَّاسُ عَقْبَى هَذَا الْاسْتِيْحَاشِ مِنْهُ ، وَالْذَّهُولُ عَنْهُ .

قَدْ تَكُونُ سَائِرًا فِي طَرِيقِكَ فَتُقْبِلُ عَلَيْكَ سِيَارَةُ تَنْهَبُ الْأَرْضَ نَهْبًا وَتَشْعُرُ كَأَنَّهَا  
 مُوشَكَةُ عَلَى حَطْمِ بَدْنِكَ وَإِتَّلَافِ حَيَاتِكَ ، فَلَا تَرَى بَدًّا مِنَ التَّمَاسِ النَّجَاةِ وَسَرْعَةِ  
 الْهَرْبِ . . . إِنَّ اللَّهَ يَرِيدُ إِشْعَارَ عِبَادِهِ تَعْرُضَهُمْ لِمُثْلِ هَذِهِ الْمَعَاطِبِ وَالْحَتْوُفِ إِذَا هُمْ صَدَفُوا  
 عَنْهُ ، وَيُوصِيهِمْ أَنْ يَلْتَمِسُوا النَّجَاةَ - عَلَى عَجَلٍ - عِنْدِهِ وَحْدَهُ :

﴿فَرَوَاهُ إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾<sup>(٤)</sup> وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا أَخْرَى إِنِّي لَكُمْ  
 مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾<sup>(٥)</sup>

وَهِيَ عُودَةٌ تَتَطَلَّبُ - كَمَا رَأَيْتَ - أَنْ يَجْدُدَ الإِنْسَانُ نَفْسَهُ ، وَأَنْ يَعِيدَ تَنْظِيمَ  
 حَيَاتِهِ ، وَأَنْ يَسْتَأْنِفَ مَعَ رَبِّهِ عَلَاقَةً أَفْضَلَ ، وَعَمَلاً أَكْمَلَ ، وَعَهْدًا يُجْرِي عَلَى فَمِهِ  
 هَذَا الدُّعَاءُ : «اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ ، وَأَنَا عَلَى  
 عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ ، أَبُوءُ لَكَ بِنَعْمَتِكَ  
 عَلَىَّ ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي ، فَاغْفِرْ لِي ، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ»<sup>(٦)</sup> .

(٢) الْحَاجَةُ : ٤١ - ٤٣ .

(١) النَّجْمُ : ٣٣ - ٣٤ .

(٤) الْبَخَارِيُّ .

(٣) الْذَّارِيَاتُ : ٥٠ - ٥١ .

## عش في حدود يومنك

من أخطاء الإنسان أن ينوه في حاضره بأعباء مستقبله الطويل .

والمرء حين يؤمل ينطلق تفكيره في خط لا نهاية له ، وما أسرع الوساوس والأوهام إلى اعتراض هذا التفكير المرسل ، ثم إلى تحويله هموماً جاثمة ، وهواجس مقبضة .

لماذا تخامرُك الريبة وينحالُك القلق؟! عِشْ في حدود يومنك فذاك أجدرك ، وأصلح لك .

ولقد ساق « ديل كارنيجي » عدداً من التجارب التي خاضها رجال ناجحون ، رجال لم يتعلّقوا بالغد المرتقب ، بل انغمموا إلى الأذقان في حاضرهم وحده يواجهون مطالبته ويعالجون مشكلاته ، فأمنوا بهذا المسلك الراسد يومهم وغدتهم جمیعاً ، ثم أهدوا لنا خلاصات تجاربهم في هذه الكلمات : ( ليس لنا أن نتطلع إلى هدف يلوح لنا باهتاً من بعد ، وإنما علينا أن ننجز ما بين أيدينا من عمل واضح بين ) .

وهي نصيحة للأديب الإنجليزي « توماس كارليل » .

ويزيد عليها دكتور « أوسلر » فيأمر طلبه في جامعة « ييل » أن يبدأوا يومهم بالدعاء المؤثر عن السيد المسيح : « خبزنا كفافنا أعطنا اليوم » .

وذكرهم بأن هذا الدعاء كان من أجل خبز اليوم فحسب .

إنه لم يحزن على الخبز الرديء الذي حصل عليه أمس ، ولم يَصُخْ : يا إلهي لقد عمَ الجفاف ، ونخشى لأنَّ نجد القوت في الخريف القادم !! .

أوْ ترى كيف أطعم نفسي وأولادى لو فقدت وظيفتى؟! .

إنه لم يرتبك مقدماً لهذه الدواهى المتوقعة ، إنه يطلب خبز اليوم وحده ، لأن خبز اليوم وحده هو الذي يمكنك أن تأكله في ذلك اليوم ..

والعيش في حدود اليوم - وفق هذه الوصايا - يتّسق مع قول الرسول ﷺ : « من أصبح أمناً في سرْبه ، مُعافٍ في بدنـه ، عندـه قوت يومـه ، فـكأنـما حـيزـت لهـ الدـنيـا

بحذافيرها<sup>(١)</sup>. إنك تملك العالم كله يوم تجتمع هذه العناصر كلها في يديك فاحذر أن تحررها .

إن الأمان والعافية وكفاية يوم واحد قوى تُتيح للعقل النير أن يفكر في هدوء واستقامة تفكيراً قد يغير بهجرى التاريخ كلّه ، بلّه حياة فرد واحد .

إن هذه النعم الميسرة ضمان كبير لصاحبها كى يقطع من الزمن فترة كاملة الإنتاج ، مطردة السير ، مُراحة من العوائق والمشبات ..

والحق أن استعجال الضوابط التي لم يحن موعدها حمق كبير ، وغالباً ما يكون ذلك تجسيداً لأوهام خلقها التشاوئ ، ولو كان المرء مصيباً فيما يتوقع فإن إفساد الحاضر بشؤون المستقبل خطأ صرّف ، والواجب أن يستفتح الإنسان يومه وكأنَّ اليوم عالم مستقل بما يحيوه من زمان ومكان . كان الخليل إبراهيم عليه السلام إذا طلع عليه الصباح يدعوا : « اللهمَّ هذا خلقٌ جديدٌ فافتحه علىَّ بطاعتك ، واختتمه لى بعفترتك ورضوانك ، وارزقني فيه حسنة تقبلها مني وزكّها وضعّفها لى ، وما عملت من سيئة فاغفره لى ، إنك غفور رحيم ودودٌ كريمٌ »<sup>(٢)</sup> .

وكان يقول : « من دعا بهذا الدعاء إذا أصبح فقد أدى شكر يومه » .

وسيرة رسول الله ﷺ تلفتنا إلى صحة هذه الطريقة في تجزئة الحياة ، واستقبال كل جزء منها بنفس محتشدة وعزم جديد .

فهو إذا أصبح يقول : « أصبحنا وأصبح الملك لله والحمد لله ، لا شريك له ، لا إله إلا هو وإليه النشور »<sup>(٣)</sup> وإذا أمسى قال مثل ذلك ، وقد يدعو : « اللهمَّ إِنِّي أَصْبَحْتُ مِنْكَ فِي نِعْمَةٍ وَعَافِيَةٍ وَسُتْرٍ ، فَأَتْمِمْ نِعْمَتَكَ عَلَيَّ وَعَافِيَتَكَ وَسُتْرَكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ »<sup>(٤)</sup> . وإذا أمسى دعا بمثل ذلك .

وبعض الناس يستهين بما أولاه الله من سلامه وطمأنينة في نفسه وأهله ، وقد يزدري هذه الآلاء العظيمة ، ويضخم آثار الحرمان من حظوظ الثروة والتمكين . وهذه

(٤) أبو داود .

(٣) الترمذى .

(٢) الإحياء .

(١) الترمذى .

الاستهانة غَمْط للواقع ومُتَلِّفة للدين والدنيا . روى أن رجلاً سأله عبد الله بن عمرو ابن العاص : ألسْتُ من فقراء المهاجرين ؟ . فقال له عبد الله : ألكَ امرأة تأوي إليها ؟ . قال : نعم . قال : ألكَ مسكن تسكته ؟ . قال : نعم . قال : فأنتَ من الأغنياء .. قال : فإن لى خادماً . قال فأنتَ من الملوك<sup>(١)</sup> ..

إنَّ الاكتفاء الذاتي ، وحسن استغلال ما في اليد ، ونبذ الاتكال على المُنْتَى هى نواة العظمة النفسية وسر الانتصار على الظروف المُعْنَتة .

والذين لا يَشْكُون الحرمان - لأنهم أُوتوا الكثير - قَلَّما ينتفعون بما أُوتوا إذا هم فقدوا الطاقة النفسية على استغلال ما معهم والإفادة بما حولهم . هذه حقيقة يؤكدها النبي الكريم مطلع كل صباح فيقول : « ما طلعتْ شمسٌ قطٌ إِلَّا بُعثَتْ بِجَنْبِتِيهَا ملِكًا يُسمِّعَنَّ أَهْلَ الْأَرْضِ إِلَّا ثَقْلَيْنِ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، هَلْمُؤَا إِلَى رَبِّكُمْ ، فَإِنَّ مَا قَلَّ وَكَفَى خَيْرًا مَا كَثُرَ وَأَلْهَى . وَلَا غَرَبَتْ شَمْسٌ قَطُّ ، إِلَّا وَبُعْثَتْ بِجَنْبِتِيهَا ملِكًا يَنْدِيَانَ : اللَّهُمَّ عَجِّلْ لِنَفْقَ خَلَفًا وَعَجِّلْ لِمُسْكَ تَلَفًا »<sup>(٢)</sup> .

آخر هذا الحديث وعدُّ للكرام بالعَوْض ، ووعيد للبخلاء بالمقت .  
وأوله مقارنة قد تحسُب تفضيلاً للقلة على الكثرة .  
والحقيقة أنها تفضيل للقلة الكافية على الكثرة الملهية .

أما الكثرة التي تغنى صاحبها ثم يَبْقَى فيها فضل يسع الحاجات ويسدُّ الحقوق فإنَّها بمنزلة أنسى من القلة المخصوصة . ولم يتعرض لها الحديث هنا ، كل ما عُنِى به هذا الأثر النبوى تحريض المؤمنين على الكرم ، والجرأة فى البذل ، دون خشية من إملاق ، أو تبرُّم بكفاف . وهذا الفقه فى معالجة الحياة يورث المؤمنين شجاعة هائلة .

واسمع قول « أبي حازم » : ( إنما بينى وبين الملوك يوم واحد !! .  
أمَّا أمس فلا يجدون لذته .

وأنا وهم من غَدٍ على وَجَلٍ .  
 وإنما هو اليوم . فما عسى أن يكون اليوم ؟ ! ) .

(١) مسلم . (٢) الترغيب والترهيب .

هذا الفقير الصالح يتحدى الملوك . إنَّ لذائذ الماضي تفني مع أمس الذاهب ، ما  
يستطيع أحد إمساك ببعضها .

والغد في ضمير الغيب يستوي السادة والصعاليك ، في ترقبه .

فلم يبقَ إلا اليوم الذي يعيش العقلاء في حدوده وحدتها .  
وفي نطاق اليوم يتحول إلى ملك من يملك نفسه ويبصر قصده .  
فما وجه الهوان؟ ، وما مكان التفاوت؟ ! .



على أن العيش في حدود اليوم لا يعني تجاهل المستقبل ، أو ترك الإعداد له ، فإن  
اهتمام المرء بعده وتفكيره فيه حِصافة وعقل .

وهناك فارق بين الاهتمام بالمستقبل والاهتمام به ، بين الاستعداد له والاستغراق فيه ،  
بين التيقظ في استغلال اليوم الحاضر وبين التوجُّس المربك المُحِير مما قد يفدي به الغد .

إن الدين في حظره للإسراف وحبه للاقتصاد إنما يؤمِّن الإنسان على مستقبله ،  
بالأخذ من صحته لمرضه ، ومن شبابه لهرمه ، ومن سُلْمه لحربه . كان سفيان الثوري  
من كبار التابعين ، وكانت له ثروة حسنة ، وكان يشير إليها ويقول لولده : لو لا هذه  
لتمندل بنا هؤلاء - يقصد بنى أمية - .

يعنى أن غناه حماه من حكام زمانه ، فلم يحتاج إلى مداهنتهم أو تلقهم .

والواقع أن ذلك مسلك يعين على بلوغه إحسان العيش في حدود اليوم ، فإن  
الحاضر المكين أساس جيد لمستقبل ناجح ، ومن ثم يجب نبذ القلق .

قال الشاعر :

سـهـرـتْ أـعـيـنْ وـنـامـتْ عـيـونْ  
فـى شـئـونْ تـكـوـنْ أـو لـا تـكـوـنْ  
إـنْ رـبـاً كـفـاكـ بـالـأـمـسـ مـا كـانـ  
سيـكـفـيكـ فـى غـدـ مـا يـكـونـ

أتدرى كيف يُسرق عمر المرء منه؟ يذهل عن يومه في ارتقاب غده ، ولا يزال  
ذلك حتى ينقضى أجله ، ويده صِفر من أى خير .

كتب «ستيفن ليكوك» يقول : ( ما أتعجب الحياة !!

يقول الطفل : عندما أشب فأصبح غلاماً .

ويقول الغلام : عندما أترعرع فأصبح شاباً .

ويقول الشاب : عندما أتزوج . فإذا تزوج قال : عندما أصبح رجلاً متفرغاً .

فإذا جاءته الشيخوخة تطلع إلى المرحلة التي قطعها من عمره ، فإذا هي تلوح وكأن ريحًا باردة اكتسحتها اكتساحاً .. إننا نتعلم بعد فوات الأوان أن قيمة الحياة

في أن نحياها ، نحيا كل يوم منها وكل ساعة ) .

في هؤلاء الذين ضيّعوا أعمارهم سدى ، وتركوا الأيام تفلت من أيديهم لقى ،

يقول الله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسَمُ الْجِنُونُ مَا لِبُشُورَ إِغْرِيَّ سَاعَةٍ ﴾<sup>(١)</sup>

ويقول :

﴿ كَانُوكُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَأْبُوا إِلَّا عِيشَةً أَوْ ضَحْكَهَا ﴾<sup>(٢)</sup>

٣٤ ٣٤ ٣٤ ٣٤

(٢) الآية : ٤٦ من سورة النازعات .

(١) الآية : ٥٥ من سورة الروم .

## الثبات والأناة والاحتياط

إذا دهمتك شدة تخاف منها على كيانك كله ، فما عساك تصنع ؟ .

تدع الرُّوع ينهب فؤادك ، والعواصف الجائحة ترمي بك في مكان سحيق ؟ ! أم تقف مطمئناً ، وتحاول أن تتلمَّس بين هذه الضوابط مأمناً يهديك إليه الفكر الصائب ؟ .

يقول « ديل كارنيجي » :

١ - سل نفسك : ما هو أسوأ ما يمكن أن يحدث لي ؟ .

٢ - ثم هيئ نفسك لقبول أسوأ الاحتمالات .

٣ - ثم اشرع في إنقاذ ما يمكن إنقاذه .

وهذه خطة يوصى العقل والدين معًا باتباعها . وفي أدب العرب ذخائر لا تخلص من شجاعة الرجال في استقبال المحن ، ومن حرصهم على الخروج منها مخرجاً لا يخدش المروءة ولا الشرف .

ولا بأس أن نذكر هنا أبيات ثابت بن زهير الملقب « تأبَّط شرًا » :

إذا المرء لم يَحْتَلْ وقد جدَّ جدُّه  
أضاع وقاسى أمرَه وهو مُذْبِرٌ  
ولكنْ أخو الحزم الذي ليس نازلاً  
به الخطبُ إلا وهو للقصد مُبْصِرٌ  
فذاك قريعُ الدهر ما عاش حُولٌ  
إذا سُدَّ منه منخر جاس منخر

«وتأبَّط شرًا» في هذه النصائح يشرح ما قاله المهندس الأمريكي «ويليس كاريير» : (إنَّ شرَّ آثار القلق تبديده القدرة على التركيز الذهني ، فنتحن عندما نقلق تتشتَّت أفكارنا ، ونعجز عن حسم المشكلات واتخاذ قرار فيها ، ولو أننا قسرنا أنفسنا على مواجهة أسوأ الاحتمالات ، وأعددناها لتحمل أي النتائج لاستطيعنا النفاذ إلى صميم الواقع ، ولأنسنا الخلاص منه ) .

ولا شك أنَّ الرجل الذي يضبط أعصابه أمام الأزمات ، ويملك إدارة البصر فيما حوله هو الذي يظفر في النهاية بجميل العاقبة .

وتأمل في قول قطريٌّ :

من الأبطال ويحك لن تُراعي  
على الأجل الذي لك لن تُطاعى

أقول لها وقد طارت شَعاعاً  
فإنك لو طلبتِ بقاء يومٍ

وقول الآخر :

مكانك تُحْمِدِي أو تستريحى

أقول لها وقد جشأت وجاشت

إن هذه الأبيات تصوير حسن ل موقف الرجلة من النوازل العصبية .

ما زا يجديك أن تفقد رشك إذا هدَّدتَك أو دهمتك أزمة ؟ .

هذا الشاعر عندما أحسَّ المانيا تقترب منه أعمل فكره بقوة : أيسلم سيقانه للريح طلباً للنجاة ؟ . كلا . إنَّ الفرار لن يرجئ أجيلاً حان ، إنَّه لن يجلب إلا المعرَّة ، فليبق إذن في مكانه ، فالبقاء - إن قتل - أروح للنفس ، وإن عاش أدعى للحمد .

وعندما يبقى الفكر يقظاً على هبوب الأخطار ، وعندما يظل المرء رابط الجأش يقلب وجوه الرأي ابتغاء مخلص مما عراه ، فإن النجاح لن يخطئه .

ولذلك يقول رسول الله ﷺ : « إنما الصبر عند الصدمة الأولى » .

وقد يتوقع الإنسان بعض النوازل المخوفة ، ويستبد به القلق في انتشارها ، وكأنما هي الموت أو أشد .

وربما لم يهنا له طعام ولا ارتسم على فمه ابتسام من تفكيره المشدود إلى ما يتوقع .

والناس من خوف الفقر في فقر ، ومن خوف الذل في ذل !! .

وهذا خطأ بالغ . فالمؤمن الراشد يفترض أنَّ أسوأ ما يقلقه قد وقع بالفعل ، ثم ينتزع مما يتبقى له - بعد هذا الافتراض - عناصر حياة تكفي ، أو معانٍ عزاء تشفى ، على نحو ما قال الرسول ﷺ : « لِتَعْزَّ الْمُسْلِمُونَ فِي مَصَابِهِمُ الْمُصِيبَةُ فِيَّ إِنَّهُمْ لَنْ يُصَابُوا بِمَا لَنْ يَشْعُرُوا بِهِ » .

أجل فقد كانت حياتهم بركةً ما تُعَوَّض ، ثم حُمَّ القضاء وذهب ، فكل مُصاب بعده هيَّنُ .

إن الإنسان يتخوّف فقدان ما أُلف ، أو وقوع ما يفتح حمله ، وكلا الأمرين - بعد حدوثه - يُستقبل دون عناء جسيم .

أعرف رجلاً قطع قدمه في جراحة أجريت له ، فذهبت إليه لأواسيه ، وكان عاقلاً عالماً ، وعزمت أن أقول له : ( إن الأمة لا تنتظر منك أن تكون عداءً ماهراً ، ولا مصارعاً غالباً ، إنما تنتظر منك الرأي السديد والفكر النير ، وقد بقى هذا عندك والله الحمد ) .

وعندما عُدْته قال لي : ( الحمد لله . لقد صحبتني رجلٍ هذه عشرات السنين صحبة حسنة ، وفي سلامته الدين ما يرضي الفؤاد ) .

وقد نقل لنا « دليل كارنيجي » هذه النصائح : ( أعدوا أنفسكم لقبول الحقيقة فإن التسليم بما حدث هو الخطوة الأولى في التغلب على المصائب . وهذه الحكمة « لوليم جيمس » فسرها الفيلسوف الصيني « لين يوتانغ » بقوله : إن طمأنينة الذهن لا تتأتي إلا مع التسليم بأسوأ الفروض ، ومرجع ذلك - من الناحية النفسية - أن التسليم يحرر النشاط من قيوده . قال : ومع ذلك فإن الألوف المؤلفة من الناس قد يحطّمون حياتهم في سورة غضب ، لأنهم يرفضون التسليم بالواقع المر ، ويرفضون إنقاذ ما يمكن إنقاذه ، وبدلًا من أن يحاولوا بناء آمالهم من جديد يخوضون معركة مريرة مع الماضي ، وينساقون مع القلق الذي لا طائل تحته ) .

والتحسُّر على الماضي الفاشل ، والبكاء المجهد على ما وقع فيه من آلام وهزائم هو - في نظر الإسلام - بعض مظاهر الكفر بالله والسخط على قدره .

ومنطق الإيمان يوجب نسيان هذه المصائب جملة ، واستئناف حياة أدنى إلى الرجاء وأحفل بالعمل والإقدام .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا  
لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْرَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ  
أُوْكَانُوا غُرْزَى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَأْتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ  
حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحِبُّ وَيُمِيّتُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾<sup>(1)</sup>

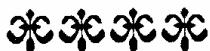
(1) الآية : ١٥٦ من سورة آل عمران .

وفي ضوء هذه الآية تُدركُ قول القائل :  
 فإنَّ تَكُنِ الأَيَامُ فِينَا تَبْدَلُتْ  
 فَمَا لَيْنَتْ مِنَّا قَنَّا صَلِيبَةً  
 وَلَكِنْ رَحَلَنَا هَا نُفُوسًا كَرِيمَةً  
 وَقَيْنَانَا بِحَسْنِ الصَّبْرِ مِنَّا نُفُوسًا  
 إِنَّ الْيَنْبُوْعَ الَّذِي تَسِيلُ مِنْهُ مَخَايِلُ الرَّجُولَةِ النَّاضِجَةِ هُنَّا  
 الْيَقِينُ الْحَقِّ .

إِنَّا وَجَدْتُ الصَّبْرَ يَسَاوِي الْبَلَادَةَ فِي بَعْضِ النَّاسِ فَلَا تَخْلُطُنَّ بَيْنَ تَبْلُدِ الطَّبَاعِ  
 الْمَرِيضَةِ وَبَيْنَ تَسْلِيمِ الْأَقْوَيَاءِ لِمَا نَزَلَ بِهِمْ .  
 وَأُولُو مَعَالِمِ الْحَرِيَّةِ الْكَامِلَةِ أَلَا يَضُرُّ الرَّجُلُ لَحْاجَةٌ فَقْدَهَا .

وَعِنْدَمَا يَكُونُ الْمَرْءُ عَبْدُ رَغْبَةِ تَنْقُصَهُ فَتَلُكُ ثَغْرَةً فِي رَجُولَتِهِ ، وَهِيَ بِالْتَّالِي  
 ثَلْمَةٌ فِي إِيمَانِهِ .

وَالْإِيمَانُ الْحَقُّ يَجْعَلُ الرَّجُلَ صُلْبَ الْعُودِ ، لَا يَمِيلُ مَعَ كُلِّ رِيحٍ ، وَلَا يَنْحَنِي مَعَ  
 أَى خَلَّةٍ . إِنَّا أَحْصَيْنَا الرِّجَالَ الَّذِينَ لَا يَأْخُذُهُمُ الدَّهَشُ أَمَّا الْمَفَاجَاتُ عَرَفْنَا أَنَّ لَهُمْ  
 مِنْ أَنفُسِهِمْ مَا يَهُوَنُ عَلَيْهِمْ أَى مَفْقُودٍ وَمَا يَسْلِيْهِمْ عَنْ كُلِّ فَائِتٍ ، وَبِهَذَا الشَّعُورُ  
 يَمْكُنُهُمْ أَنْ يَقْتَحِمُوا كُلَّ حَصَارٍ تَضَرِّبُهُ عَلَيْهِمُ الْلَّيَالِيُّ الْكَوَالِحُ .



إِنَّ الرَّجُلَ الْعَرَبِيَّ الْهَجَّامَ عَلَى لَذَائِذِ الْحَيَاةِ - مَتَعْسِفًا أَوْ مَتَلَطِّفًا - فِي اقْتِنَاصِهِ رِبَّا  
 تَصِيبَهُ النَّازِلَةُ مِنْ نَوَازِلِ الدَّهْرِ فَيَلْقَاهَا فِي غَيْرِ مُبَالَةٍ ، أَوْ يَقُولُ قَوْلُ امْرَئِ الْقَيْسِ :  
 (الْيَوْمُ خَمْرٌ وَغَدَّاً أَمْرٌ) .

وَفِي الْحَيَاةِ أَنَّاسٌ يَلْوِذُونَ بِالْاسْتَخْفَافِ وَالسُّخْرِيَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، فَإِنَّا صَوَّبَتْ  
 الْأَحْدَاثُ لَهُمْ سَهْمًا مِنْ جُوانِبِهِمْ كَمَا تَمَسَّ الْقَذِيفَةُ الطَّائِشَةُ أَطْرَافَ رَجُلٍ مَشْغُولٍ  
 عَنْهَا بِأَمْرِ نَفْسِهِ .

وَحَالَاتٌ هَؤُلَاءِ لَا تَجْعَلُ مُثَلًا يُحْتَذِى فِي تَحْمُلِ الشَّدَائِدِ بِجَلْدٍ أَوْ مَرْحٍ .

وَكُلُّ مَا تَدَلُّ عَلَيْهِ أَنَّ الْحَسَاسِيَّةَ بِالْآلامِ تَتَفَاقَوْتُ تَفَاوِتًا وَاسِعًا بَيْنَ النَّاسِ ، وَإِنَّ  
 الْاسْتَغْرَاقَ فِي حَالٍ مَا - طَيْبَةً أَوْ خَبِيثَةً - يَخْفَفُ مِنْ حَدَّ الشَّعُورِ بِالْأَذْى .

ومن ثمَّ وجب على طلاب الكمال وأهل المروءة أن يتحصنوا بِمُثلهم العليا ، وأن يتلمسوا السُّلُوي في ظلها .

وأن يجدوا في ذلك عزاء لا يجده الشُّطار والفُجَار في الرضى بما بهم الدنيا .

ولقد قصَّ علينا « ديل كارنيجي » قصة رجل أصابته قرحة في أمعائه بلغ من خطورتها أنَّ الأطباء حددوا له أوان وفاته ، وأوعزوا إليه أن يجهز كفنه . قال : ( وجاءَ اتَّخَذَ « هانى » - اسم المريض - قراراً مدهشاً . إنَّه فكر في نفسه إذا لم يبقَ لى في هذه الحياة سوى أمد قصير ، فلماذا لا أستمتع بهذا الأمد على أكمل وجه ، لطالما تمنَّيت أن أطوف حول العالم قبل أن يدركني الموت ، فها هو ذا الوقت الذي أحق فيه أمنيَّتى . وابتاع تذكرة السفر ، فارتاع أطباؤه وقالوا له : إننا نحدِّرك ، إنك إن أقدمت على هذه الرحلة فستدنن في قاع البحر ، لكنه أجاب : كلا ، لن يحدث شيء من هذا ، لقد وعدتُ أقاربى ألا يُدفن جثمانى إلا في مقابر الأسرة . ) وركب « هانى » السفينة ، وهو يتمثَّل بقول الحِيَام :

إنَّمَا أَقْصَى النَّعَيمَ بِمَا مَلَكتْ يَدَاكَ  
قَبْلَ أَنْ تُوسَّدَ الْحَدَّ فَلَا شَيْءٌ هُنَاكَ  
سَوْيَ تَرَابٍ مِّنْ تَحْتِكَ وَتَرَابٍ مِّنْ أَعْلَاكَ  
فَلَا شَرَابٌ وَلَا غُنَاءٌ وَلَا نَهَايَةٌ بَعْدَ ذَاكَ

وببدأ الرجل رحلةً مشبعة باللهو والاستخفاف ، وأرسل خطاباً لزوجته يقول فيه : « لقد شربتُ النبيذ على ظهر السفينة . ودخلتُ السيجار ، وأكلتُ ألوان الطعام كلَّها ، حتى الدَّسَم المُحظوظ منها ، وتمتعتُ في هذه الفترة بما لم أتمتع به في ماضى حياتى » ثم ماذا ؟ ثم يزعم « ديل كارنيجي » أنَّ الرجل صحيٌّ من علته ، وأنَّ الأسلوب الذى سار عليه أسلوب ناجع في قهر الأمراض ومغالبة الآلام ... .

لقد أيقن الرجل أنَّ ساعته حانت فلم تفزعه رهبة الموت ، وبنى مسلكه عقب تكشف مصيره له على انتهاز كل لحظة للعب من المتع الميسرة . فإذا هو بما عراه من سرور مذهل يتغلب على القرحة المعاوية ويستعيد عافيته الأولى .

ونحن لا ننكر آثار الانتعاش النفسي في هزيمة الصعب ، ونعرف بما لارتفاع القوى المعنوية من استهانة بالتعب ، واستطالة على العوائق ، وانتصار في أغلب معارك الحياة .

بيد أننا نلتف النظر إلى الغلط الشنيع في فهم الموت على أنه عدم محضر ، وسوق أبيات الخيّام السابقة لخفي الشهوات على التهام ما يمكنها من الحياة قبل أن تنتهي هذه الحياة ولا تعود .. هذه أكذب فرية يشيعها المبطلون في أرجاء العالم .

والحقُّ الذي كان يوجب على المنتسبين للأديان كافة أن يفقهوا وأن يقفوا عنده هو أنَّ الموت مرحلة تتلوها حياة أضخم من حياتنا هذه ، وأعمق إحساساً ، وأرحب آفاقاً . حياة تعدُّ حياتنا هذه لَهُوَا وَعَبَثًا إِلَى جانبيها ، ولذلك يعبر القرآن عنها بلفظ أكبر في مبناه ليكون أوسع في معناه فيقول :

﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوَ لَعْبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لِهِ الْحَيَاةُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (١)

إن الشعور بأن الموت بداية فناء مطلق وَهُمْ يشيّع للأسف بين الكثيرين ، وهو الذي يخامر المنتحررين عندما يقررون مغادرة الحياة .

إنَّهُمْ معدُّون بالإحساس الساري في أعصابهم بحملهم الغم والكرب ، فما الذي يريهم من هذا الإحساس ؟ . الموتُ الذي يتوهّمونه ضياعاً وانقطاعاً وفراغاً من كل شعور !! .

فكيف إذا علموا بالحقيقة المَرَّة ، ووجدوا أنفسهم التي يريدون إزهاقها ما تزال باقية لم يتغيّر منها إلا الإهاب الذي احتواها حيناً ، ثم عريت عنه دون أن ينقص وعيها أو يقلَّ حسُّها ؟ ! .

إنَّ ما بعد الموت طورٌ آخر من أطوار الوجود الإنساني يتَّسم بزيادة الوعي وحدَّة الشعور .

قيل : إنَّ أبا حامد الغزالى لما أحسَّ دُنُونَ أجله قال لبعض أصحابه : ائتنى بثوب جديد . فقال له : ما تريده به ؟ .

قال أبو حامد : سألقى به الملَك !! .

فجاءوه بالثوب ، فطلع به إلى بيته ، وأبطاً على أصحابه ، فلم يَعُدْ . فذهب إليه أصحابه يستطلعون نبأه ، فإذا هو ميت ، وإذا عند رأسه ورقة كتب فيها هذه الأبيات :

(١) العنكبوت : ٦٤ .

فرَثَوْنِي ، وبِكَوَالِي حَرَزَنا ..  
 لِيسُ<sup>(١)</sup> هَذَا الْمَيْتُ وَاللَّهُ أَنَا ..  
 كَانَ بَيْتِي وَقَمِيصِي زَمَنًا  
 طَرْتُ عَنْهُ وَبَقَى مُسْرَتَهَا  
 لَامْتَحَانِي فَنَفَيْتُ الْمَحَنَا<sup>(٢)</sup>  
 وَبَنِي لَى فِي الْمَعْالِي سَكَنَا  
 فَحَيَّيْتُ ، وَخَلَعْتُ الْكَفَنَا  
 وَأَرَى اللَّهَ جَاهَارًا عَلَنَا<sup>(٤)</sup>  
 لَسْتُ أَرْضِي دَارَكُمْ لَى وَطَنَا<sup>(٥)</sup>  
 كَحِيَاةٍ ، وَهُوَ غَيَايَاتُ الْمُنْيِ ..  
 هِيَ إِلَّا نُقْلَةٌ مِنْ هَاهَا ..

وهذه الأبيات ، سواء صحت نسبتها للغزال أم لم تصح ، فهي صورة صحيحة

لِلْفَكَرِ الدِّينِي عَمَّا دَارَ وَرَاءَ الْمَوْتِ .  
 قُلْ لِإِخْرَانِ رَأْوَنِي مِيتًا  
 أَتَظَنُونِي بِأَنِّي مَيْتٌ  
 أَنَا فِي الصُّورِ<sup>(٣)</sup> وَهَذَا جَسْدِي  
 أَنَا عَصْفُورٌ وَهَذَا قَفْصِي  
 أَنَا دُرْقَدٌ حَوَاهْ صَدَافٌ  
 أَحْمَدُ اللَّهَ الَّذِي خَلَصَنِي  
 كَنْتُ قَبْلَ الْيَوْمِ أَنْاجِي مَلَأْ  
 وَأَنَا الْيَوْمُ أَنْاجِي مَلَأْ  
 قَدْ تَرَحَّلْتُ وَخَلَفْتُكُمُوا  
 لَا تَظْنُوا الْمَوْتَ مَوْتًا إِنَّهُ  
 لَا تَرْعَكُمْ هَجْمَةُ الْمَوْتِ فَمَا  
 وَهَذِهِ الْأَبْيَاتُ ، سَوَاءَ صَحَّتْ نِسْبَتُهَا لِلْغَزَالِيَّ أَمْ لَمْ تَصُحْ ، فَهِيَ صُورَةٌ صَحِيحةٌ

وَلَقَدْ قَرَأْتُ لِأَحَدِ الْمَادِيِّينَ أَنَّهُ رَأَى صَرَصَارًا يَمُوتُ - لَعْلَهُ مِنْ ضَرْبَةِ عَابِرَةِ -  
 فَتَمَثِّلُ مَسْتَقْبَلَ الْبَشَرِيَّةِ كُلَّهَا فِي نَهَايَتِهِ التَّافِهَةِ ، إِنَّهَا هَكُذا تَنْقَضُ ، وَيَحْتَوِيهَا  
 ظَلَامُ الْعَدْمِ وَالنَّسِيَانِ !! .

أَمَا أَبْيَاتُ الْخَيَّامِ الَّتِي تَصُورُ الْمَيْتَ جَثَةً تَحْتَهَا تَرَابٌ وَفَوْقَهَا تَرَابٌ ، ثُمَّ لَا شَيْءٌ بَعْدَ ،  
 فَهِيَ لَيْسَ إِلَّا تَخْلِيْطًا فِي تَخْلِيْطٍ .

وَأَيُّ اْمْرِئٍ يَبْنِي حَيَاةً عَلَى هَذَا الزَّعْمِ فَهُوَ يَبْنِيَهَا عَلَى الْخَرَافَةِ .

وَقَدْ يَلْتَدُّ بِعِيشَهُ عَلَى أَوْسَعِ نَطَاقٍ ، وَقَدْ يَكُونُ غَرَامُهُ فِي مَلَاقَةِ الدُّنْيَا بِخَيْرِهَا  
 وَشَرِّهَا مَثَارِ نَجَاحٍ وَتَأْمِيلٍ ، وَلَكِنَّا لَا يَجُوزُ أَنْ نُخْدِعَ بِهَذِهِ الصُّورَةِ الْبَاطِلَةِ .  
 فَالنَّهِيْجُ الْأَقْوَمُ أَنْ يَكُونَ مَصْدِرُ طَاقَتِنَا الْمَادِيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ هُوَ الْحَقُّ وَحْدَهُ .

وَمَاذَا عَلَى الْمَرِيضِ الْمَصَابِ بِقَرْحَةِ الْأَمْعَاءِ لَوْ أَنَّهُ حَسْبُ الْمَوْتِ نُقْلَةٌ مِنْ بَلْدٍ إِلَى بَلْدٍ ،  
 فَلَمْ يَرِفِّهِ وَحْشَةٌ مَرْوِعَةٌ وَلَا ظَلَامًا مَهْوَلًا .

(١) يَرْفَضُ أَنْ تَكُونَ الشَّخْصِيَّةُ الْإِنْسَانِيَّةُ هِيَ تِلْكَ الْجَثَةُ الْبَالِيَّةُ .

(٢) يَعْنِي الْبَرْزَخُ بَيْنَ الْحَيَايَيْنِ ؛ وَمَا كَانَ الْجَسْدُ قَبْلًا إِلَّا مَلِبَسًا خَلْعٌ .

(٣) بِالْمَوْتِ تَنْتَهِي فَتْرَةُ الْاِخْتِبَارِ وَتَبْدأُ سَعَادَةُ السَّعَادَاءِ .

(٤) رُؤْيَا رُوحِيَّةٌ بَدَاهَةٌ لَا كَمَا يَتَبَادِرُ إِلَى الْذَّهَنِ .

(٥) الْجَحْيُ إِلَى الدُّنْيَا ثُمَّ تَرْكُهَا مُشَيْئَةً إِلَهِيَّةً خَالِصَةً ، وَلَكِنْ فِي الْكَلَامِ مَعْنَى الْاسْتِبْشَارِ بِالْعَالَقِي ..



وماذا عليه لو تحمل نبأ العلة التي أصابته بطمأنينة وتسليم لأنه يؤمن بالله ، ولا يحزن من لقائه وإن اقترب موعده؟ ! .

وأقرب إلى الحقيقة من أبيات الخيام الآنفة أبيات الشاعر « محمد مصطفى حمام » التي يقول فيها<sup>(١)</sup> :

إِنَّمَا كَانَتْ أَمْتَحَانًا طُويلاً  
أَوْ أَرَى بَعْدَهُ عَذَابًا وَبِيلًا  
لِيَ بِالصَّفْحِ يَوْمَ أَرْجُو الْكَفِيلًا  
خَبُثَتْ غَايَةً وَسَاعَتْ سَبِيلًا  
بَطْشَهُ رَحْمَةً وَصَفْحَاهُ جَمِيلًا  
إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا

عَلِمْتُنِي الْحَيَاةُ أَنَّ (حياتي)  
قد أَرَى بَعْدِهِ نَعِيمًا مَقِيمًا  
عَلَّ خَوْفِي مِنَ الْحَسَابِ كَفِيلًا  
عَلَّ خَوْفِي يَرْدَنِي عَنْ أَمْرِهِ  
وَعَدَ اللَّهُ مِنْ يَنِيبُ وَيَخْشِي  
وَبِحَسْبِي وَغَدُّ مِنَ اللَّهِ حَقٌّ

الواقع أنَّ الجزع والجبن والتحسر وشتى العواطف التي تنتاب الناس بإزاء الموت تعود إلى فهمه على أنَّه انتقال من وجود إلى عدم ، ومن ضياء إلى ظلام ، ومن إيناس إلى وحشة .

فهل يدرى هؤلاء أنَّ هذه الحياة الدنيا بما فيها ومن فيها ستكون ذكريات حافلة مثيرة ، وأنَّ يومًا لا بدَّ منه سوف يقدم ليتلاقى فيه الصالحون ، فيقول بعضهم لبعض :

﴿ قَالُوا إِنَّا كُنَّا نَاقْبِلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَنَا  
عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِ تَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾

أما حديثهم عن الملحدين والجحدة فإليك نبأ :

﴿ فَاقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَسْأَءُ لَوْنَهُ ﴾  
قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ لِكَيْفَ يَقُولُ أَئْنَكَ لَمْ يَنْلِ المُصْدِقَيْنَ لَهُ أَئْذَا  
مِنْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعَظَلَمًا أَئْنَ الْمَدِينُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُظَلِّمُونَ  
﴿ فَأَطْلَعَ فَرَعَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴾<sup>(٣)</sup> قَالَ تَالَّهُ إِنِّي كِدَّتْ لَتُرْدِينَ ﴾

﴿ ﴿ ﴾

(٢) الصافات : ٥٦، ٥٠

(٢) الطور : ٢٨، ٢٦

(١) من قصيدة ثبتت بقيتها في موطن آخر .

## هموم وسموم

الخبراء بحياة الغرب يُشكّون من مرارة الكفاح الدائري في أرجائه للحصول على المال والملكاشرة به .

فالأفراد والجماعات منطلقون في سباق رهيب لإحراز أكبر حظّ مستطاع من حُطام الدنيا .

وقواهم البدنية والنفسية تدور كالألة الدائبة وراء هذه الغاية ، وقد احتشدت فيها جميع الخصائص الإنسانية الدنيا والعليا .

إلا أنَّ الآلات قد يُقْطُر عليها من الزيت ما يرْتَب حدة الاحتكاك في حركتها ، ويمنع الشرر المتولّد من إحراقها . أما أعصاب الناس في عراك المادة الرهيب فكثيراً ما تفقد هذا العنصر الملطف ، وتتصوّي مُستشارةً يستبدل بها القلقُ والضيق حتى تشتعل فتائيَّ على الأخضر واليابس .

وقد كتب « ديل كارنيجي » يصف مشاهد هذا السُّعار الماديٌّ وما خلَفَه في النفوس والجسوم من بلاء فقال : ( عشتُ في نيويورك أكثر من سبع وثلاثين سنة ، فلم يحدث أن طرق أحد بابي ليحدِّرني من مرض يُدعى « القلق » ، هذا المرض الذي سبَّب في الأعوام السبعة والثلاثين الماضية من الخسائر أكثر مما سبَّبه الجدرى بعشرة آلاف ضعف ، نعم لم يطرق أحدٌ بابي ليحدِّرني أنَّ شخصاً من كل عشرة أشخاص من سكان أمريكا معرَّض للإصابة بانهيار عصبيٍّ مرجعه في أغلب الأحوال إلى القلق !! ) .

ويقرر الأطباء أنَّ واحداً من كل عشرينأمريكيّاً سوف يقضي جانباً من حياته في مَصَح للأمراض العقلية ، ومن الحقائق المريمة أنَّ واحداً من كل ستة شبابٍ تقدَّموا للالتحاق بالخدمة العسكرية في خلال الحرب العالمية الأخيرة رُدَّ على أعقابه لأنَّه يعاني مرضًا جسديًا أو نقصاً عقليًا . . . قال : ( وألقى الدكتور « هارولدسين هابين »

الطيب بمستشفى «مايو» رسالة في الجمعية الأمريكية للأطباء والجراحين العاملين في المؤسسات الصناعية قال فيه : «إنه درس حالات ١٧٦ رجالاً من رجال الأعمال أعمارهم مُتَجَانِسَة في نحو الرابعة والأربعين ، فاتضح له أنَّ أكثر من ثلث هؤلاء يعانون واحداً من ثلاثة أمراض تنشأ كلها عن توتر الأعصاب ، وهي : اضطراب القلب ، وقرحة المعدة ، وضغط الدم . ذلك ولما يبلغ أحدهم الخامسة والأربعين بعد» . وهذا هو ثمن النجاح ، هل يعُد ناجحاً ذاك الذي يشتري نجاحه بقرحة في معدته ولغط في قلبه ، وماذا يفيده المرض إذا كسب العالم أجمع وخسر صحته ؟! لو أنَّ أحداً ملك الدنيا كلها ما استطاع أن ينام إلا على سرير واحد ، وما وسعه أن يأكل أكثر من ثلاث وجبات في اليوم ، فما الفرق بينه وبين الفاعل الذي يحفر الأرض ؟! لعلَّ الفاعل أشد استغرقاً في النوم ، وأوسع استمتاعاً بطعمه من رجل الأعمال ذي الجاه والسطوة .

ويقول الدكتور «و . س . الفاريز» : اتَّضح أنَّ أربعة من كل خمسة مرضى ليس لعلهم أساس عضوَي البتَّة ، بل مرضهم ناشيء عن الخوف ، والقلق ، والبغضاء ، والأثرة المستحكمة ، وعجز الشخص عن الملازمة بين نفسه والحياة )

### ٣٣٣٣٣٣

على ضوء هذه الصيحات المخزونة نحب أن نذكر بعض أحاديث النبي محمد رسول الله ﷺ في ذم هذا التكالب والترهيب من عقباه ، قال : «من جعل الله همَّا واحداً كفاه الله همَّ دنياه . ومن تَشَعَّبَتْهُ الهموم لم يُبَالِ الله في أىٰ أُودِيَّةِ الدُّنْيَا هَلَّكَ»<sup>(١)</sup> .

هذا اللون من التوجيه النبوى يقصد به بث السكينة في الأفئدة ، واستئصال جراثيم الطمع والتوجع التي تُطْبِلُ لُعُوبَ الإنسان وراء الدنيا وتحسّره على ما يفوته منها ، وفي ذلك يقول : «من كانت الآخرة همَّه جعل الله غناه في قلبه ، وجمع له شملَه ، وأتَّهُ الدنيا وهي راغمة . ومن كانت الدنيا همَّه جعل الله فقره بين عينيه ، وفرق عليه شملَه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّرَ لَه»<sup>(٢)</sup> . وقال : «تفرَّغوا من هموم الدنيا ما استطعتم ، فإنه من كانت الدنيا أكبر همَّه أفشى الله ضَيْعَتَه ، وجعل فقره

(٢) الترمذى .

(١) الحاكم .

بين عينيه . ومن كانت الآخرة أكبر همه جَمَعَ اللَّهُ لَهُ أُمُورَهُ ، وجعل غناه في قلبه .  
وما أَقْبَلَ عَبْدًا بقلبه على الله عَزَّ وجلَّ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ تَفَدِ إِلَيْهِ بِالْوُدُّ  
والرحمة ، وكان الله إليه بكل خَيْرٍ أَسْرَعَ «<sup>(١)</sup>» .

وفى مواريث النبوة أحاديث كثيرة من هذا النوع الرضى الهادئ ، وهى حكم باللغة  
إذا سبقت فى مجالها ووضعت فى مواضعها ، وهى لا تعنى إلا كفـفة  
الجهود المجنونة فى معركة الخبز ، وضبط عواطف البشر وراء مطالب الحياة ، فلا  
يكون زحامهم وسباقهم ذريعة إلى غرس الأضغان ، ونسيان الفضائل ، وحرق  
الصداقات ، ورد الإنسان المذهب الرقيق حيواناً محدود الظفر والناب يحول مناكب  
الأرض إلى مسبعة متهاشة .

ولكن بعض الزهاد فهم الأحاديث الآنفة فهمـا مقلوبـا ، واستخدمها لإبطال أعمال  
الحياة بدلاً من تهذيبها ، فأساء بذلك إلى الدين والدنيا معـا .

إن من حق الدنيا علينا أن نعمل فيها ، وأن ننال من ضروراتها ومرفـاتها ما يحفظ  
حياتها ويسعدـها ، وقد يكلـفنا هذا العمل جهـداً شـاقـاً يتـصبـبـ معـه العـرق ويـطـولـ فيـهـ  
الـعـنـاءـ ،ـ وـلـكـنـ هـذـاـ الحـقـ المـقرـرـ ،ـ وـهـذـاـ الجـهـدـ المـبذـولـ لـبـلوـغـهـ لاـ يـجـوزـ أـنـ يـمـيلـ بـنـاـ عـنـ  
الـجـادـةـ ،ـ أوـ يـزيـغاـ بـنـاـ عـنـ الرـشـادـ .

فالمال إذا طلبناه فلكى ننفقـهـ لاـ لـكـىـ نـخـتـزـنـهـ ،ـ وـإـذـاـ أـحـبـنـاهـ وـحـصـلـنـاهـ فـلـنـبـذـلـهـ فـيـماـ  
يـحـقـ مـصـالـخـنـاـ وـيـصـونـ حـيـاتـنـاـ .

ومن الحماقة أن يتحولـ المـالـ إـلـىـ هـدـفـ مـقـصـودـ لـذـاتـهـ تـذـوبـ فـيـ جـمـعـهـ المـهجـ ،ـ  
وـتـرـتـحـصـ العـافـيـةـ ،ـ وـتـكـاثـرـ الـهـمـومـ ،ـ وـتـجـذـبـ الـأـمـراضـ !! .

### ٣٦٣٦٣٦٣٦

قال ابن الرومي :

إِنَّمَا الْحَرْصُ مَرْكَبُ الْأَشْقِيَاءِ  
وَعَلَى الْمُتَعَبَّاتِ ذِيلُ الْعَفَاءِ  
عَلِيِّشِ مَشَمَّرٍ لِّلْفَنَاءِ

قَرِبُ الْحَرْصُ مَرْكَبًا لِّلْشَّقِيِّ  
مَرْحَبًا بِالْكَفَافِ يَأْتِي هَنِيَّاً  
ضِلَّةً لِامْرَءٍ يُشَمِّرُ فِي الْجَمَ—

(١) البهقى .

رث والعمر دائب في انقضاء  
نت لرب الكنوز كنْز بقاء  
وهو منه على مدى الجوزاء  
وما ذاق عاجل النعماء  
نَ يَرِى أَنَّهُ مِنَ الشَّعَادَاءِ  
نَظَرَتْ عَيْنَهُ بِلَا غُلَوَاءِ  
ضَرِّ إِخْرَازٌ مُسْكَنَةُ الْحَوْبَاءِ  
يَجْمَعُ النَّاسُ مِنْ فُضُولِ الشَّرَاءِ  
قُولِيسوا بِتَابِعِي الأَهْوَاءِ  
إِنَّا عَيْشُ عَائِشٍ بِالْهَنَاءِ

ولإسلام تعاليم طيبة في موقف الإنسان من دنياه ، إنَّه يتجه ابتداء إلى القلب  
فيغرس فيه العفاف والترفع ، ويُذكرُ إليه الجشع والشرابة والتطلع .

إن لعشق المال ضراوة تفتک بالضمائر والأبدان ، وتوirth المذلة والهوان ، وانظر ما  
يعقبه الحُبُ الشديد للمال والقلق البالغ من فواته .. يقول « ديل كارنيجي » : ( من  
الحقائق المعروفة أنه عندما تهبط قيمة الأسهم في (البورصة) ترتفع نسبة السكر في  
البول والدم بين المضاربين !! ) .

أى علاج لهذه الحال أكرم من قول محمد رسول الله ﷺ : « إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَاضِرٌ  
لُحُولٌ ، مَنْ أَخْذَهُ بِسْخَاوَةٍ نَفْسٌ بُورَكَ لَهُ فِيهِ ، وَمَنْ أَخْذَهُ باسْتِشَارَفٍ نَفْسٌ لَمْ يُبَارَكْ  
لَهُ فِيهِ ، وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ ... )<sup>(1)</sup> . »

إن المال كالفاكهه الجميلة اللون ، الشهية المذاق ، وميل الطبع إلى اقتناه هذا  
الخضر الحلو معروف ، بيد أن من الناس من يظل يطعم حتى تقتله التخمة . ومنهم  
من يختطف ما في أيدي الآخرين إلى جانب نصيه العقول .

ومنهم من يدخر ويجمع . ومنهم من يشغله القلق خشية الحرمان ، ومن يشغله  
القلق طلب المزيد .

(1) أبو داود .

دائِيَا يَكْنِزُ الْقَنَاطِيرَ لِلْوَا  
حْبَذَا كَثْرَةُ الْقَنَاطِيرِ لَوْ كَا  
يَخْسِبُ الْحَظَّ كُلَّهُ فِي يَدِيهِ  
لَيْسَ فِي أَجْلِ النَّعِيمِ لَهُ حَظٌّ  
ذَلِكَ الْخَائِبُ الشَّقِيقُ وَإِنْ كَا  
حَسْبٌ ذِي إِرْبَةٍ وَرَأْيِ جَلِيٍّ  
صَحَّةُ الدِّينِ وَالْجَوَارِحُ وَالْعِرَزُ  
تَلِكَ خَيْرُ لِعَارِفِ الْخَيْرِ نَمَّا  
وَلَهَا مِنْ ذُوِي الْأَصَالَةِ عُشَّا  
لَيْسَ لِلْمُكْثَرِ الْمَنْفَعِ عِيشُ

وَلِإِسْلَامِ تَعَالِيمَ طَيْبَةً فِي مَوْقِفِ الإِنْسَانِ مِنْ دُنْيَاهُ ، إِنَّهُ يَتَجَهُ ابْتِدَاءً إِلَى الْقَلْبِ

فَيَغْرِسُ فِيهِ الْعَفَافَ وَالْتَّرَفُّعَ ، وَيُنْكِرُهُ إِلَيْهِ الْجَحْشَ وَالْشَّرَاهَةَ وَالْتَّطَلُّعَ .

إن لعشق المال ضراوة تفتک بالضمائر والأبدان ، وتوirth المذلة والهوان ، وانظر ما  
يعقبه الحُبُ الشديد للمال والقلق البالغ من فواته .. يقول « ديل كارنيجي » : ( من  
الحقائق المعروفة أنه عندما تهبط قيمة الأسهم في (البورصة) ترتفع نسبة السكر في  
البول والدم بين المضاربين !! ) .

أى علاج لهذه الحال أكرم من قول محمد رسول الله ﷺ : « إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَاضِرٌ  
لُحُولٌ ، مَنْ أَخْذَهُ بِسْخَاوَةٍ نَفْسٌ بُورَكَ لَهُ فِيهِ ، وَمَنْ أَخْذَهُ باسْتِشَارَفٍ نَفْسٌ لَمْ يُبَارَكْ  
لَهُ فِيهِ ، وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ ... )<sup>(1)</sup> . »

إن المال كالفاكهه الجميلة اللون ، الشهية المذاق ، وميل الطبع إلى اقتناه هذا  
الخضر الحلو معروف ، بيد أن من الناس من يظل يطعم حتى تقتله التخمة . ومنهم  
من يختطف ما في أيدي الآخرين إلى جانب نصيه العقول .

ومنهم من يدخر ويجمع . ومنهم من يشغله القلق خشية الحرمان ، ومن يشغله  
القلق طلب المزيد .

(1) أبو داود .

وأفضل الناس من يأخذونه بسماحة وشرف ، فإذا تحول عنهم لم يشيّعوه بحسنة أو يرسلوا وراءه العبرات لأن بناءهم النفسي يقوّم وحده بعيداً عن معايير المكافأة ، ورذائل النّهم والتّوسيع ..

قال رسول الله ﷺ : « يا أيها الناس إنَّ الغنى ليس عن كثرة العَرَض ، ولكن الغنى غنى النفس . وإنَّ الله عزَّ وجلَّ يُؤْتِي عبده ما كُتِبَ له من الرِّزق ، فأجملوا في الطلب ، خذلوا ما حَلَّ ودعوا ما حَرَم »<sup>(١)</sup> .

والإجمال في الطلب - كما رأيت - لا يعني القعود أبداً .

إنَّ الطلب الجميل تكبّب الحلال في سماحة ورفق ، واطراح الحرام في زهادة وأنفة ، ثم تجىء بعد ذلك بقية تعاليم الإسلام القائمة على الإيمان بالله ، والتصديق بلقائه ، وإيثار ما عنده ، ومعرفة قدر الدنيا بالنسبة إلى الأخرى .

ثم معرفة قدر الله جل شأنه بالنسبة إلى ما عداه .

إن هذه المعرفة تنفي الأحزان عن صاحبها ، وتذر في فؤاده ثقة تغمر يومه وغده بالراحة والرضا :

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَطَمَّئِنَ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ الْأَكْبَرِ إِنَّ اللَّهَ يَأْتِي مَعَهُ الْقُلُوبُ﴾  
﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلِمُوا الصَّلِحَاتِ طَوْبَ الْمَهْرُ وَحُسْنُ مَعَابٍ﴾<sup>(٢)</sup>

أجل . طوبى لهم ، إنهم سعداء بيقينهم وإخلاصهم واستقامتهم على النهج الذي رسمه الإسلام لهم . « طوبى لمن طاب كسبُه ، وصلحت سريرته ، وكرمت علانيته ، وعزل عن الناس شره . طوبى لمن عمل بعلمه ، وأنفق الفضل من ماله ، وأمسك الفضل من قوله .. »<sup>(٣)</sup> .

إن جماهير غفيرة من الرجال الذين تظلّهم حضارة الغرب محرومون من هذه الوداعة .

يقول « ديل كارنيجي » : ( لقد أثبتت الإحصاء أنَّ القلق هو القاتل ( رقم ١ ) في أمريكا ، ففي خلال سنتين الحرب العالمية الأخيرة قُتل من أبنائنا نحو ثلث مليون مقاتل . وفي خلال هذه الفترة نفسها قضى داء القلب على مليوني نسمة .

(٣) الترغيب والترهيب .

(٢) الرعد : ٢٨ ، ٢٩ .

(١) أبو يعلى .

ومن هؤلاء الآخرين مليون نسمة كان مرضهم ناشئاً عن القلق وتوتر الأعصاب .. نعم إنَّ مرض القلب من الأسباب الرئيسية التي حدت بالدكتور «الكسيس كاريل» إلى أن يقول : إنَّ رجال الأعمال الذين لا يعرفون كيف يكافحون القلق يموتون مبكرین .

وقلما يمرض الزوج في أمريكا أو الصينيون بأمراض القلب ، فهؤلاء أقوام يأخذون الحياة مأخذًا سهلاً ليناً . وإنك لترى أنَّ عدد الأطباء الذين يموتون بالسكتة القلبية يزيد عشرين ضعفاً على عدد الفلاحين الذين يموتون بالعلة نفسها ، فإنَّ الأطباء يحيون حياة متواترة عنيفة ويدفعون الثمن غالياً ) .

أجل فإنَّ القلق والهم يحطمان العمالقة ، ويدلان الوجه الطافحة بالحياة ، ولذلك يقول الشاعر :

**والهمْ يخترم الجسم نحافةٌ      ويُشيب ناصية الصبي ويُهرمُ**

وقد كنتُ أعجب كيف أنَّ فلاناً امتلكه الحزن إثر كارثة عصيبة ، فإذا بعض أضراسه قد سقط من فمه ، ثم أدركت بعد كسوف الطب الحديث أنَّ الأزمات النفسية العاتية شديدة الوطأة على الجسم ، وأنها تحول العصارات الهاضمة إلى سموم ، فلا تستفيد المعدة من أغنى الأطعمة بالغذاء ، وأنها تفتت جير الأسنان ، وتنزللها من مستقرها العتيق .

وقد قرأتنا كيف أنَّ بكاء يعقوب على ابنه أفقد بصره ، وكيف أنَّ الغم بلغ مداه بالسيدة عائشة - عندما تطاول عليها الأفاكون - فظلت تبكي حتى قالت : « ظنتُ أنَّ الحزن فالق كبدى » .

وقد أدرك الموجّهون خطر الأحزان على كيان الأم وإن tragedia ، فتألفت في (ألمانيا) منذ سنين جماعة جعلت شعارها : القوة في السرور . وإنه لخير للأم أن تستقبل الحياة بشُرْ وأمل كى تستفيد من وقتها ومالها ، ومن حقّها على قادتها أن يجنبوها القُنوط والتشاؤم والاستكانة ، فإنَّ هذه المشاعر الباردة تطويها في أكفان الموت قبل أن تموت :

**ليس من مات فاستراح بيتٌ  
إنما الميت ميتُ الأحياء  
كاسفًا بالله قليل الرّباء  
إنما الميت من يعيش كثيّبًا**

وما أظن عاقلاً يزهد في البشاشة أو مؤمناً يجنب إلى التشاوم واليأس ، وربما غلت المرأة أعراض قاهرة فسلبته طمأنينته ورضاه ، وهنا يجب عليه أن يتثبت بالعناية العليا كى تنقذه مما حل به ، فإن الاستسلام لتيار الكآبة بداية انهيار شامل في الإرادة يطبع الأعمال كلها بالعجز والشلل .

ولذلك كان رسول الله ﷺ يعلم أصحابه أن يستعينوا بالله في النجاة من هذه الآفات . قال أبو سعيد الخدري : دخل رسول الله ﷺ المسجد ذات يوم ، فإذا هو برجل من الأنصار يقال له أبو أمامة ، فقال : « يا أبو أمامة .. ما لى أراك جالساً في المسجد في غير وقت صلاة ؟ قال : هموم لزمنتني وديون يا رسول الله . قال : أفلأ علمك كلاماً إذا قلته أذهب الله همك ، وقضى عنك دينك ؟ قلت : بلى يا رسول الله . قال : قل إذا أصبحت وإذا أمسيت : اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهْر الرجال »<sup>(١)</sup> . قال : فعلت ذلك ، فأذهب الله همى وقضى عنى ديني .

وبديهي أن ترديد كلمات معينة ليس إلا مفتاحاً لأحوال نفسية جديدة تتغير بها حياة الرجل ، ثم تستقيم بعدها خطاه وتلاحقه عنابة الله .

وقد رأيت أن النبي ﷺ استغرب قعود الرجل في المسجد ، فرده إلى الميدان مُزوّداً بدعاء يفتح به نهاره ، ويبدأه بعيداً عن أغلال الضيق النفسي والشلل الفكري . وبذلك يأمن « غلبة الدين ، وقهْر الرجال » .

وعن شداد بن أوس قال : كان رسول الله ﷺ يعلمـنا أن نقول : « اللـهم إـنـي أـسأـلك ثـباتـ فـي الـأـمـر ، وـأـسـأـلك عـزـيمـة الرـشـد ، وـأـسـأـلك شـكـرـ نـعـمـتـكـ وـحـسـنـ عـبـادـتـكـ ، وـأـسـأـلك لـسـانـا صـادـقاـ ، وـقـلـبـا سـلـيمـاـ ، وـأـعـوذـ بـكـ مـنـ شـرـ مـا تـعـلـمـ ، وـأـسـأـلكـ مـنـ خـيـرـ مـا تـعـلـمـ ، وـأـسـتـغـفـرـكـ مـمـا تـعـلـمـ ؛ إـنـكـ أـنـتـ عـلـامـ الغـيـوبـ »<sup>(٢)</sup> .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : « قلماً كان رسول الله يَقُومُ من مجلس حتى يَدْعُ بِهؤلاء الدعوات لأصحابه : « اللـهم إـنـكـ أـقـسـمـ لـنـا مـنـ خـشـيـتـكـ مـا يـحـوـلـ بـيـنـنـاـ وـبـيـنـ مـعـاصـيـكـ ، وـمـنـ طـاعـتـكـ مـا تـبـلـغـنـاـ بـهـ جـنـتـكـ ، وـمـنـ الـيـقـيـنـ مـا تـهـوـنـ بـهـ عـلـيـنـاـ مـصـيبـاتـ الدـنـيـاـ . وـمـتـعـنـاـ بـأـسـمـاءـنـاـ وـأـبـصـارـنـاـ وـقـوـتـنـاـ مـا أـحـيـيـتـنـاـ ، وـاجـعـلـهـ الـوارـثـ مـنـاـ . وـاجـعـلـ

(١) أبو داود . (٢) الترمذى .

ثَأْرَنَا عَلَىٰ مِنْ ظَلَمَنَا ، وَانْصُرْنَا عَلَىٰ مِنْ عَادَنَا ، وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا ،  
وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمَنَا ، وَلَا مَيْلَغَ عِلْمِنَا ، وَلَا تُسْلِطْ عَلَيْنَا مِنْ لَا يَرْحَمُنَا»<sup>(١)</sup> .

إنَّ هذه الأدعية - كما أشرنا إلى ذلك في بعض كتبنا - أشبه بالأشيد الحماسية التي تشير عواطف الرَّكب السائر ، فهي ليست جُوار القاعدين ولا أمانٍ الهمادين ، بل هي أمداد دافقة من الحق والضياء واليقين يتغلب بها البشر على مشكلات العيش ومضايق الأيام .

ثم هي تحديد للمعاني التي يصح التمسك بها والتقلُّب في جوها ، وهي معانٌ قوامها عقد العزم على العمل في ظل الإيمان والعافية والعدالة ، وفي ظل الكبراء على مشاغل الدنيا ومحرجاتها الجمة .

وبهذا المنهج يطيب المرء روحًا وبدنًا ، ويكتمل دينًا ودنيا .

وبعض الناس يتصور أنَّ الدعاء موقف سلبي من الحياة ؛ أليس عرض حاجات وانتظار إجابة؟!

ويوم يكون الدعاء كذلك لا يعدو تردید أمانی ، وارتقاء فرج من الغد المجهول ؛ فإن الدعاء يكون لغواً ، ولا وزن له عند الله ..

إنَّ الدعاء أولاً تحديد وجهة ، ورسم مثل أعلى ، فأبراهيم عندما قال :

﴿رَبِّ أَجْعَلْنِي مُقِيمًا صَلَوةً وَمِنْ ذِرَّيْ رَبِّنَا وَنَفِيلَ دُعَاءً﴾<sup>(٢)</sup> كان بهذا الدعاء يجعل إقامة

الصلاحة منهج حياة ، ومشغلة إنسان .

أين منه أولئك الذين يضيقون بالصلاحة ، ولا يأتونها إلا وهم كُسالي؟ .

وعباد الرحمن عندما قالوا : «رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَدُرِّيْتَنَا قُرْسَةً أَعْيُنٍ وَجَعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً»<sup>(٣)</sup>

كانوا بهذا النداء ينشدون في المجتمع البشري الأسرة المستقرة ، والبيت السعيد ، كما كانوا ينشدون لأنفسهم السبق في مجال التقوى ، والتقدير في كل خير .

وبديهيٌ أن ينضم إلى ذلك ما يحقق المثل المرسوم من عمل يُقْرَب ، وخطوات موصلة .

(١) الترمذى . (٢) إبراهيم : ٤٠ .

(٣) الفرقان : ٧٤ .

على أنَّ من أهل الدين من ظلم حقيقة الإيمان بالله واليوم الآخر ، فظنَّ أنَّ هذا الإيمان يعترض الحياة الصحيحة ، كما يعترض ظلَّ الأرض ضوء القمر ليلة الْخُسُوف . إن وظيفة هذا الإيمان لديهم أن يجئ إلى الحياة البهجة فيرمي جوانبها بالقتام والوحشة ، فما تصفو الدنيا لمؤمن ، أو بتعبير أدق : إن مقتضى الإيمان اجتذاب اليساء والضراء والكبد والنُّكُد إلى حياة الأفراد والجماعات .

وهذا خطأ كبير وظلم للدين جسيم ، فإنَّ نبيَّ الإسلام - وهو أزكي مَنْ عبد الله - لم يفهم الحياة هذا الفهم ، ولم يحمل الإسلام هذا العبء .. كيف وهو القائل : «اللَّهُمَّ أصلحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عَصْمَةُ أَمْرِي ، وَأصلحْ لِي دِنِيَايِّ التِّي فِيهَا مَعَاشِي ، وَأصلحْ لِي آخِرَتِي التِّي فِيهَا مَعَادِي ، وَاجْعَلْ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ ، وَاجْعَلْ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍ»<sup>(١)</sup> !! .

ولماذا يُحسب الألم والهوان والقلق من لوازم اليقين ، أو تُحسب وسائل لرضاة الله ، مع أنَّ رسول الإسلام كان يكرهها كلَّها ويستجير بالله منها . فعن أبي هريرة رضي الله عنه : كان رسول الله يتَعَوَّذُ من جُهْدِ الْبَلَاءِ ، وَدَرْكِ الشَّقَاءِ ، وَسُوءِ الْقَضَاءِ ، وَشَمَائِلِ الْأَعْدَاءِ !! .

إنَّ من الصحابة - رضوان الله عليهم - من وقع في هذا الغلط ، وحسب أنَّ التعرض العمد للضرر كفارة للخطايا ، فأفهّمهم النبي السُّمْحُ أنَّ الأمر أيسر من ذلك . رُوى أنَّ رسول الله ﷺ عاد رجلاً من المسلمين قد خفت فصار مثل الفrex - هُزَالاً - فقال له رسول الله ﷺ : «هل كنت تدعوا الله بشيء أو تسأله إياه؟». قال : نعم . كنت أقول : «اللَّهُمَّ مَا كنْتَ مَعَاقِبِي بِهِ فِي الْآخِرَةِ فَعُجِّلْهُ لِي فِي الدِّنِيَا» ، فقال رسول الله : «سبحان الله !! لا تطيقه ، أفلًا قلت : اللَّهُمَّ أَتَنَا فِي الدِّنِيَا حَسْنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسْنَةً ، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ»<sup>(٢)</sup> . قال : فَدَعَا اللَّهُ لَهُ فَشَفَاهُ .

وسمع النبي رجلاً يقول : (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الصَّبْرَ) . فقال : «سأَلَتِ اللَّهُ الْبَلَاءُ فَسَلَّهُ الْعَافِيَةَ»<sup>(٣)</sup> .

وقال مُطَرِّف بن عبد الله : (لأنَّ أَعْفَى فَأشَكَرُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَبْتَلَى فَأَصْبَرَ ، لأنَّ مَقْمَعَ الْعَوْافِي أَقْرَبَ إِلَى السَّلَامَةِ ، فَلَذِلِكَ أَخْتَارَ الشَّكَرَ عَلَى الصَّبَرِ لأنَّ الصَّبَرَ حَالَ أَهْلَ الْبَلَاءِ) .

قال الدكتور زكي مبارك : (وصاحب هذا الكلام يرى العافية من أبواب السَّلَامَةِ ، أَي سلامَةِ النُّفُوسِ ، لأنَّ الْبَلَاءَ قد يعرِّضُ النَّفْسَ للْجُزْعِ والارتِيابِ ،

(٢) الترمذى .

(٢) مسلم .

(١) الترمذى .

وتعريف النفس للفتنة غير مأمون العاقب . أما العافية فتحفظ توازن النفس ،  
وتجعل الرجل قادرًا على صالح الأعمال .

والحق أنَّ الإنسان يكابر حين يرحب بالمصائب ، لأنَّه أسيء نظام الأعصاب في  
أغلب الأحيان . ومن الخير له أن يسأل الله العافية وأن يتجنَّب التعرُّض للامتحان ،  
فقد يضعف عن مواجهة ما يشهي من المصاعب ، ويعرف بعد الانزلاق في هوة  
المكاره أن العزم قد تفتر أو تخون ..

وعند التأمل ترى النعم والعواقب تزيد في الصلة الروحية بين الإنسان وبين  
ربِّه ، والفرق بعيدٌ بين الحالين : حال الطمأنينة ، وحال الاحتساب ، فالمطمئن  
ينظر إلى ربِّه نظرة المدين ، وهي نظرة كلها ترقُّ وتخشع . أما الصابر المحتسب  
فيتعرض للزهو بالصبر على ما يُعاني . والزهو من أشد آفات النفوس ) .

وهذا كلام حسن جيد ..

ونحن نحبُّ أن تكون عباد إحسان لا عباد امتحان .

ولكن هل تحبِّ الأيام بما تحبُّ؟ . ما أكثر العواصف التي تهبُ علينا ، وتملأ آفاقنا  
بالغيوم المرعدة ، وكم يواجه المرء بما يكره ، ويُحرِّم ما يشهي !! .

هنا يجيء دور الصبر الذي يطارد الجزء ، والرضا الذي ينفي السخط .

وفي هذا المقام يقول الدكتور زكي : ( التسليم لله من أدب النفس ، وهو يطرد  
نوازع شتى يخلقها التفكير في النصيب الحاضر من حظوظ الحياة ) .

ومن الواضح أنَّ هذا المقام يحتاج إلى رياضة شديدة ، لأنَّ الرضا لا يكون إلا بعد  
تطهير القلب من الوساوس النفسية ، وهو بالتأكيد من أسباب الاطمئنان ، والطمأنينة  
أكبر الغنائم في الحياة الأخلاقية .

وقد يقال إنَّ الرضا المطلق يبعث على البلادة ، ويغرى النفس بإيثار الركود . ونجيب  
بأنه لا تناهى بين الرضا بالواقع والرغبة في تكميل النفس ، وإمدادها بما تحتاج إليه من  
الأغذية الدنيوية والعقلية والروحية ..

فإذا قال رسول الله ﷺ : « أرضَ بما قسم الله لك تكن أغني الناس »<sup>(1)</sup> فلا  
تجعل الرضا ذريعة القصور والقواعد .

بل ارضِ بيومك . وأملِ ما يسرُّك في غدك ..

(1) مسند أحمد .

إن المجد والنجاح والإنتاج تظل أحلاماً  
لذيدة في نفوس أصحابها، وما تتحول حقيقة  
حية إلا إذا نفح فيها العاملون من روحهم،  
ووصلوها بما في الدنيا من حسٍ وحركة.

محمد الغزالى

# كيف نزيلُ أسبابَ القلقِ؟

لا أعرف مظلوماً تواطأ الناس على هضمه ، وزهدوا في إنصافه كالحقيقة !!  
ما أقل عارفيها ، وما أقل - في أولئك العارفين - من يقدرها ويغالى بها  
ويعيش لها !!  
إنَّ الأوهام والظنون هي التي تمرح في جنبات الأرض ، وتغدو وتروح بين الألوف  
المولفة من الناس .

ولو ذهبتَ تبحث عن الحق في أغلب ما ترى وتسمع لأعياك طلابه .  
هناك ألف الصحف والإذاعات تجوب بها الدنيا صباحاً ومساءً ، لو غلغلتَ النظر  
فيما ينطقها ما وجدت إلا حقاً قليلاً يكتنفه باطل كثيف ، حقاً يبرق في خفوت كأنه  
نجمة توشك أن تنطفيء في أعماء الليل .

في مجال العقيدة كم من دين قام على إشاعة كاذبة أو خرافية سمجة .  
وفي ميدان السياسة كم من هوىً جعله الجور عدلاً ، وقوَّة أحوال الخير شرًا .  
لهذا قال الله لنبيه ولكل معتصم بالصدق في مجتمع طافح بالزيغ :

«وَإِنْ تَعْمَلُ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ بُخْلُوكَ  
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظُّنُنَ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ»<sup>(١)</sup>

وقال :

«فَإِنْ شَهَدُوا فَلَا تَشْهِدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا  
يُعَذِّبُنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُمْ بِرِّهُمْ يُعَذِّبُونَ»<sup>(٢)</sup>

(١) الأنعام : ١١٦ .

(٢) الأنعام : ١٥٠ .

وقال :

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنَّ أَنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحِقْقَةِ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (١)

وجدير بالإنسان في عالم استوحش فيه الحق على هذا النحو أن يجتهد في تحريه ، وأن يلتزم الأخذ به ، وأن يرجع إليه كلما بعدته التيارات عنه .

ولعل هذا هو السر في أن الله طلب إلى كل مؤمن أن يسأله الهدى ، وكلفه ألا يسام من تكرار هذا السؤال حيناً بعد حين .

ففي كل صلاة مفروضة أو نافلة يقف المرء بين يدي ربه يقول :

﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ {١} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرَ  
الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ {٢}\﴾

ما هو هذا الصراط المستقيم ؟ إنه ليس سكة مطروقة في إحدى البلاد ، ولا جسراً مضروباً هنا أو هناك . إنه المنهج الذي يشقه المرء لنفسه بين مشكلات الحياة ، والخطأ الذي يلتمس فيه الصواب بين وجوه الرأي .

وكلما استمسك المرء بعرى الاستقامة واستكشف الحق فيما يعرض له من مسائل اليوم والغد فإنه يكون أدنى إلى التوفيق ؛ إذ الخط المستقيم أقرب مسافة بين نقطتين ، وصاحبه أبعد عن التخبط في شتى المحنينات والمنعرجات .

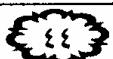
على أن الاهتداء إلى الحق والثبات على صراطه يحتاج إلى جهد ودأب ، ويحتاج كذلك إلى استلهام طويل من عناية الله .. وقد كان رسول الله إذا حزبه أمرٌ جنح إلى الصلاة يضم إلى عزيمته وجلده حول الله وطوله .



وقد يخبط المرء في الدنيا خبط عشواء ، وقد يصحبه « خداع النظر » في تقديره للحقائق المحيطة به .

(١) الفاتحة : ٧ ، ٦ .

(٢) يونس : ٣٦ .



ومعنى التصور الغلط للأشياء أن ينتقل المرء من ضلال إلى ضلال ، وألاً يحسن السلوك بإزاء أىً واجب ينطاط به أو أزمة يقف أمامها .

والله عزّ وجلّ نهى الإنسان عن الشرود وراء الأوهام والتخمينات فقال :

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا ﴾<sup>(١)</sup>

فليستخدم الإنسان فكره وحواسه في تعرف ما حوله ، وليررر خطوة سيره بعيداً عن الضغوط والتصرّفات .

قال «ديل كارنيجي» : (بقي أن نتعلم الخطوات الثلاث التي يجب اتخاذها لتحليل مشكلة ما والقضاء عليها ، وهذه الخطوات هي :

- ١ - استخلص الحقائق .
- ٢ - حلّ هذه الحقائق .
- ٣ - اتخذ قراراً حاسماً ثم اعمل بمقتضى هذا القرار ) .

وقال : (إنه لا مناص من اتخاذ هذه الخطوات إذا كان علينا أن نحلّ المشكلات التي تعينا ، والتي تخيل أيامنا وليلينا جحيمًا لا يطاق ) .

أجل لا مناص من ذلك . والخطوة الأولى تفرض علينا التأمل الهدى فيما حولنا لتجميع الحقائق الواضحة ، وإرساء سلوكنا على قواعدها .

ولمّا هذه الحقائق واجب ، وإن كان صعباً على الإنسان .

ولكن لماذا يكون ذلك صعباً على الإنسان ؟ ، لأن حبَّ الشيء يعمى ويصمّ ، وكذلك كرهه ، ومن ثم قيل :

وعين الرضا عن كل عيبٍ كليلةٍ ولكن عين المقت تُبدي المساواة

ومثل المحبة والكراهية أغلب الانفعالات النفسية التي تسسيطر على تفكير المرء ، وتجعله يلوّن الحياة بإحساسه الخاص ، فلا يستطيع أن يراها كما هي .

وقد يصلُّ المرء عن الحقيقة لانطواره مع عرف سائد ، أو لاسترساله مع نظرة سابقة لا أساس لها .

(١) الإسراء : ٣٦ .

وإذا خُدِعَ المرءُ أبداً عن الحقيقة ؛ فكيف يُوقَّن إلى حلٍ صحيح لمشكلات الحياة التي تلقيه ؟ ! .

واندراج الناس في مطابق الغفلة وهم لا يشعرون هو حكمة ختم آيات كثيرة جداً في القرآن الكريم بهذا التذليل : « كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَفَكَّرُونَ »<sup>(١)</sup> ، « أَفَلَا نَذَرَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ »<sup>(٢)</sup> ، « كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَفَكَّرُونَ »<sup>(٣)</sup> . وكأنَّ دليلاً كارنيجي يشرح هذه الآيات إذ يقول : ( إننا قلماً نعني بالحقائق ، وإذا حدث أن حاول أحدنا استخلاص الحقائق فإنه يتضيَّد منها ما يُعَضِّدُ الفكرة الراسخة في ذهنه ولا يبالى بما ينقضها ، أي أنه يسعى إلى الحقائق التي تُسَوِّغ عمله ، وتُسْقِطُ مع أمانِيَّه ، وتتفقُ مع الحلول السطحية التي يرتجلها . )

قال « أندريه موروا » : كل ما يتفق مع ميلونا ورغباتنا الخاصة يُبَدِّلُ معقولاً في أعينِنا . أمّا ما يُنَاقِضُ رغباتنا فإنه يُشَعِّلُنا غَصْباً . فهل من المستغرب والحالة هذه أن يصْبَعَ علينا الوصول إلى حل مشكلاتنا ، أو لسنا نسخر من الذي يحلُّ مسألة حسابية بسيطة مفترضاً أن اثنين زائد اثنين يساوي خمسة ؟ ! ومع ذلك فإنَّ كثيراً من الناس يجعلون حياتهم سعيراً بإصرارهم على أن مجموع اثنين واثنين هو خمسة ، وربما خمسماة ؟ ! .

فما العلاج ؟ العلاج أن نفصل بين عاطفتنا وتفكيرنا ، وأن نستخلص الحقائق المجردة بطريقة محايدة ) .



والخطوة التالية لجمع الحقائق استشعار السكينة التامة في تلقيها ، وضبط النفس أمام ما يظهر محيراً أو مروعاً منها ، فإن الفرق من الأحداث ينتهي حتماً بالغرق في لجتها .

وحياة عدد كبير من القادة والأبطال تحفل بالمازق التي لم يُنجِّ منها إلا تقييد الرهبة وإطلاق العقل .

(٣) البقرة : آية ٢٤٢ .

(٢) يونس : ٣ .

(١) البقرة : آية ٣١٩ .

عندما أُوشك القتال أن ينشب في حرم مكة بين المسلمين والمرتدين ، والتفت عوامل الاستفزاز بالنبي وصحابه وهم بالحديبية يريدون العمرة ؛ كظم النبي على ما أحس به من حزن ، وأمر أصحابه أن يطروا الريبة والهم ، وأن يقبلوا معاهدة تصنون الدماء وتنشر الأمان على ما بها من قيودٍ تُعنتُهم .

وفي ذلك نزل قول الله :

﴿إِذْ جَعَلَ اللَّهُنَّا كُفَّارًا فِي قُلُوبِهِمْ الْحَمِيمَةَ حَمِيمَةَ الْجَهَنَّمِ  
فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ مُهَمَّةً كَلِمَةً  
الْتَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقُّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾<sup>(١)</sup>

وكلمة السكينة هذه تكررت في مواضع كثيرة ، وهي حينما وجدت تشير إلى ما يبشر بالإيمان في النفوس من طمأنينة مرجعها الأنس بالله ، والركون إلى قضائه ، والاستظهار بعونه كلما راب أمر أو أظلم أفق .

قد يجد المرء نفسه أمام سلسلة من الفروض المقترحة للخروج من أزمة طارئة ، وقد يُقلّب النظر فيها فيجد أن أحلاها مر ، وقد يكون كالمستجير من الرمضاء بالنار ، وقد يدور حول نفسه لا يرى مخلصا ، أو يرى الخلص فادح التضحية .

ومثل هذه الأفكار القاتمة تتکاثر وتتراكم مع ضعف الثقة بالله وبالنفس .

أما المؤمن فهو يختار أقرب الفروض إلى السكينة والرشد ، ثم يقدم وهو لا يبالى ما يحدث بعد ذلك ، وعلى لسانه هذه الآية :

﴿قُلْ لَّنِ يُصِيبُنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مُوْلَنَا وَعَلَى اللَّهِ فَلِيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾<sup>(٢)</sup>

وما أكثر أن تتبع خواطر السوء ووساوس الضعف ، ويكتشف أن الإنسان يُبتلى بالأوهام أكثر مما يُبتلى بالحقائق ، وينهزم من داخل نفسه قبل أن تهزمه وقائع الحياة :

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا الْكُمْ فَأَخْشُو هُرْ فَرَادَهُمْ إِيمَانًا  
وَقَالُوا حَسِبْنَا اللَّهَ وَنَعَمُ الْوَكِيلُ ﴿١٧﴾ فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضَلٍ  
لَّمْ يَكُسُّهُمْ سُوءٌ وَأَتَبْعَوْا رِضْوَانَ اللَّهِ وَإِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾<sup>(٣)</sup>

(١) آل عمران ١٧٤ .

(٢) التوبة ٥١ .

(٣) الفتح : ٣٦ .

وإلى هذا يشير المتتبّع بقوله :

وَمَا الْخُوفُ إِلَّا مَا تَخْوَفُهُ الْفَتَى

### ﴿٣٤٣٤﴾

فإذا عرف الإنسان الحقائق المتصلة به ، وسبّر غورها جميّعاً دون دهشة أو روع ،  
بقيت أمامه الخطوة الأخيرة ؛ وهي أن يتصرّف بحزم وقوة ، وأن ينفّذ القرار الذي  
انتهى إليه بعزم صادق .

أعرف كثيراً من الناس لا يُعزّزهم الرأي الصائب ، فلهم من الفطنة ما يكشف  
 أمامهم خواص الأمور .

بيد أنهم لا يستفيدون شيئاً من هذه الفطنة لأنهم محرومون من قوة الإقدام ،  
 فيبقون في مكانهم محسورين بين مشاعر الحيرة والارتباك .

وقد كره العقلاء هذه الضرب من الخوار والإحجام :

إِذَا كُنْتَ ذَا رَأِيٍ فَكُنْ ذَا عَزِيزٍ      فَإِنَّ فَسَادَ الرَّأْيِ أَنْ تَرَدَّدَا

أجل .. فإن للبحث والتبيّث أجلاً يتّضح بعده كل شيء ، ولا يبقى مكان إلا  
للعمل السريع وفق ماهدّت إليه الرويّة واستبانه الصواب ، وقد قال الله عزّ وجلّ :

﴿ وَشَاءُوا رُهْبُرْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (١)

إنّ مرحلة المشورة في أمر ما لا يجوز أن تستمر أبداً ، بل هي حلقة تسلّم إلى ما  
بعدها من عمل واجب .

فإذا تقرر العمل ، فلنمضي في إتمامه قدماً ، ولننهر علل القعود والخوف ، ولنستعن  
 بالله حتى نفرغ منه .

قال « ديل كارنيجي » : ( سألت « وايت فليس » - أحد رجال الأعمال  
 البارزين - : كيف كنت تنفذ قراراتك ؟ فأجاب : لقد وجدت أن التفكير المستمر في  
 مشكلة ما إلى أبعد من مدى معين يخلق القلق ، ويولد الاضطراب ، فإنه يأتي وقت

(١) آل عمران : ١٥٩ .

تصبح فيه المداومة على التفكير ضرراً يجب اجتنابه ، فمتي اتخذت قراراً عمدت إلى تنفيذه دون أن أطلع البتة إلى الوراء .

وقال « وليم جيمس » : عندما تصل إلى قرار وتشرع في تنفيذه ضع نصب عينيك الحصول على نتيجة ، ولا تهتم لغير هذا . يقصد أنك لا تتردد ولا تحجم ولا تخلق لنفسك الشكوك والأوهام . ولا تعاود النظر إلى الوراء ، بل أقدم على إنفاذ قرارك غيرَ هيَابٍ ولا وجِلٍ .

والحقُّ أنَّ الرِّجُولَاتِ الضَّحْمَةُ لَا تُعرَفُ إِلَّا فِي مِيدَانِ الْجَرَأَةِ .

وأنَّ الْمَجْدُ وَالنِّجَاحُ وَالِإِنْتَاجُ تَظَلُّ أَحْلَامًا لِذِيَّذَةِ فِي نُفُوسِ أَصْحَابِهَا ، وَمَا تَحْوِلُ حَقَائِقَ حَيَّةٍ إِلَّا إِذَا نَفَخَ فِيهَا الْعَامِلُونَ مِنْ رُوحِهِمْ ، وَوَصَلَوْهَا بِمَا فِي الدُّنْيَا مِنْ حَسْنٍ وَحِرْكَةٍ .

وكما أنَّ التَّرَدُّدُ خَدْشٌ فِي الرِّجُولَةِ فَهُوَ تُهْمَةٌ لِإِيمَانِهِ ، وَقَدْ كَرِهَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ يَرْجِعَ عَنِ الْقَتَالِ بَعْدَمَا ارْتَأَتْ كُثْرَةُ الصَّحَابَةِ الْمُصِيرُ إِلَيْهِ .

فقد كان من رأيه عندما بلغ المشركون جبل « أحد » أَنْ يَدْعَهُمْ يدخلون المدينة ثم يقاتلهم في دروبها ، ورأى جمهور الشباب أن يخرجوا إليهم فيقاتلوهم دون الجبل ، واستطاعوا بكثرتهم وحماستهم أن يوجّهوا النفوس إلى هذا القرار ، فنزل النبي عنده ، واتخذ الأُهْبَةَ لِنَاجِزَةِ الْعَدُوِّ خَارِجَةَ الْمَدِينَةِ .

وأحسَّ أُولئِكَ كَأَنَّهُمْ اسْتَكْرَهُوا النَّبِيَّ عَلَى غَيْرِ مَا يَرِيُّ ، فَاقْتَرَحُوا مَرَةً أُخْرَى أَنْ يَدْرُو الْقَتَالَ فِي الْمَدِينَةِ نَفْسَهَا ، وَلَكِنَّ النَّبِيَّ رَفَضَ هَذَا التَّرَاجُعَ ، وَأَبَى أَنْ تُصْطِبَعَ شَيْءُونَهُ بِطَابِعِ التَّرَدُّدِ ، أَوْ التَّأْرَجُعِ بَيْنِ إِرَادَاتِ شَتَّى ، فَقَالَ كَلْمَةً حَاسِمةً : « مَا كَانَ النَّبِيُّ أَنْ يَلْبِسَ لِأَمَّتِهِ ثُمَّ يَرْجِعُ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَدُوِّهِ » .



فلندرس مواقفنا في الحياة بذكاء ، ولرسم منهاجنا للمستقبل على بصيرة ، ثم لنرم بصدورنا إلى الأمام ، لا تثنينا عقبة ، ولا يلوينا توجُّس .

ولنشق بأنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مَنْ هُوَ أَنْهَى بِهِ الْجِبْنَاءَ ، وَيَكْفِلُ الْمُتَوَكِّلِينَ .



# علم أثمره العمل

في دراساتنا القديمة تلقينا - في تعريف العلم - أنه : إدراك ، وقواعد ، وملكة .  
يعنون بالإدراك : التصور المجرد للأشياء .

وبالقواعد : جملة المبادئ والقوانين والمصطلحات التي وضعها أهل الفنون المختلفة .

وبالملكة : الخبرة المكتسبة من رسوخ المفهوم فيما حصل عليه من معارف ، وفيما وعاه من مناهج علم خاص أو علوم شتى .

والملكة إنما تتكون من وفرة الإدراك واستحضار القواعد ، فهي ثمرة ما قبلها بعد ما يبلغ تمامه .

وأصحاب الملكات المتألقة في شبّ الثقاقة الواسعة هم العلماء الأصياد ، وعليهم المعول في صحة الفهم والحكم والتعليم والأداء .

ولنترك مجال العلم النظري إلى مجال الخلق والسلوك والإيمان والعمل . لنقول إن الدين قد يكون منهاجاً كاملاً للرقى والتهذيب ، ولكن الإفادة منه لا تصلح بإدارة معلوماته بين الألسنة والأسماع ، ولا باستيعاب أحکامه في الذاكرة الجيدة ، ولا بالأداء الصوري لعباداته المقررة .

فهذا التناول للدين قليل النفع ، بل عديم الجدوى ، وفي الأثر : العلم علماً : علم في القلب ، فذلك العلم النافع ، وعلم على اللسان ، فذلك حجة الله على ابن آدم .

وقال « برنارد شو » : ( إذا لقنت إنساناً شيئاً فإنه لن يتعلم أبداً ) .  
يقصد أن التلقين لا يخلق من المتعلم شيئاً طائلاً .

ويعلل « ديل كارنيجي » هذا الحكم فيقول : ( إنَّ التعلم عمل إيجابي لا سلبي ، ونحن نتعلّم حين نعمل ، فإذا أردت أن تستفيد من النصائح المبذولة في تصاعيف هذا الكتاب - أو أي كتاب - فتجربها ، واعمل بها ، وطبقها في كل فرصة تسع لك .



فإنك - إن لم تفعل هذا - فسوف تنسى ما لقنته سريعاً .

إن المعرفة التي نستخدمها هي وحدها التي تعلق بأذهاننا .

وهذا صحيح ؛ وقد جاء عن أحد التابعين : ( كنا نستعين على حفظ أحاديث رسول الله ﷺ بالعمل بها ) .

إن العمل يحيي القلوب بالمعرفة اليقظة الدافعة .

والعلم الذي ينشأ عن العمل هو الملكة التي يستنير بها المرء ، ويعرف منها موضع أقدامه في دروب الحياة المشابهة .

وفي هذا يقول الله عز وجل : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا تَقْوَا اللَّهَ وَإِنَّمَا بِرُّ رَسُولِهِ يُؤْتَكُمْ كِفَالَّذِينَ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلُ لَكُمْ نُورًا تَشُونَ بِهِ وَيَغْفِرُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » (١) .

ومقتضى الإيمان بالرسول بعد تقوى الله هو اقتداء أثره واتباع سنته ، لأن الترجمان العملي الحى لما في الكتاب الكريم من توجيهه وموعظة .

والمؤمن المواظب على اتقاء الدنيا و فعل الواجبات يكتسب من هذا الإدمان حدة في بصيرته ، وحساسة دقيقة يميز بها الخبيث من الطيب .

وقلما تختلط الأمور على فطنته ، ولو لم يرد فيها نص حاسم :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ تَسْتَقُوا اللَّهَ يَجْعَلُ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ » (٢)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحُ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ » (٣)

### ﴿ ﴿ ﴿ ﴿

إن المعلومات النظرية التي لم ينقلها العمل من دائرة الذهن إلى الواقع الحياة تشبه الطعام الذي لم يحوله الهضم الكامل إلى حرارة وحرارة وشعور .

وهذه المعلومات تبدأ مبتسرة مهوشة مهما أجيد تصويرها .

(١) الحديد : ٢٨ . (٢) الأنفال : ٢٩ .

(٣) الأحزاب : ٧٠ - ٧١ .

ولذلك ترى الجنود وطلاب المعاهد العسكرية يتلقون الحصص المقرّرة ، ثم يمرون  
بعدها في مرحلة المناورات التي تمثّل جانباً من الحياة العامة .

ومع ذلك ف الخبرة هؤلاء ، ولصوق الفن الحربى في أنفسهم دون مستوىه عند من  
خاضوا المعارك وذاقوا أهوال القتال .

وكذلك تعلُّم الصلاة ، إنَّ الأمر يبدأ دروساً تقعِّر الآذان ، ثم يحاول التلميذ أن يقيِّم  
الصلوات المكتوبة كما تعلَّمها ، أمّا أن يتعلم هو من صلاته الخشوع والإخلاص والتسامي  
فذاك يجيء بعد إقبال المصلّى على ربه ، وإتقانه الطويل لشكل الصلاة ولو موضوعها جميغاً .  
إنَّ العلم الناشئ عن العمل هو خلاصة المران والتجربة .

في مجال التربية والإصلاح لا بدَّ أن تتطوّر المعلومات إلى اكتمال نفسي  
واجتماعي ، ولا يُقبل من أحد أن يقف عند حدود القول مهما كان بليغاً ، ولا عند  
حدود الشرح مهما كان مستفيضاً .

إذا أمرتَ بالخير فافعله أولاً ، وإذا نهيتَ عن شرٍ فاسبق إلى البعد عنه ، ثم اجتهد  
أن يتحول أمرُكَ ونهيُكَ إلى حقائق حيَّة في المجتمع ، بحيث يكون تغيير المنكر وإقرار  
المعروف غaiات بيّنة يراد إيقاعها بكل وسيلة ، وبأقصر وقت .

إنَّ تعشُّق الكمال قد ينتهي إلى حسن الحديث عنه ، وقد يكتفى عشاقه بسرد  
تفاصيل دقيقة عن مسائله وقضاياها .

ثم يُطوى الأمر كله دون نتيجة فعالة .

كما تموت الأمانىُّ الحلوة في نفوس الكسالي .

وقد كره الله عزَّ وجلَّ هذا اللون من السلوك الناقص لأنَّه أقرب إلى الادعاء ، ولأنَّ  
 أصحابه يقصرون وهم أبصর من غيرهم بمواطن الرشد :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿١﴾ كَبُرَ مُقْتَأْعِنَةً لَّهُ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿١﴾

إنَّ الوقوف بالإصلاح المنشود عند حدِّ الكلام المرسل والمفترحات المبتوطة يفتح أبواباً  
مخوّفة للجدل الطويل ، وللثرة القاتلة للوقت والجهد .

(١) الصف ٢-٣ .

ولو أنَّ كلَّ امرئٍ عنده حبٌ للخير ارتقى بعاطفته تلك إلى مرحلة تنقلُ الخير من دائرة التصورات النظرية إلى «عمل» يبصر الضوءُ والحياةَ لاختصراً - كما يقول «ديل كارنيجي» - نصف متابعينا ، وحللنا أعقد مشكلاتنا .. ولتسمع له يروي هذه القصة عن «ليون شميكن» من رجال الأعمال قال : ( وضعْتُ قاعدةً تحتمُ على كلِّ واحدٍ من مساعدِيَّ ي يريد أن يعرضَ على مشكلة ما أن يقدمَ لي أولاً مذكرةً تشمل الإجابة عن هذه الأسئلة الأربعَةَ :

- ١ - ما هي المشكلة؟ . وقد تعودنا فيما مضى أن ننفق ساعة أو ساعتين في مناقشة حامية دون أن ندرى ما هي المشكلة على وجه التحديد ، كما اعتدنا أن نحيط المشكلة باللبس والغموض ، دون أن يفكر أحدنا في تدوين موضوع المشكلة بوضوح .
- ٢ - ما هو منشأ المشكلة؟ . وإذا أرجعْ بذاكرتى إلى الوراء يروعنى ما أنفقناه من ساعات دون أن نحاول الوقوف على الأسباب التي دفعت المشكلة إلى حيز الظهور .
- ٣ - ما هي الحلول الممكنة لهذه المشكلة؟ .. وفيما مضى كان كلُّ منا يقترح حلًّا فيجادله زميل له ، وكثيراً ما كانت تهتاج الخواطر فتنأى بنا عن الحل المقترن ، وفي نهاية الاجتماع لم يكن يخطر لأحد منا أن يدونَ الحلول التي عرضنا لها أثناء المناقشة .
- ٤ - ما هو أفضل الحلول؟ . وقد اعتدت من قبلُ أن أدخل قاعة الاجتماع مع مساعدِيَّ الذين أمضُهم القلق ساعات طوالاً ، وأجلأهم إلى الدوران حول المشكلة في حلقات مفرغة دون أن يستخلصوا حلًّا محدوداً .

وكان من نتيجة هذه الخطبة أنَّ قلَّ التجاء مساعدِيَّ إلى لعرض مشكلاتهم علىَ .. لماذا؟ لأنَّهم لكي يجيبوا عن هذه الأسئلة الأربعَةَ يجب أن يحصلوا على كافة الحقائق المحيطة بالمشكلة ، فإذا توفرت لهم هذه الحقائق فغالباً ما يُحلُّ ثلاثة أرباع المشكلة من تلقاء ذاته ، ولم يعد حلُّ الباقي يحتاج إلى معاونتى ؛ وحتى إذا أوجبت الظروف مشاورتى ، فإنَّ المناقشة لا تستغرق أكثر من ثلث الوقت الذي كانت تستغرقه قبلًا ، لأنها - أي المناقشة - تسير في طريق مرسوم .

ونحن الآن بفضل هذه الخطبة نستهلك وقتاً ضئيلاً في القلق ومناقشة الأخطاء ، ووقتاً طويلاً «في العمل» على تلافي هذه الأخطاء ) .

وثمَّ أمر آخر نحب أن نشير إليه : إنَّ الكلام مع رؤساء الأعمال وأصحاب الدعوات ، وولاة المناصب الكبار قد يكثر ويتشعَّ من غير مسوغٍ واضح ؛ اللهم إلا أنَّ الأتباع والأعوان يطيب لهم أن «يتكلموا» مع رئيسهم الكبير .

وقد يكون كلامهم هذا متصلةً ب موضوع الرسالة التي يهتمون جميعاً بها أو العمل الذي يتعاونون جميماً على إنجاحه .

لكن هذا الكلام في أغلب الأحيان يكون قليل الجدوى .

ولو أن كل واحد منهم انصرف إلى نفسه يتبعدها ، وإلى عمله الخاص يتلقنه ، وإلى واجبه المنوط به يجيده ، ويبتكر الطرق للنبوغ به ؛ لكن ذلك أربى لإنجاح ، وأذكى عند الله !! .

ولعل هذا سرّ الأمر الذي صدر للصحابية أن يخفّفوا من مناجاتهم للرسول الكريم ، وأن يقدموا بين يدي نجواهم صدقة !! .

إن الإحسان للفقراء قربة ميسرة في كل آن .

فإذا أراد أحد أن ينال حظوة عند الله وعند رسوله فليتصدق ، فهذا مجال رحب للثواب المطلوب .

وهو أولى من الجلوس عند رسول الله رغبة في الجلوس فحسب .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدْ مَوَّبِينَ يَدِي بَخْوَلَكُمْ ﴾

صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرٌ فَإِنَّ لِرَبِّنَادِرَقَدْمَوَّبِينَ يَدِي بَخْوَلَكُمْ ﴾ (١)

على أن هذا التوجيه لا يعني فرض ضريبة على كل من يريد مخاطبة صاحب الرسالة ، فإن الكلام معه مباح ، بل قد يجب في شؤون كثيرة ، وإنما المقصود تنبيه المؤمنين إلى الطريق الصحيح لشهادة الله ، وتوفير الوقت لصاحب الرسالة حتى لا يشغله - بلا ضرورة - هوا الجلوس مع العظاماء .

لذلك قال عز وجل :

﴿ أَشْفَقْنَاهُمْ أَنْ تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ بَخْوَلَكُمْ صَدَقَتِ فَإِذْلَمَ تَقْعِلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَاقْتِمُوا الصَّلَاةَ وَأَعْلَوْا الزَّكَوةَ وَأَطْبِعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ تَحِيرُ مَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٢)

إن مجالسة العظاماء كما علمتنا التجارب وسيلة للزلل ، ومضيعة للوقت ، وشغل عن واجبات كثيرة .

فلا عجب إذا وضعتم القيود عليها وتبّه إلى ما هو أجدى منها .

(١) المحادلة : ١٢ .

(٢) المحادلة : ١٣ .

## آفات الفراغ

في أحضان البطالة تولد آلاف الرذائل ، وتحتقر جراثيم التلاشى والفناء .  
إذا كان العمل رسالة الأحياء فإن العاطلين موته .

وإذا كانت دنيانا هذه غراساً لحياة أكبر تعقبها ، فإن الفارغين أحرى الناس أن يُحشروا مُفلسين لا حصاد لهم إلا البوار والخسران .  
وقد نبّه النبي ﷺ إلى غفلة الألوف عما وُهبوا من نعمة العافية والوقت فقال : «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة ، والفراغ » .

أجل .. فكم من سليم الجسم بمدود الوقت يضطرب في هذه الحياة بلا أمل يحدوه ، ولا عمل يشغله ، ولا رسالة يخلص لها ويصرف عمره لإنجاحها .  
ألهذا خلق الناس ؟ . كلا ، فالله عز وجل يقول :

﴿أَفَسِبْنَا خَلْقَكُمْ بَعْثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ لَمَّا فَعَلْتُمُ الْمُنْكَرَ الْحَقُّ﴾<sup>(١)</sup>  
إنَّ الحياة خلقت بالحق ، الأرض والسماء وما بينهما .

والإنسان في هذا العالم يجب أن يتعرَّف لهذا الحق وأن يعيش به .  
أمَّا أن يدخل في قوقة من شهواته الضيقَة ، ويحتجب في حدودها مذهبًا عن كل شيء فيبيس المهد ما اختار لحاضرِه ومستقبلِه !! .



ومن أصدق ما رواه «الشافعى» في أسس التربية هذه الكلمة الرائعة : «إذا لم تشغل نفسك بالحق شغلتك بالباطل ». وهذا صحيح ؛ فإنَّ النفس لا تهدأ .

إذا لم تدرُّ في حركة سريعة من مشروعات الخير والجهاد والإنتاج المنظَّم لم تلبث أن تنهبها الأفكار الطائشة ، وأن تلفَّها في دوامة من الترَّهات والماهزل .

(١) المؤمنون : ١١٥، ١١٦ .

وأفضل ما تصون به حياة إنسان أن ترسم له منهاجاً يستغرق أوقاته ، ولا ترك فرصة للشيطان أن يتطرق إليه بوسة أو إضلال .

وتوزيع التكاليف الشرعية في الإسلام منظور فيه إلى هذه الحقيقة ، **ألا يُترك للنفس فراغ يمتلي بالباطل ، لأنه لم يمتلي من قبل بالحق .**

ويشرح « ديل كارنيجي » هذا فيقول : ( إننا لا نحس أثراً للقلق عندما نعكف على أعمالنا ، ولكن ساعات الفراغ ، التي تلى العمل هي أخطر الساعات طرّاً .

فعندما يتاح لنا وقت فراغ لا تلبث شياطين القلق أن تهاجمنا ، وهنا نتساءل : أترانا نحصل من الحياة على ما نشتتى ؟ . أترى كان الرئيس يعني شيئاً بلاحظته التي أبداهها اليوم ؟ . أترانا مرضى ؟ .

ذلك أن أذهاننا تشبه أن تكون خاوية عندما تفرغ من العمل ، والطلاب في دروس الطبيعة يعلمون أن الطبيعة تمقت الفراغ ، تريد تجربة على ذلك ؟ . أخذت ثقباً في مصباح كهربائي مفرغ من الهواء ، وسترى أن الطبيعة تدفع بالهواء إلى داخل المصباح ليملأ ما فيه من خلاء ، كذلك تسرع الطبيعة إلى ملء النفس الفارغة ، بماذا ؟ بالعواطف والإحساسات غالباً . لماذا ؟ لأن مشاعر القلق والخوف والحدق والغيرة والحسد تندفع بقوة بدائية عنيفة متوارثة من عهد الغابة ، وتلك المشاعر من القوة بحيث يمكنها أن تبدد السلام من نفوسنا والاستقرار من عقولنا ) .

### ٣٣٣٣٣٣

من حق رببين إذن أن يحذروا آفات الفراغ ، وأن يحصنوا النفوس من شرورها . وأمثل الوسائل في هذه الحالات وضع سياسات محكمة للإنسان الدائم ، والبناء المستمر .

فإن شحن الأوقات بالواجبات ، والانتقال من عمل إلى عمل آخر - ولو من عمل مرهق إلى عمل مرفه - هو وحده الذي يحمينا من علل التبطل ولوثات الفراغ .

وأحسب أن المجتمع يستطيع الخلاص من مفاسد كثيرة لو أنه تحكم في أوقات الفراغ ، لا بالإفادة منها بعد أن توجد ، بل بخلق الجهد الذي يستنفذ كل طاقة ، ويوجه هذا وذاك إلى ما ينفعه في معاشه ومعاده .

فلا يبقى مجال يشعر امرؤ بعده أنه لا عمل له .

من قديم عرف المصلحون أنّ بطالة الغنى ذريعة إلى الفسق .

### إِنَّ الشَّبَابَ وَالْفَرَاغَ وَالْجَدَهُ مُفْسِدَهُ لِلْمَرْءِ أَيُّ مَفْسِدَهُ

ونضمُّ إلى هذا أن بطالة الفقراء تضييع لقدرة بشرية هائلة ، وبعثرة مخزية لما أودعه الله في العضلات والأعصاب والأفئدة من طاقات لو فُجرت لغيرت وجه العالم .

وأحق الأنظمة بالقبول والتشجيع ما رعى هذه الحقيقة ورتب عليها تعاليمه .

والإسلام يملك على الإنسان أقطار نفسه من هذه الناحية ، فإنَّ أغلب شرائعه يدور على جهاد النفس وجهاد الناس .

وجهاد النفس فطامها عمّا تشتهي من أيام ، أو تجنب إليه من مناكر .

وجهاد الناس منع مظالمهم من إفساد الحياة وخلخلة الإيمان ، والإصلاح في جنباتها .

وكلا الجهادين يستغرق العمر كله لحظة لحظة ، ولا يستبقى فرصاً للعبث والذهول والغفلات .

لقد كان رسول الله ﷺ يسأل الله الاستمساك بدينه مع نبض قلبه بالحياة ، فيدعوه : « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك »<sup>(١)</sup> .

وكان يقول : « اللهم رحمتك أرجو ، فلا تكُنْتَ إِلَى نفسي طرفة عين ، وأصلح لى شأنى كله ، لا إِلَهَ إِلَّا أنت »<sup>(٢)</sup> .

وهذا الاستمداد اليقظ الدائب هو أساس الاتصال النفسي .

أما شغل الوقت كله بالجهاد العام بعد ذلك فأمر معروف في سيرته ، فما استراح من مناهضة الكفر في فجاج الجزيرة إلا ليتحول إلى فج آخر يعمره بالإيمان والتقوى .

(١) أبو داود .

(٢) الترمذى .

وقد جاء أصحابه من بعده أبو بكر وعمر فلم يدعَا للمسلمين مجالاً لقعود ، فرموا بحيوشهم على معاقل الطغيان في الأرض ، فما هي إلا سنوات معدودات حتى امتلأت بقاع العالم بأصوات الإيمان .

فماذا حدث بعد أن ترك المسلمون هذه الواجبات المهيمنة على أوقاتهم كلها ؟ .  
فرغ بعضهم لبعض ، وعاثت بينهم الفتنة !! .

ثم خلفت خلوف جعلت من تفسير المشابه في كتاب الله ماضيةً للوقت  
الواسع الرخيص !! .

فأساءت بذلك إلى آيات الكتاب كلّها مُحْكَمها ومتشاربها .



إنَّ الْحَقَّ إِذَا اسْتَنْفَدَ مَا لَدِيَ النَّاسَ مِنْ طَاقَةٍ مَخْتَزَنَةٍ لَمْ يَجِدِ الْبَاطِلُ بَقِيَةً  
يَسْتَمِدُّ مِنْهَا .

وإذا استولى على قلبه ولبه فلا مجال لوساوس اللهو وهواجس الريبة .  
ويتساءل « ديل كارنيجي » : ( ما السبب في أن أمراً هيناً كالاستغراق في العمل  
يطرد القلق ؟ . السبب في ذلك هو أحد القوانين الأساسية التي اكتشفها علم النفس  
وهو : من الحال لأى ذهن بشري مهما كان خارقاً أن ينشغل بأكثر من أمر واحدٍ في  
وقت واحد ) .

وهذا صحيح ، وهو قريب من قول الله عز وجل :

﴿مَاجَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾<sup>(1)</sup>

إنك كما تعجز عن تخيل شيئين في وقت  
واحد ، فكذلك تعجز عن الجمع بين إحساسين متناقضين .

ليس في استطاعتنا أن نتحمّس لعمل مثير ونحسّ القلق في الوقت نفسه ، فإنَّ  
واحداً من هذين الإحساسين يطرد الآخر .

(1) الأحزاب : ٤ .

وهذا القانون البسيط هو الذى مكّن الأطباء النفسيين الملحقين بالجيش أن يأتوا بالعجائب فى خلال الحرب ، عندما كان يأتي إليهم الجنود الذين ضَعْضَعَت الحرب أعصابهم ، كانوا يقولون : أشغلوهم بعملٍ ما .

إنَّ الفراغ فى الشرق يدمر ألف الكفايات والمواهب ، ويختفيها وراء رُكام هائل من الاستهانة والاستكانة ، كما تختفى معادن الذهب وال الحديد فى المناجم المجهولة!! .

ويستتبع هذا الإهدار الشنيع لقيمة العمل والوقت مصائب لا حصر لها فى الأحوال النفسية والاجتماعية والسياسية .

يرُوى عن عمر بن الخطاب أنه قال : إنِّي لأرى الرجل فيعجبنى ، فإذا سألت عنه فقيل : لا حرفة له ، سقط من عينى .

وفي الحديث : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُؤْمِنَ الْمُخْتَرِفَ » .

فلا جَرَمَ أَنَّ شعوبًا بأسرها تسقط من عين الله ، وتسقط من أعين أهل الجد والإنتاج لأنها لا عمل لها ، استهلكتها الفراغ وأسلمتها للفناء ..

وعندى أنَّ العلة الأولى لتخلف الأمة العربية والشعوب الإسلامية ما غالب على أحوالها النفسية والاجتماعية من قعود واستكانة وتقاعس .

ويستحيل أن تحرز هذه الأجيال الغفيرة من البشر سهماً من نجاح فى الدنيا أو فلاح فى الأخرى إلا إذا تغيَّرَ أسلوبها فى الحياة ، وامْحَتَ من ربوعها آثام البطالة والفراغ .



# لا تدع التوافه تغلبك على أمرك

تهيئ الإنسان للكبائر ببعده عن مواقعتها وينجيه من غوايela .  
يُبَدِّلُ أَنَّ الْمَرءَ الَّذِي يَخْشَى عَلَى حَيَاتِه أَنْ يَتَناولْ جَرْعَةً كَبِيرَةً مِنَ السَّمِ - لَوْضُوحِ خَطْرِهَا - قَدْ يَسْتَهِينَ بِتَناولِ أَجْزَاءٍ دَقِيقَةٍ مِنْهَا تَكُونُ مَطْوِيَّةً فِي أَطْعَمَةٍ مَكْشُوفَةٍ ، أَوْ أَطْبَاقَ قَدْرَةٍ ، أَوْ أَيْدِ مَلْوَثَةٍ ، أَوْ مَا شَابَهُ ذَلِكَ .  
وَمِنْ ثُمَّ يَصِيبُ بَدْنَه مَا قَدْ يُودِي بِهِ ، مَثُلَّمَا تُودِي بِهِ رَصَاصَةُ قَاتِلَةٍ ،  
أَوْ طَعْنَةُ غَادِرَةٍ .

وارهاباً للمؤمنين من اقتراف الصغائر ، وخوفاً على كيانهم النفسي والاجتماعي  
من تجمعاها ، أهاب النبي ﷺ بأمته أن تخدرها ، وأن تتنزه عن فعلها ، وأن تتظاهر حيناً بعد  
حين من آثارها .

صحيح أنَّ الهدف الأكبر من رسالته هو محاربة الشرك ، وازالة أوهامه عن  
الأفكار والضمائر .

وقد استطاع في حياته أن يسقط دولة الأصنام ، وأن يقييم أمة تعبد الله وحده .  
ومع ذلك فقد حذر من أمور قد يستريح الشيطان من إقبال الناس عليها استراحته  
من سقوطهم في حماة نفسه ، فقال : «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَئُسَ أَنْ تُعبدَ الْأَصْنَامُ فِي أَرْضِ الْعَرَبِ ، وَلَكِنَّهُ سِيرَضِي مِنْكُمْ بِدُونِ ذَلِكَ بِالْمُحَقَّرَاتِ ، وَهِيَ الْمُوبِقاتُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>(١)</sup> . وفي حجة الوداع - وهو يرسى قواعد السلوك الكامل - قال : «أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَئُسَ أَنْ يُعبدَ فِي أَرْضِكُمْ هَذِهِ أَبْدَأِ . وَلَكِنَّهُ إِنْ يُطَعُ فِيمَا سُوِّيَ ذَلِكَ فَقَدْ رَضِيَ بِهِ مَا تَحْقِرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ ، فَاحذِرُوهُ عَلَى دِينِكُمْ» .

قال «ديلي كارنيجي» : (إننا غالباً ما نواجه كوارث الحياة وأحداثها في شجاعة  
نادرة وصبر جميل ، ثم ندع التوافه بعد ذلك تغلبنا على أمرنا ، ومن أمثلة ذلك ما  
قاله «صمويل بييز» في مذكراته عن «سيرهارى فان» حين سبق لتنفيذ حكم

(١) الطبراني .



الإعدام فيه بضرب عنقه ، فإنه لم يلتمس العَفْوَ ولم يطلب الرحمة ، وإنما رجا الجلاد ألا يضرب بسيفه موضعًا في عنقه كان يُؤلمه . ومن أمثلة ذلك أيضًا ما كتبه «أدميرال بيِرد» في مذكراته عن ليالي الظلام والزمهرير التي قضاها في القطب الجنوبي ، فقد ذكر أن رجاله كانوا منشغلين بتوافه الأمور عن الكوارث المحدقة بهم ، وهم يعيشون في جوًّا درجة حرارته ثمانون تحت الصفر . قال «بيِرد» : كان رجالى يتخاصمون إذا اعتقد أحدهم على المساحة المخصصة لنوم زميل له واستقطع لنفسه منها بعض بوصات ، ومن ثمَّ رجل من رجالى كانت نفسه تعاف الطعام في مواجهة زميل له اعتقد أن يمضغ اللقمة ثمانينًا وعشرين مرة قبل أن يُزدردَها ، ولستُ أَعْجَبُ لهذا ، فإنَّ صغارَ كهذه في معسكرٍ قطبيٍ يسعُها أن تَسْلُبَ عُقُولَ أشد الناس دُرُبةً على الطاعة والنظام ) .

ويقصُّ علينا «كارنيجي» حكاية شجرة ضخمة نبتت منذ أربعينَة عام ، وتعرضت في حياتها الطويلة للصواعق أربع عشرة مرة ، وهزَّتها العواصف العاتية طوال أربعة قرون متواتلة ، ومع ذلك ظلت هذه الشجرة جاثمة في مكانها كأنها جبل عتيق ، ثم حدث أخيرًا أن زحفت جيوش الهوام والحشرات على هذه الشجرة الضخمة فما زالت بها تنخرُها وتقرِضُها حتى سوتها سطح الأرض ، وجعلتها أثراً بعد عَيْن . لقد انفتحت ماردة الغابة التي لم تهزها الصواعق ولم تَنْلِ منها الأنواء ، اختفت من الوجود بفعل هوامٌ هي من الضالة بحيث يستطع الإنسان أن يسحق إحداها بين سبابته وإبهامه ، ألا ترانا مثل هذه الشجرة؟ أو لسنا ننجو من الأعاصير التي تعترض حياتنا ثم نَسْتَسْلِمُ بعد ذلك للتوفه التي تلتتهم حياتنا التهاماً .

وأمثلة التي ذكرها المؤلف من واقع الحياة التي يعالج شئونها قد سبق النبي إلى ضربِ أمثلة تشبهها مأخذة من طبيعة البيئة التي عاش العرب فيها ، فعن عبد الله بن مسعود ، قال رسول الله ﷺ : «إيَاكُمْ وَمُحَقَّرَاتُ الذُّنُوبِ ، إِنَّهُنَّ يَجْتَمِعُونَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكُنَّهُ ، وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ضَرَبَ لَهُنَّ مَثَلًا كَمِثْلِ قَوْمٍ نَزَلُوا أَرْضَ فَلَةٍ ، فَحَضَرَ صَنِيعُ الْقَوْمِ ، فَجَعَلَ الرَّجُلَ يَنْطَلِقُ فِي جَيْءٍ بِالْعُودِ ، وَالرَّجُلُ يَجِيءُ بِالْعُودِ حَتَّى جَمَعُوا سَوَادًا ، وَأَجْجَوْا نَارًا ، وَأَنْضَجُوا مَا قَذَفُوا فِيهَا»<sup>(١)</sup> .

(١) مسند أحمد .

وروى عن سعد بن جنادة قال : لَمَّا فرَغَ رَسُولُ اللَّهِ مِنْ « حُنَيْنٍ » نَزَلَنَا قَفْرًا مِنَ الْأَرْضِ لِيَسْ فِيهِ شَيْءٌ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « اجْمَعُوا .. مَنْ وَجَدَ شَيْئًا فَلِيَأْتِ بِهِ ، وَمَنْ وَجَدَ عَظِيمًا أَوْ سَنَا فَلِيَأْتِ بِهِ ». قَالَ فَمَا كَانَ إِلَّا سَاعَةً حَتَّى جَعَلَنَا رَكَامًا ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « أَتَرَوْنَ هَذَا ، فَكَذَلِكَ تَجْتَمِعُ الذَّنَوبُ عَلَى الرَّجُلِ مِنْكُمْ كَمَا جَمَعْتُمْ هَذَا ، فَلَيَتَقَرَّبَ اللَّهُ رَجُلٌ فَلَا يَذْنُبُ صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا فَإِنَّهَا مَحْصَةٌ عَلَيْهِ » .

وقد علم أولو النهى من تجاربهم أن هناك أشياء تبدىء من الإنسان وهو غير أبه ولا يحظ لها ، يعدها الآخرون عليه ، ويستنتاجون منها أفكاراً أو يرون وراءها نيات غريبة .

وقد تترتب على ذلك نتائج فادحة ، كما قيل :

إِنَّ الْأَمْوَارَ صَغِيرَاتٍ رُّهْبَانٍ مَا يَهْيَى بِهِ يَجِدُ لِهِ الْعَظِيمُ !!  
فيحسن بالكيس أن يتدبّر ما يصدر عنه من أفعال ، ربما لم يلتفت إليها لصغرها ، ولكنها قد تعقب الكبير من الشرور .

وكما أن تجمّع الصغار مخوف العقبي على حياة الإنسان ، فإن تجسيم الصغار بحيث تبدو إحداها وقد حجبت ما يجاورها من خير ليس من الإنفاق في شيء .

ومن المؤسف أن بعض الناس يقع على السيئة في سلوك شخص ما فيقيم الدنيا ويقعدها من أجلها ، ثم يعمى أو يتعمى عمما تعلّم به حياة هذا الشخص من أفعال حسان وشمائل كرام .

والنظر الذي يثبت على الصغار لا يعودوها ولا يعتذر عنها بما يجاورها من خير وكمال هو نظر جائز .

وقلّما يقود صاحبه إلى راحة .

إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَتَجَاهِزُ عَنِ التَّوَافِهِ وَيَغْتَرِفُ لِلَّمَمِ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ يَنْشُدُ الْكَمَالَ وَيَصْبِغُ بِهِ عَمَلَهُ عَلَى قَدْرِ اسْتِطاعَتِهِ ، قَالَ عَزَّ وَجَلَّ :

﴿ إِنَّمَا تَجْنِبُونَ كَبَائِرَ مَا تَهْوَى عَنْهُ بِكِفْرِ عَنْكُمْ وَسِعَاتٍ كُمْ وَنَدِخلُكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ (١)

(١) النساء : ٣١ .

وجميل في أجزية الله للناس أن يترك لهم فلتات الطياع وزلاط الأقدام .

وجميل من الناس أن يعاشر بعضهم بعضاً على هذه القاعدة من السماحة ، وفي ذلك قال الشاعر :

صديقك ، لم تلقَ الذي لا تعاتبه  
مقارفُ ذنب مرةً ومجابه  
ظمئتَ وأيُّ الناس تصفو مشاريه  
كفى المرءِ نُبلاً أنْ تُعدِّ معايبه

إذا كنتَ في كل الأمور معاتباً  
فععشْ واحداً أو صلْ أخاكَ فإنه  
إذا أنتَ لم تشرب مراراً على القذى  
ومن ذا الذي تُرضي سجاياه كُلها

وهذه القاعدة إذا حسن تطبيقها فيما بين الأصحاب من أواصر ، وما يعرض لعلاقاتهم من هزّات ، فهي بين الزوجين ألزم ، وللسسيطرة على حياتهم أحب وأحکم .  
فإن ضاق الزوج بغلطة من أمراته تذكر أنَّ لها صواباً .

وإن حزن بجانب من نفسها نظر إلى جانب آخر يسره منها .

والى ذلك يشير رسول الله ﷺ بقوله : « لا يُفرُكْ - لا يكره - مؤمنٌ مؤمنةٌ ، إن كره منها خلقاً رضي عنها آخر » (١) .

على أنه من المؤسف أن كثيراً من التوافه تعصف برشد الآلوف المؤلفة من الناس ، وتقوس بيوتهم ، وتهدم صداقاتهم ، وتذرهم في هذه الدنيا حيارى محسورين . ويشرح « ديل كارنيجي » عواقب الاندفاع مع وحى هذه التوافه ، فيقول : ( إن الصغار في الحياة الزوجية يسعها أن تسلب عقول الأزواج والزوجات ، وتسبّب نصف أوجاع القلب التي يعاينها العالم .

أو ذاك على الأقل ما يؤكده الخبراء ، فقد صرّح القاضي « جوزيف ساباث » من قضاة شيكاغو بعد أن فصل في أكثر من أربعين ألف طلاق بقوله : إنك لتجدنَ التوافه دائمًا وراء كل شقاء يصيب الزوج .

---

(١) مسلم .



وقال « فرانك هوجان » النائب العام فى نيويورك : إن نصف القضايا التى تُعرض على محاكم الجنایات تقوم على أسباب تفاهة ، كجدال ينشأ بين أفراد أسرة ، أو من إهانة عابرة ، أو كلمة جارحة ، أو إشارة نابية .

هذه الصغائر اليسيرة هى التى تؤدى إلى القتل والجريمة .

إنَّ الأقلَّينَ مِنَّا قُسَّاةٌ بِطْبَائِعِهِمْ ، بَيْدَ أَنَّ تَوَالِيَ الضَّرَبَاتِ الْمُوجَّهَةِ إِلَى ذَوَاتِنَا وَكَبْرِيَائِنَا وَكَرَامَتِنَا هُوَ الَّذِي يُسَبِّبُ نَصْفَ مَا يَعْنِيهِ الْعَالَمُ مِنْ مَشَكَّلَاتِ ) .

هذا الكلام الذى يصف علل الجرائم فى مدن أمريكا يمكن أن نقله بنصّه فى وصف علل الجرائم التى تقع فى مدننا وأريافنا .

والواقع أَنَّ سُوءَ التَّصْوِيرِ لِلأَمْرَوْرِ ، وَشَدَّةَ الإِحْسَاسِ بِالْكَرَامَةِ الْخَاصَّةِ ، وَالْمَبَادِرَةِ إِلَى تَفْسِيرِ أَىِّ تَصْرِيفٍ بِأَنَّهُ احْتِقَارٌ لَا يَغْسِلُهُ إِلَّا الدَّمُ ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ التَّخْيِيلَاتِ الَّتِي تَضَخِّمُ التَّوَافِهَ هُوَ السَّبِبُ الْأَوَّلُ لِمَا تَشَهِّدُهُ وَتَقْرَأُهُ مِنْ أَحْدَاثٍ مَرْوِعَةٍ .

والعلاج ؟ .. صقل مراة الذهن بحيث تلتقط صوراً حقيقية لما تحفل به الحياة . صوراً لم تفسدها المبالغة ، ولم يشوّها الهوى .

ثم الحكم على هذه الصور فى نطاق النظرة الرحيبة . النظرة التى تضع النظائر والنقائص فى جوار واحد ، فلا تنسى الخير إذا هاجها شر .

وبذلك يتلاشى أغلب ما يحسه المرء من شقاء ، وما يتورّط فيه من أخطاء .



لو أنَّ أيدينا يمكنها أن تمتد إلى الماضي لتمسك حوادثَ  
المُدبرة ، فتغيّر منها ما تكره ، وتحوّرها على ما تحب ؛ لكانَ  
العودة إلى الماضي واجبة ، ولهُرعنَا جميّعاً إليه ، نحو ما ندمنا  
على فعله ، ونضاعف ما قلْتُ أنصبنا منه .

أما وذلك مستحيل فخِيرٌ لنا أن نكرّس الجهد لما نستأنف من  
أيام ولِيالٍ ، ففيها وحدّها العِوض .

محمد الغزالى

## قضاء وقدر

إحساس المؤمن بأنَّ زمام العالم لن يفلت من يد الله يقذف بمقادير كبيرة من الطمأنينة في فؤاده .

إذً مما اضطربت الأحداث وتقلبت الأحوال فلن تُبْتَ فيها إلا المشيئة العليا :

﴿وَاللَّهُ عَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾<sup>(١)</sup>

وهذا يفسّر ركون المسلم إلى ربّه بعد أن يؤدّي ما عليه من واجب .

إنَّه يتوكّل عليه ويستريح إلى ما يتمخَّض عنه المستقبل من نتائج بعد ما بذل جهده فيما وُكِّلَ إليه من عمل وإعداد واحتياط .

والحقُّ أنَّه لا معنى لتوتُّر الأعصاب واشتداد القلق بإزاء أمور تخرج عن نطاق إرادتنا .

قد يقع الإنسان سنَّ الندم على تفريشه ، وقد يستوجب أقسى اللّوم على تصديره .  
أمّا أن يطلُّ القدرُ عليه بما لا دخل له فيه فهو ما لا مكان فيه لندم أو ملام ،  
وبالتالي لا مكان فيه لقلق أو ريبة .

ومن ثمَّ ينبغي أن نستقبل الدنيا بيقين وشجاعة . ويعجبني قول علىَ :

أيُّ يومٍ من الموت أفترِ ؟ أو يوم قُدرِ ؟  
يوم لا يُقدَّرُ ! ومن المقدور لا ينجو الحَذَرِ !!

بهذا المنطق يواجه الرجل العُطُوب وهو جرىء .

أمّا إذا فرغتْ نفسه من الله ، ونظر إلى الأحداث كأنها موج يتدفع مداً وجراً ،  
يغرق فيها من يغرق ، وينجو من ينجو ، فإنه يحيا بفؤادٍ هواء ، تلعب به  
الأحداث والظنوں .

(١) يوسف : ٢١ .

إنَّ الرُّكُونَ إِلَى الْقَدْرِ - وَهُوَ غَيْرُ القُولِ بِالْجَبْرِ - وَالْبَرَاءَةُ مِنَ الْحَوْلِ وَالظُّلُولِ يُورِثُ جِرَاءَةً عَلَى مُواجِهَةِ الْيَوْمِ وَالْغَدِ ، وَيُضَعِّفُ عَلَى الْحَوَادِثِ صِبَغَةَ تَحْبِبِ بِغِيَضِهَا ، وَتَجْعَلُ الرَّءَيْقَبِيلَ - وَهُوَ مُبَتَّسِمٌ - خَسَارَةَ النَّفْسِ وَالْمَالِ .

وَذَاكَ مَا عَنْتَهُ الْآيَاتُ الْكَرِيمَةُ : « قُلْ لَّمَّا يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مُوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلَيَسْتَكِيلُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ قُلْ هَلْ تَرِبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَّينَ ﴿٢﴾ »<sup>(١)</sup>  
يُعنُونَ كَسْبَ الْمُعرَّكَةِ بِالنَّصْرِ ، أَوِ الْمَوْتِ فِيهَا دُونَ الظَّفَرِ بِهَا ، وَهُوَ حَسْنٌ كَذَلِكَ ، لَأَنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ مُثْبَةٍ مُحَفَّوظٌ مُضْمَونٌ .

أَمَّا الَّذِينَ لَا دِينَ لَهُمْ فَهُمْ إِنْ انتَصَرُوا أَوْ انْهَزَمُوا بَيْنَ عَذَابَيْنِ : أَجْلٌ أَوْ عَاجِلٌ !!

« وَنَحْنُ نَرْبَصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ يُعَذِّبُ مَنْ عِنْدِهِ أَوْ يَأْمُدُنَا فَتَرَبَّصُونَا إِنَّا مَعَكُمْ مَنْ تَرِبَّصُونَ »<sup>(٢)</sup>

هذا موقفُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْأَقْدَارِ يَتَّسِمُ بِالْقُوَّةِ وَالتَّحدِيِّ ، وَلَا شَائِبَةَ فِيهِ لَرِبَّةٍ أَوْ اسْتَخْذَاءٍ .  
غَيْرُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَجْهَلُونَ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ أَوْ يَجْحُدُونَهَا ، وَيَبَشِّرُونَ أَعْمَالَهُمْ  
وَهُمْ يَحْمِلُونَ بَيْنَ جُوانِبِهِمْ هُمُومًا مَقِيمَةً ، وَمَشَاعِرَ عَقِيمَةً .  
وَهُمْ لَا يَجْزِعُونَ مِنْ أَحْزَانِ تَصِيبِهِمْ فَحَسْبٌ ، بَلْ يَجْزِعُونَ مِنْ أَحْزَانِ يَتَوَقَّعُونَهَا ،  
وَيَفْتَرِضُونَ أَنَّ الْمُسْتَقْبِلَ قَدْ يَرْمِيهِمْ بِهَا .

وَكَمْ يَجْمِحُ بَهُمُ الْخَيَالُ فِيمَا حَيَاتِهِمْ بِأَشْبَاحِ الْمَوْتِ وَالدُّمَارِ ، وَيُوهِمُهُمْ أَنَّهُمْ بَيْنَ  
الْحَيْنِ وَالْحَيْنِ مَعْرَضُونَ لِلْهُجُومِ مِنْ هَنَا وَغَدَرُ مِنْ هُنَاكَ !!

قال « دِيلْ كَارْنِيْجِيْ » : ( لكنَّ كَثِيرًا مِنَ الرِّجَالِ النَّاضِجِينَ لَا تَقْلِيلُ مُخَاوِفِهِمْ سُخْفًا عَنْ مُخَاوِفِ الْأَطْفَالِ وَالصَّبِيَّانِ ، وَفِي اسْتِطَاعَتِنَا جَمِيعًا أَنْ نَتَخَلَّصَ مِنْ تِسْعَةِ  
أَعْشَارِ مُخَاوِفَنَا تَوَّاً لَوْ أَنَّنَا كَفَفَنَا عَنْ اجْتِرَارِ خَوَاطِرِنَا ، وَاسْتَعَنَا بِالْحَقَّاقَاتِ المَدْعُومَةِ  
بِالإِحْصَاءِ ، لَنْرِى إِنْ كَانَ هُنَاكَ حَقًّا مَا يَبْرُرُ تِلْكَ الْمُخَاوِفِ .

إِنَّ شَرِّكَةَ « لَوِيدْ » بِلَندَنْ ، وَهِيَ أَشْهَرُ شَرِّكَاتِ التَّأْمِينِ فِي الْعَالَمِ ، قَدْ رَبِّحَتْ  
مَلايِّينَ الْجَنِيَّهَاتِ مِنْ اسْتِغْلَالِهَا مِيلَ الإِنْسَانِ إِلَى التَّوْجِّسِ مِنْ أَبْعَدِ الْأَمْوَارِ احْتِمَالًا ..  
هَذِهِ الشَّرِّكَةُ تَرَاهُنَ النَّاسَ عَلَى أَنَّ الْكَوَافِرَ الَّتِي يَخْشَوْنَ حَدُوثَهَا ، وَيَسَاوِرُهُمُ الْقَلْقُ مِنْ  
أَجْلِهَا ، لَنْ تَحْدُثْ أَبَدًا .

(١) التوبية ٥٢ - ٥١ .

(٢) التوبية ٥٢ .

على أنها بدأهـ لا تسمـى هذا العمل مـراهـنة ، بل تسمـيه « تأمينـاً » ، وقد ظلـت هذه الشركة تواصلـ أعمالها بنجاحـ مايـسـنة .

ومـا لمـ تتـغـيرـ طـبـاعـ النـاسـ فـستـواـصـلـ هـذـهـ الشـرـكـةـ نـجـاحـهاـ خـمـسـيـنـ قـرـنـاـ أـخـرىـ ، وـسـتـظـلـ تـقـبـلـ تـأـمـينـ عـلـىـ الـأـحـذـيةـ وـالـسـفـنـ ، وـغـيـرـ ذـلـكـ ، لـأـنـ الـكـوـارـثـ الـتـىـ يـتـوقـعـهـاـ النـاسـ لـاـ تـقـعـ بـالـكـثـرـةـ الـتـىـ يـتـصـورـونـهـاـ )ـ .

الفـزعـ منـ المـسـتـقـبـلـ المـجهـولـ ، وـتـوـقـعـ الـخـسـارـ الـفـادـحـ ، وـالـشـعـورـ بـالـلوـهـنـ عنـ حـمـلـ هـذـهـ المـصـائـبـ المـتـوهـمـةـ هوـ سـرـ قـيـامـ شـرـكـاتـ التـأـمـينـ وـتـغـلـلـ فـروـعـهـاـ فـيـ أـرـجـاءـ الـحـيـاةـ الـعـامـةـ . وـمـنـ هـذـاـ الفـرقـ فـىـ الـحـقـيقـةـ - بـيـنـ مـاـ يـقـعـ فـعـلاـ ، وـمـاـ يـقـعـ وـهـمـاـ - تـسـتـولـيـ هـذـهـ الشـرـكـاتـ عـلـىـ قـنـاطـيرـ مـقـنـطـرـةـ مـنـ الـذـهـبـ وـالـفـضـةـ ، مـسـتـغـلـةـ خـشـيـةـ الـخـوـافـينـ عـلـىـ أـعـمـارـهـمـ حـيـنـاـ ، وـعـلـىـ أـمـوـالـهـمـ حـيـنـاـ آخـرـ !! .

وـقـدـ حـاـوـلـ «ـ دـيـلـ كـارـنـيـجـىـ »ـ أـنـ يـشـفـىـ صـرـعـىـ الـأـوـهـامـ بـسـرـدـ إـحـصـاءـاتـ صـادـقةـ عـنـ النـواـزلـ الـتـىـ تـقـعـ بـالـبـشـرـ فـىـ الـبـرـ وـالـبـحـرـ .

وـهـوـ عـلـاجـ فـىـ نـظـرـنـاـ لـاـ يـحـسـمـ الـعـلـةـ الـتـىـ تـنـتـشـرـ حـتـمـاـ حـيـثـ تـفـرـغـ الـقـلـوبـ مـنـ الإـيمـانـ .

إـنـ الـخـضـارـةـ الـخـدـيـثـةـ سـيـئـةـ الـعـلـمـ بـالـلـهـ ، وـهـىـ بـالـتـالـىـ مـزـعـزـعـةـ الـثـقـةـ فـيـهـ .

وـلـذـلـكـ تـعـالـجـ أـدـوـاءـهـاـ بـأـدـوـيـةـ رـدـيـئـةـ ، مـنـ مـراـهـنةـ تـسـمـىـ تـأـمـينـاـ ، وـمـنـ إـحـصـاءـاتـ تـبـيـنـ لـلـمـرـعـوبـينـ أـنـ نـسـبـةـ الـإـصـابـاتـ أـخـفـاـمـاـ يـتـصـورـونـ .

وـنـحنـ نـنـادـيـ بـأـخـذـ الـحـيـطةـ لـلـمـسـتـقـبـلـ ، وـإـرـصادـ الـعـوـضـ لـكـلـ مـصـابـ ، وـلـكـنـنـاـ نـسـتـنـكـرـ الـمـتـاجـرـةـ بـالـذـعـرـ النـاشـئـ عـنـ خـوـرـ الـيـقـيـنـ كـمـاـ تـفـعـلـ شـرـكـاتـ التـأـمـينـ ، وـنـسـتـنـكـرـ الـفـرقـ الـذـىـ يـسـتـحـوذـ عـلـىـ الـجـبـنـاءـ عـنـدـمـاـ يـدـفـعـهـمـ الشـكـ إـلـىـ تـرـقـبـ الـمـوـتـ كـامـنـاـ فـيـ كـلـ أـفـقـ .. !! .

وـاسـمـعـ إـلـىـ قـصـةـ تـاجـرـ اـعـتـادـ أـنـ يـعـذـبـ نـفـسـهـ بـهـذـهـ الـأـفـكـارـ يـرـوـيـهـاـ «ـ كـارـنـيـجـىـ »ـ :ـ (ـمـاـذـاـ لـوـ تـصـادـمـ الـقـطـارـ الـذـىـ يـنـقـلـ الـبـضـاعـةـ ؟ـ مـاـذـاـ لـوـ أـنـهـارـ جـسـرـ فـيـ الـلـحـظـةـ الـذـىـ يـمـرـ الـقـطـارـ فـيـهـاـ ؟ـ نـعـمـ إـنـ الـبـضـاعـةـ مـؤـمـنـ عـلـيـهـاـ ، وـلـكـنـهـ يـخـشـىـ إـنـ لـمـ تـصـلـ الـفـاكـهـةـ فـيـ

الوقت المحدد أن يفقد عملاءه . ولقد أجهد نفسه من فرط القلق حتى خُيّل إليه أنه أصيب بقرحة في المعدة ، فذهب إلى الطبيب . فأكمله الطبيب أنه سليم معافيًّا إلا من توتر أعصابه . قال مستر « جرانت » : لقد أحسستُ عندما قال لي الطبيب هذا كأنما أخرجت من الظلمات إلى النور ، وأخذت أسائل نفسي : كم عربة من عربات البضاعة استخدمت في خلال العام المنصرم ؟ ، وكان الجواب : نحو خمسة وعشرين ألف عربة ، وعدت أسأل نفسي : كم من هذه العربات تحطم بسبب من الأسباب ؟ ، وكان الجواب : خمس عربات ... حينئذ قلت لنفسي : خمس عربات من خمسة وعشرين ألف عربة !! أتدرى ما معنى هذا ؟ .

معناه أن معدل نسبة الخسارة هو عَرَبَةً واحدةً من كل خمسة آلاف عربة « فعلام القلق إذن ؟ ! » .

أقول : وبث الطمأنينة في النفوس - بتبيان الحقائق على هذا النحو الحاسم - شيء حسن .

ولكنه لا يحسن ذوي الأمزجة السود والهواجس الرجراحة .

إنَّ الشخص المتشائم ينكصُ أمام التخيّلات التي تنعقد سحائبها من نفسه .

وما دام ضعف الإيمان يسيطر عليه فهو سيفترض النحس مقبلًا عليه مع أندر نسبة للشر يمكن أن تقع ، ولن تَقْرَنْ نفوس هؤلاء إلا إذا خالطها محض الإيمان بالله والتسليم له ، والرضا بما يقدّره .

وتقبل أسوأ الفروض على أنها قضاء الله الذي لا مفرّ منه .

وذاك ما يوصي به الإسلام . قال رسول الله ﷺ : « لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره ، وحتى يعلم أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه »<sup>(١)</sup> .

ومثل هذا الشعور يريح من عناء كثير ، ويزيح همومًا ثقيلة ، ولذلك قال رسول الله : « من سعادة ابن آدم رضاه بما قضى الله له ، ومن شقاوة ابن آدم تركه استخارة الله ، ومن شقاوة ابن آدم سخطه بما قضى الله له »<sup>(٢)</sup> .

(١) الترمذى .

(٢) الترمذى .

ويجب أن تؤكّد مرة أخرى أن دائرة الاستكانة والتسليم تبدأ بما يغلب الإرادة  
المعتادة ، وبما يخرج عن نطاق الاختيار الحرّ .

فلا احتجاج بقدر ، ولا مكان للقول به حيث تستطيع أن تفعل وأن ترك .

أما بعد أن تبلغ بإرادتك مداها فدع الأمور لمدبرها الأعلى ينتهي بها حيث يشاء  
دون نزق أو قلق .

والغريب أن بعض المؤمنين يستحمق ويلوذ بالسكون والتجرد ، أو بالقعود والتماوت  
باسم التعویل على الله ، وإسلام القياد له .

وهذا جنون وكفران لا عقل وإيمان .

ويتمثل هؤلاء قول الشاعر :

والسعى للرزق - والأرزاق قد قُسِّمتْ - بَغْيٌ أَلَا إِنَّ بَغْيَ الرَّءُوفِ يَصْرُعُه  
هذا كلام فارغ !! .

وشأن الناس مع الله عجيب !! ذاك تاجر أمريكي يؤرقه السهود ، لأنه من خوفه  
على رزقه يتوجّس أن ينهار جسر تحت بضاعته فلا تصل إلى عملائه ، وهذا شاعر  
عربي يريد أن يغطّ في نوم عميق ، وألا يتتجشّم مؤنة سعي ، لأن الأرزاق مقسومة !! .  
والحقيقة في التسوّط بين الطرفين المتنافرين ، فنؤدي العمل المطلوب ،  
وننفي الريب عن أفئدتنا بعد أن أدينا ما علينا مستريحين لما يصنع الله بنا ،  
وهو لن يصنع إلا الخير .

إنّ أحاديث القدر علاج للقلق والتشاؤم ، وليس ذريعة كسل أو خمول .



ومراقبة الأقدار القاهرة - خارج نطاق إرادتنا الحرّة - وملاحظة صنْع الله فيما تقد به  
من حلو ومرّ وخير وشرّ ، يضبط العواطف ، ويجنبها الحدة والغلواء .

ولذلك ترى أولى الألباب والتجارب معتدلين في فرحهم وحزنهم ،  
وسرورهم ونفسورهم .

وقد يصل هذا الاعتدال إلى حدّ البرود ، وقلة الاكتثار ، ومقابلة المباحث  
والصائب بشعور محайд ، وفي ذلك يقول أبو العلاء :

غَيْرُ مُجْدٍ فِي مَلَكِي وَاعْتِقَادِي      نَوْحٌ بَاكٌ وَلَا تَرْئِمْ شَادِي  
وَشَبِيهَ صَوْتُ النَّعْيٍ إِذَا قَيسَ بِصَوْتِ الْبَشِيرِ فِي كُلِّ نَادٍ  
أَبَكَتْ تِلْكُمُ الْحَمَامَةُ أَمْ غَنَتْ عَلَى فَرْعَ غُصْنِهَا الْمَيَادِ  
وَيَقُولُ التَّنبِيَّ :

أَلَا لَا أَرِي الْأَقْدَارَ مَدْحَأً وَلَا ذَمَّاً      فَمَا بَطَشُهَا جَهْلًا وَلَا كَفُّهَا حَلْمًا

وَالْهَدْفُ الَّذِي يَرِيدُ هُؤُلَاءِ الْوَصْوَلُ إِلَيْهِ وَإِنْ اخْتَلَفَ تَصْوِيرُهُمْ لَهُ ، أَوْ نَدَّتْ عَبَارَتَهُمْ  
عَنْهُ ، هُوَ الَّذِي عَنَّتْهُ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ :

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ قَبْلِ أَنْ تَنْبَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى  
الْأَنْهَى سِيرٍ لِكِلَّا نَأْسًا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا فَرَحْ حُوَى مَاءَ شَكْمٍ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَلِلٍ فَخُورٍ ﴾ (١)

وَلَيْسَ الْقَصْدُ مَصَادِرَ الطَّبْعِ الْإِنْسَانِيِّ فِي إِحْسَاسِهِ بِالْأَلْمِ وَالسُّرُورِ .

وَإِنَّا الْقَصْدُ مِنْ الْإِسْتِغْرَاقِ الْمَذْهَلِ ، فَإِنَّ لِلْفَرَحَةِ الْطَّاغِيَّةِ نَشْوَةٌ تَخْرُجُ عَنِ الصَّوَابِ ،  
وَلِلْحَزْنِ الْجَاثِمِ وَطَأَةٌ تَسْحُقُ الإِرَادَةَ .

وَالْمُؤْمِنُ الَّذِي يَبْصُرُ عَمَلَ اللَّهِ فِي كُلِّ مَا يَمْسِهِ لَا يَتَخْبِطُ بَيْنَ هَذِهِ الْانْفَعَالَاتِ ،  
فَيَرْفَعُهُ هَذَا إِلَى الْقَمَمَةِ ، وَيَخْفَضُهُ ذَلِكَ إِلَى الْخَضِيْضِ .

إِنَّهُ يَلُوذُ بِالْأَعْدَالِ ، وَيُسَيِّطُ عَلَى أَعْصَابِهِ ، وَتَلْكَ بَعْضُ ثَمَرَاتِ الْإِيمَانِ بِالْقَدْرِ .  
إِنَّ الرَّجُلَ الْفَضِيفَ قَدْ يُفْزِعُهُ الْمَصَابُ وَيُشَتَّتُ أَفْكَارُهُ ، فَبِدَلًاً مِنْ أَنْ يَخْتَصِرَ مَتَاعَبُهُ  
بِمَجَابِهِ الْوَاقِعِ وَالْإِسْتِعْدَادِ لِقَبْولِهِ ، يَسْتَرِسْلُ مَعَ الْأَحْزَانِ الَّتِي تَضَاعَفُ كَابَتْهُ وَلَا تَغْيِّرُ  
شَيْئًا ، وَانْظُرْ إِلَى ابْنِ الرُّومِيِّ لَمَّا فَقَدَ ابْنَهُ كَيْفَ يَقُولُ :

وَأَوْلَادُنَا مِثْلُ الْجَوَارِ أَيُّهَا      فَقَدْنَاهُ كَانَ الْفَاجِعَ الْبَيْنَ الْفَقْدِ !!  
هَلْ السَّمْعُ بَعْدَ الْعَيْنِ يُغْنِي مَكَانُهَا ؟      أَوْ الْعَيْنُ بَعْدَ السَّمْعِ تَهْدِي كَمَا يَهْدِي !!

ثُمَّ يَسْتَبِدُ الْجَزْعُ بِالرَّجُلِ الْمَكْلُومِ ، فَتَنْهَى أَعْصَابَهُ ، وَيُرْسَلُ هَذِهِ الْصَّرْخَةُ الْمَخْنُونَةُ :  
وَمَا سَرَّنِي إِنْ بَعْتُهُ بِشَوَابِهِ      وَلَوْأَنَّهُ التَّخْلِيدُ فِي جَنَّةِ الْخَلْدِ !!

مَا قِيمَةُ هَذِهِ الْإِعْوَالِ وَالْتَّمَرُّدِ ؟ .

وَمَا أَثْرُهُ فِي الْعَاجِلِ وَالْأَجْلِ ؟ لَا شَيْءٌ إِلَّا الْحَسْرَةُ .

(١) الْحَدِيدُ آيَةُ ٢٢، ٢٣.

أما موقف اليقين الناضج والتسليم الكريم ، فتراء مثلاً في سيرة يعقوب لما جاءه بنوه هم يتباكون على فقد يوسف الذي أكله الذئب - كما يخبرون - لقد قال الرجل الذي غاب عنه ابنه :

﴿فَصَبَرْ جَيْلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَنُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾<sup>(١)</sup>

وانتظر الرجل أن يؤوب الغائب المتردد بين الموت والحياة ، وطال الانتظار دون جدوى .

ومررت السنون على الشيخ الآمل في الغيب ، وإذا هو بدل أن يعود ابنه المرتقب يفقد ابنه الآخر ، وينكأ الجرح القديم جرح جديد !! .

ماذا يصنع ؟ . أينفَس عن جواه بالصراخ والجزع ؟ لا ، إنَّه يقول مرة أخرى :

﴿فَصَبَرْ جَيْلٌ عَنِ اللَّهِ أَن يَأْتِيَهُمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾<sup>(٢)</sup>

إنَّ القنوط لم يصدمه فينشج بقول الشاعر :

**وَحُمِّلتْ زَفَرَاتُ الضُّحَى فَأَطْقَتْهَا  
وَمَا لَى بِزَفَرَاتِ الْعَشَىٰ يَدَانِ**

كلا . لقد تحمل المأساة الأخيرة بالعاطفة نفسها التي تحمل بها الأولى ، وظلَّ على تشبيهه برحمة الله ، يرمي الغد وفي فؤاده شعاع من رجاء لم تطفئه الأحداث ، وقال لأبنائه :

﴿أَذْهَبُوا فَتَحْسَسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيُسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ  
إِنَّهُ وَلَا يَأْتِيَ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا قَوْمٌ كَافِرُونَ﴾<sup>(٣)</sup>

من هذا السلوك العالى نلتمس الأسوة الحسنة ، ونتعلم الثبات فى وجه العواصف القاسية .

وما عساك تفعل إذا أصابك ما تكره ؟ . إنَّ كان تغيير الم Kroه فى مقدورك فالصبر عليه بلادة ، والرضا به حمق .

أما إذا كان ما عراك فوق ما تطيق ، فهل هناك حيلة أفضل من الاتزان ورباطة الجأش ؟ ! .

(١) يوسف آية : ١٨ .

(٢) يوسف آية : ٨٣ .

(٣) يوسف آية : ٨٧ .

وهل هناك مسلك أرشد من الاعتراف بالواقع ، ونشدان تغييره من صاحب الإرادة العليا ، وواهب الخير الجزيل ؟ .

إنّ وخزات الأحداث قد تكون إيقاظاً للإيمان الغافى ، ورجعة بالإنسان إلى الله .

وهذه النتيجة تحول الداء دواءً ، والمحنة منحة ، وتلك لا ريب أشهى ثمرات اليقين ، والرضا بما يصنعه رب العالمين .

وهي ثمرة أحلى مما يذكره « ديل كارنيجي » عوضاً عن الإيمان بالقضاء والقدر ، إن الرجل يطلب من المصاب أن يتبدل أمام الأنواء ، كما تتبدل قطعان الجاموس وجذوع الأشجار !! وهو معذور فيما يصف لأنّه لم يقع على الدواء الذي بين أيدينا ، ولنسمع له يقول : ( رفضت ذات مرّة أن أقبل أمراً مُحتملاً واجهني ، وكنتُ أحمق فاعتبرضت وثرت وغضبت وحوّلت لياليَّ إلى جحيم من الأرق ، وبعد عام من التعذيب النفسي امتنعت لهذا الأمر الحتم الذي كنتُ أعلم من البداية أنه لا سبيل إلى تغييره .

وما كان أخْلِقْنِي أن أردد مع الشاعر « والت هويتمان » قوله :

« ما أجمل أن أواجه الظلام والأنواء والجحود ؟ » .

« والمصائب والآسى واللّوم والتقرير ؟ » .

« كما يواجهها الحيوان ، وتواجهها من الأشجار الجذوع ! » .

ولقد أمضيت اثنى عشر عاماً من حياتي مع الماشية ، فلم أر بقرة تبتئس لأن المرعى يحترق ، أو لأنّه جفّ لقلة الأمطار ، أو لأن صديقها الثور راح يغازل بقرة أخرى . إنّ الحيوان يواجه الظلام والعواصف والمجاعات هادئاً ساكناً ، ولهذا قلل ما يصاب بانهيار عصبي أو قرحة في المعدة !! ) .

ذلك هو العلاج الحيواني الذي يقترحه لمكافحة الأزمات !! .

وتلك هي الآثار المادية التي ينتظرها من ورائه !! .

ونحن المسلمين لا نرى في هذا التبدل المطلوب مثلاً أعلى لشفاء الإنسان مما يصيبه من أحزان .

إن التسليم لله أفضل من هذا التبدل المنقطع .

وأين كلمات الشاعر « هويتمان » السابقة من قول الله عز وجل :

﴿ وَنَبْلُونَكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ ﴾  
وَالْجُوعَ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّر الصَّابِرِينَ ١٠٠  
الَّذِينَ إِذَا أَصْبَبْتُهُمْ مُّصِيبَةً قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ١٥٦  
أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّنْ رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ٤١١﴾ .



والمرونة في مقابلة الشدائيد بعض آثار الإيمان والرشد .

وحري بالرجل الذي يدع العاصفة تمر أن يحسن التغلب عليها بعد أن تكون حدتها قد انكسرت .

وهذه المرونة دلالة تأدب مع الله وسكينة في ملاقة قدره .

ثم هي في معاملة الناس أنجع الوسائل لکبح جماحهم بل لامتلاك أنفسهم .

وفي الأثر : جربت اللّين والسيف ، فوجدت اللّين أقطع .

ومؤمن المرن يدور مع الأحداث لا دوران ضعف ونفاق ، ولكن كما يدور المصارع في الحلبة حتى لا يكشف مقاتله لخصم متربص .

وفي هذا يقول « ديل كارنيجي » كلاماً حسناً :

( إن أحداً منا لم يُمنح القوة التي تجعله يقاوم ما ليس منه بُدُّ ، ثم يتبقى له بعد هذه المقاومة جهد يمكنه من خلق حياة حافلة سعيدة .

عليك أن تختار واحداً من شيئين : إما أن تتحنى حتى تمر العاصفة بسلام ، وإما أن تتصدى لها متعرضاً بذلك للهلاك .

لقد شهدت تجربة من هذا النوع في مزرعتي ، إذ هبّت ريح عاتية على المزرعة ، ولكن الأشجار لم تتحنى لل العاصفة ، بل تصدى لها مُنتصبة الأعواد ، فلم تلبث أن تكسرت وصارت حطاماً تذروه الرياح .

إن أشجارى ليست لها حكمة الأشجار النامية في مزارع كندا . لقد عهدتها دائمة الخضرة ، تتحنى للعواصف ، فتمر في طريقها بسلام ) .

(١) البقرة : ١٥٧ - ١٥٥ .

وهذا الكلام هو عندي أحسن تفسير لقول محمد رسول الله ﷺ : « مثل المؤمن كمثل الزرع لا تزال الريح تميله ، ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء . ومثل الكافر كمثل شجرة الأرز لا تهتز حتى تستحصد » . وفي رواية : « مثل المؤمن كمثل الخامدة من الزرع تُفْيِئُها الريح مرة وتَعْدُلُها أخرى حتى تهيج - أى تقوى وتنضج - . ومثل الكافر كمثل الأرزة الجدبَة على أصلها - لا تميل مع ريح لصلابتها - حتى يكون أنجعافها مرّة واحدة»<sup>(١)</sup> - أى انكسارها .

### ﴿۴۳﴾

وهذه المرونة في ملاقة الواقع البغيض قد تكُلُّك الابتسام له ، وحمل النفس على حسن استقباله ، لا لأنك تود بقاءه ، بل تخفيقاً من شدة الضيق به ، على نحو ما قال الشاعر :

ومفرق رأسي قلت للشيب مرحبا  
تنكب عنى ، رمت أن يتنكبـا  
به النفس يوماً كان للكره أذهبـا

ولما رأيت الشيب لاح بعارضـى  
ولو خفت أنى إن كففت تحـىـتـى  
ولكن إذا ما حل كـرـه فسامـحتـى

وهذه النصيحة عينها هي التي يزجيها لنا « كارنيجي » بقوله : ( إن السرعة التي تتقبل بها الأمر الواقع - إذا لم يكن منه بد - مدهشة النتيجة ، فإننا لا نلبث حتى نوطّد أنفسنا على الرضا بهذا الواقع ، ثم ننساه بعده كل النسيان . يقول « وليم جيمس » : كن مستعداً لتقبّل ما ليس منه بد ، فإن هذا التقبّل خطوة أولى نحو التغلب على ما يكتنف الأمر من صعاب ) .

وهذا الرضا ضرب من التعزية الجميلة والمواساة الحسنة ، ولا يسوغ أن يفهم منه عاقل أن مكاره الحياة أهداف مستحبة نسعى إليها في اشتياق ورغبة .

من الذي يحب العمى ؟ . إنّ الرسول الكريم كره لنفسه ، ودعا الله أن يتمتعه بحواسه كلّها ، وكل مؤمن بل كل إنسان يود أن يعيش إلى أن يوافيته أجله وهو سليم المشاعر .

لكن بعض الناس قد يبتلى بفقد عينيه ، فهل ندعه للألم يحرّف في نفسه حتى يذوب حسرة ؟ كلا .

(١) البخاري .

هنا يجيء قول الرسول الكريم راوياً عن ربّه : «إذا سلبتُ من عبدِي كريمتِه وهو بهما ضئيلٌ لم أرضَ له ثواباً دون الجنة ، إذا هو حمدُنِي علَيْهِما»<sup>(١)</sup>.

هذه تعزية كريمة ، وسلوٰى يجد المهزون في بشارتها ما يخفف جواه ويذهب بلواه ، فهل يفهم من هذا الكلام المبين أنَّ العمى غايةُ تُطلب ؟ ، وأنَّ آلام الدنيا درجات رفيعة يتعرّض لها طلابُ الثواب وعشاقُ الجنة ؟ ! .

إنَّ تفكير المتصوّفة سقط في هذه الهاوية ، وجرَّ معه عوامُ المسلمين ، فضلُّ في هذه الحياة مساعيهم ، وبذل قواهم ، وجعلَ مُثُلَّهم العليا تختبط في آفاق داكنة من اليساء والضراء !! .

والسرُّ هو الخلط بين دائرتين متميّتين كل التميّز ، منفصلتين أتم الانفصال . دائرة «ما منه بدُّ» و «ما ليس منه بدُّ» .

ثم التسوية بين المسالك والمشاعر التي تحبّش تلقاء كلَّ منهما . والحق أنَّ كلتا الدائرتين لها مجالها وإيحاوتها .

فالرجل إذا وقعت به مظلمة يملك ردَّها ويوتَّى القدرة على كفَّها ، فإنَّ صبرَه عليها جريمة ، ورضاه بها معصية .

أما إذا حلَّت به مَظْلَمة يعجز عن دفعها ، أو نابتَه كارثة يعلم أن التخلُّص منها فوق قواه ، فيجب عليه أن يتحمّل وأن يتصرّب .

إنَّ «الرضا بالقسمة» أصبح سُبَّة في التفكير الإسلامي ، لأنَّ الذين تَلَقَّوا الأمر وضعوه في غير موضعه ، فسوَّغوا به الفقر والكسيل والخمول ، بدل أن يهونوا به كبوت السعى الجاد ، وهزائم العاملين المرهقين ، ومتاعب المظلومين في وظائفهم ، وهم لا يستطيعون حيلة !! .

إنَّ قول رسول الله : «أتَقِ الْخَارِمَ تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ ، وَارْضَ بِمَا قَسِمَ اللَّهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنِيَ النَّاسِ» هو ما شرحه «دِيل كارنيجي» في هذه الخلاصة : (لقد قرأت خلال الأعوام الثمانية الماضية كل كتاب ، وكل مجلة ، وكل مقالة عالجت موضوع القلق ؛ فهل تريد أن تعرف أحکم نصيحة خرجتُ بها من قراءاتي الطويلة ؟ . ها هي ذى ،

(١) البخاري .

أنصحك أن تدوّنها في ورقة ، وتشتبّهها في صقال مراتك حتى تطالعها كل يوم ، وقد كتب هذه النصيحة ، بل هذا الدعاء ، دكتور « رينولد تاير » الأستاذ بمعهد الاتحاد الديني بنويورك :

هَبْنِي اللَّهُمَّ الصَّبَرَ وَالْقُدْرَةَ  
لِأَرْضِي بِمَا لَيْسَ مِنْهُ بِدُّ  
وَهَبْنِي اللَّهُمَّ الشَّجَاعَةَ وَالْقُوَّةَ  
لِأَغْيَرِ مَا تَقْوِي عَلَى تَغْيِيرِهِ يَدُ  
وَهَبْنِي اللَّهُمَّ السَّدَادَ وَالْحِكْمَةَ  
لِأَمْيَزِ بَيْنَ هَذَا وَذَاكَ

ثم قال : وإنْ فلکی تحطّم عادة القلق قبل أن تحطّم أرض بما ليس منه بد ) أو كما يقول محمد رسول الله ﷺ : « إرض بما قسم الله لك تكون أغنى الناس ».

### ❀❀❀❀❀

ويعجبني أن يواجه الإنسان هذى الحياة وعلى شفتيه بسمة تترجم عن رحابة الصدر وسجاحة الخلق وسعة الاحتمال ، بسمة ترى في الله عوضاً عن كل فائت ، وفي لقاء المرقب سلوىً عن كل مفقود . ولتشبت هنا قصيدة الشاعر محمد مصطفى حمام ، فهي حافلة بهذه العاطفة السهلة الرقيقة ، عاطفة الرضاء والطمأنينة :

كُلَّ الْوَانَهَا رَضًا وَقَبُولاً  
لِي وَيُلْقِي عَلَى الْمَأْسِي سُدُولًا  
أَبْدَ الدَّهْرَ حَاسِدًا أَوْ عَذُولًا  
وَمُرْجَ إِلَيْهِ حَمْدًا جَرِيلًا  
سِ لَئِيمًا أَفْيَتُهُ أَوْ نَبِيلًا  
لَا ، وَلَنْ أَسْأَلَ النَّبِيلَ فَتِيلًا  
ضَى مِنَ الْحَبَّ وَالْوَدَاد بَدِيلًا  
فَكُنِ الضَّيفَ مَؤْنَسًا أَوْ ثَقِيلًا

عَلِمْتُنِي الْحَيَاةُ أَنْ أَتَلَقِي  
وَرَأَيْتُ الرَّضَا يَخْفَفُ أَثْقَا  
وَالَّذِي أَلْهَمَ الرَّضَا لَا تَرَاهُ  
أَنَا راضٌ بِكُلِّ مَا كَتَبَ اللَّهُ  
أَنَا راضٌ بِكُلِّ صِنْفٍ مِنَ النَّا  
لَسْتُ أَخْشَى مِنَ الْلَّئِيمِ أَذَاهُ  
فَسَحَ اللَّهُ فِي فَوَادِي فَلَا أَرَ  
فِي فَوَادِي لِكُلِّ ضَيْفٍ مَكَانٌ

### ❀❀❀❀❀

أو يراه على النفاق دليلا  
عد بها في العباد إلا القليل  
ـ مـاـنـ بـالـلـهـ نـاـصـرـاـ وـوـكـيـلاـ  
ـ سـمـيـنـ ،ـ مـرـأـ ،ـ وـسـائـفـاـ مـعـسـولاـ  
ـ وـأـلـفـ التـغـيـيرـ وـالتـبـدـيـلاـ  
ـ سـيـنـ إـنـ عـلـقـمـاـ وـإـنـ سـلـسـيلاـ  
ـ نـحـنـ كـالـنـجـمـ مـطـلـعاـ وـأـفـولـاـ  
ـ نـحـنـ كـالـمـزـنـ مـمـسـكاـ وـهـطـولـاـ  
ـ نـحـنـ كـالـحـظـ منـصـفاـ وـخـذـولـاـ

٣٤٣٤٣٤٣٤

سـخـرـيـاتـ الـورـىـ قـبـيلاـ قـبـيلاـ  
ـ وـيـرـاهـاـ سـوـاـيـ خـطـبـاـ جـلـيـلاـ  
ـ سـ وـضـلـواـ بـصـائـرـاـ وـعـقـولـاـ  
ـ مـنـ عـيـونـ الـمـهـاـ وـخـدـاـ أـسـيـلاـ  
ـ لـيـسـ إـلـاـ مـشـرـثـاـ مـخـبـولـاـ  
ـ هـوـ أـهـدـىـ هـدـىـ وـأـقـوـمـ قـيـلاـ  
ـ خـشـعـواـ أـوـ تـبـتـلـواـ تـبـتـيـلاـ  
ـ هـاـ وـعـافـواـ الـقـرـآنـ وـالـإـنـجـيـلاـ  
ـ إـنـ إـلـاـ إـنـ كـانـ عـجـولـاـ  
ـ يـةـ لـمـ تـعـفـ فـتـيـةـ أـوـ كـبـهـولـاـ  
ـ لـسـ رـبـاـ وـلـاـ بـعـثـتـ رـسـوـلـاـ  
ـ يـنـ وـلـاـ يـرـهـبـ الـحـسـابـ الشـقـيلاـ

٣٤٣٤٣٤٣٤

سـ وـهـيـهـاتـ أـنـ يـكـوـنـواـ عـدـوـلاـ  
ـ وـلـكـمـ لـقـبـواـ الـكـرـيمـ بـخـيـلاـ  
ـ وـلـكـمـ أـهـمـلـواـ الـعـفـيفـ الـخـجـولـاـ  
ـ وـبـغـيـ قدـ صـوـرـوـهاـ بـتـوـلاـ  
ـ أـشـبـعـ النـاسـ كـفـهـ تـقـبـيلاـ  
ـ وـسـجـينـ مـدـلـلـ تـدـلـيـلاـ  
ـ قـدـ أـسـاءـ الـتـقـلـيدـ وـالـتـمـثـيلاـ

ضـلـلـ مـنـ يـحـسـبـ الرـضاـ عـنـ هـوـانـ  
ـ فـالـرـضاـ نـعـمـةـ مـنـ اللـهـ لـمـ يـسـ  
ـ وـالـرـضاـ أـيـةـ الـبـرـاءـةـ وـالـإـيـ  
ـ عـلـمـتـنـىـ الـحـيـاـةـ أـنـ لـهـاـ طـعـ  
ـ فـتـعـوـدـتـ حـالـتـيـهاـ قـرـيرـاـ  
ـ أـيـهـاـ النـاسـ كـلـنـاـ شـارـبـ الـكـأـ  
ـ نـحـنـ كـالـرـوـضـ نـُضـرـةـ وـذـبـولـاـ  
ـ نـحـنـ كـالـرـيـحـ ثـوـرـةـ وـسـكـونـاـ  
ـ نـحـنـ كـالـظـنـ صـادـقـاـ وـكـذـوبـاـ

قد تـسـرـىـ الـحـيـاـةـ عـنـيـ فـتـبـدـىـ  
ـ فـأـرـاهـاـ مـوـاعـظـاـ وـدـرـوـسـاـ  
ـ أـمـعـنـ النـاسـ فـيـ مـخـادـعـةـ الـنـفـ  
ـ عـبـدـواـ الـجـاهـ وـالـنـضـارـ وـعـيـنـاـ  
ـ الـأـدـيـبـ الـضـعـيفـ جـاهـاـ وـمـالـاـ  
ـ وـالـعـتـلـ الـقـوـيـ جـاهـاـ وـمـالـاـ  
ـ إـلـاـ غـادـةـ تـجـلـتـ عـلـيـهـمـ  
ـ وـتـلـلـواـ سـوـرـةـ الـهـيـامـ وـغـنـوـ  
ـ لـاـ يـرـيدـونـ أـجـلـاـ مـنـ ثـوـبـ اللـهـ  
ـ فـتـنـةـ عـمـتـ الـمـدـيـنـةـ وـالـقـرـ  
ـ إـلـاـ مـاـ اـنـبـرـيـتـ لـلـوـعـظـ قـالـواـ  
ـ أـرـأـيـتـ الـذـيـ يـكـذـبـ بـالـدـ

أـكـثـرـ النـاسـ يـحـكـمـونـ عـلـىـ النـاـ  
ـ فـلـكـمـ لـقـبـواـ الـبـخـيلـ كـرـيـماـ  
ـ وـلـكـمـ أـعـطـوـاـ الـمـلـحـ فـأـغـنـواـ  
ـ رـبـ عـذـراءـ حـرـةـ وـصـمـوـهـاـ  
ـ وـقـطـيـعـ الـيـدـيـنـ ظـلـمـاـ وـلـصـ  
ـ وـسـجـينـ صـبـبـواـ عـلـيـهـ نـكـالـاـ  
ـ جـلـلـ مـنـ قـلـدـ الـفـرـنـجـةـ مـنـاـ

فأخذنا الخبيث منهم ولم نلق  
يوم سنَّ الفرج كذبةٍ إبرىء  
نشروا الرجس مجملًا فنشرنا

三三三三

لُّ فَمِنْ ذَا الَّذِي يَرْدُ السَّيُولًا  
بَلْ أَرَى الْخَيْرَ فِيهِ أَصْلًا أَصْبِلًا  
لَا يَحْبُّ اللَّهُ الْيَئُوسُ الْمُلُوْلًا  
نَّ وَيَطْوِي الزَّمَانُ جِيلًا فَجِيلًا  
هَا عَلَى النَّاسِ بُكْرَةً وَأَصْبِلًا  
وَعَزِيزٌ بِالْأَمْسِ صَارَ ذَلِيلًا  
وَلَقَدْ يَسْقُطُ السَّلِيمُ عَلِيلًا  
رَّ وَشَبَعَانَ يَسْتَحْثُ الرَّحِيلًا  
لَا فَيْرَدِي بَبَغْيِه هَابِيلًا  
حُونَ سَنُوا الْخَرَابُ وَالتَّقْتِيلًا  
مَأْجَادُ التَّزْوِيرِ وَالتَّضْليلًا  
وَبَفَكْرِي إِلَّا خَشِيتُ الْذَّهُولًا

علمتنى الحياة أنَّ الھوى سينـ  
ثم قالت : والخير في الكون باقٌ  
إنْ ترَ الشرّ مستفيضاً فھوَنـ  
ويطول الصراع بين النقيضيـ  
وتظلُّ الأيام تعرض لونـ  
فذليلُ بالأمس صار عزيزاً  
ولقد ينهض العليلُ سليماً  
ربَّ جَوْعَانَ يشتهى فسحة العمـ  
وتظلُّ الأرحامُ تدفع قابـ  
ونشيد السلام يتلوه سفـ  
وحقوق الإنسان لوحـة رساـ  
صورٌ ما سرحتُ بالعين فيها

三三三三

أَيْنَ لِنَ الرَّضَا رَخِيمًا جَمِيلًا  
دُتُّهَا بِلْسَمَ الرَّضَا لِتَزُولَا  
لِيْس إِلَّا التَّقَاعُسَ الْمَرْذُولَا  
خُلُقًا شَائِهَا وَقَدْرًا ضَئِيلًا  
لَسْتُ أَرْضِيَ تَحَادِلًا أَوْ خَمْوَلَا  
لَدَ وَسِيفًا عَلَى الْعَدَا مَسْلُولَا  
تُ لَنْفَسِي أَعْشَنْ حَقِيرًا هَزِيلًا  
أَتَعْلَمْ فَلَا أَزَالُ جَهَوْلًا (١)

ॐ ॐ ॐ ॐ

(١) أليقت في المركز العام للشبان المسلمين ، وفرغ الشاعر من إنشادها ، ثم أجهش بالبكاء !!

## بالحق أنزلناه وبالحق نزل

الإسلام أداة لتنظيم الأفكار على نحو معين ، كما تتنظم المقدمات لتنتج الصواب وتقرب الحق .

ذلك في المجال العقلي ، أما في المجال النفسي والاجتماعي فهو أداة لتنظيم المشاعر والعواطف على نحو ينشئ الفضيلة ، ويدعم الأخوة ، أو على نحو ينفي الرذيلة ، ويتحقق الأثرة .  
فإلا إسلام - بما حوى من تعاليم - إنما يمهد للناس طريق الهدایة التي تأخذ بنواصيهم وأفئدتهم إلى الحقيقة والكمال .

لهذا نزل الوحي ، وتتابعت نذرته وبشائره :

﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ يُكَلِّشُ إِلَيْهِ عَلِيهِمْ ﴾<sup>(١)</sup>

﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَيْمَانَهُ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾<sup>(٢)</sup>

وهذه الهدایة في مجالات النظر والتفكير ، وفي مجالات الأدب والمعاملة هي النتيجة المنشودة من وراء العبادات المقررة .

فليست الغاية من الطاعات مباشرة رسومها الظاهرة ، واعتياض أشكالها ، وتقع صورها .  
كلا ، بل الغاية منها أن تزيد حدة العقل في إدراك الحق ، وارتياض أقرب الطرق إليه ، وإن تمكّن الإنسان من ضبط أهوائه ، وإحسان السير في الحياة بعيداً عن الدنيا والمظالم .

وتأمل قول الله عز وجل :

﴿ إِنَّمَا يَعِمِّرُ مسجِدَهُ  
اللَّهُ مِنْ إِيمَانِ بِاللَّهِ وَإِيمَانِ الْأَخْرِيْ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَإِتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشِ  
إِلَّا اللَّهُ فَعَسَى أَوْلَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهَنَّدِينَ ﴾<sup>(٣)</sup>

(١) النساء : ١٧٦ .

(٢) آل عمران : ١٠٣ .

(٣) التوبه : ١٨ .

إن الإيمان بالله واليوم الآخر ، وفرائض الصلاة والزكاة أشعةٌ تجتمع في حياة الإنسان لتسدّد خطوه وتلهمه رُسْدُه ، وتجعله في الوجود موصولاً بالحق لا ينكر له ، ولا يزيغ عنه .

والذين لا يستفيدون من صلتهم بالله هذا الضياء الكاشف ، وهذه الهدية الكريمة فلا خير في عبادتهم ، ولا أثر لصلاتهم وزكاتهم .

وهذا سر التعبير الذي ختمت الآية به : ﴿ ... عسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴾ .

كأن فعل هذه الصالحات لا يكفي ويشفى إلا بشرائط تتطلب الكثير من اليقظة والجهد .

والرذائل التي نهى الله عنها إنما كرهها العباد لأنها تكسف عقولهم ، وتسقط ضمائرهم ، وتشيع المظالم بينهم ، وتحوّل في أفكارهم ومشاعرهم إلى عطل وظلمة أو إلى فوضى وحيرة .

﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يُشْقَى ﴾ (١) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا

فإنسان الذي يؤثر طريق الرياء على طريق الإخلاص يلقى من العنت ما يلقاه رجل يدور حول نفسه ليصل من القاهرة إلى الإسكندرية .

سيظل يتحرك في موضعه حتى ينقطع إعياء دون أن يبلغ هدفه .

والإنسان الذي يؤثر الزنا على الإحسان يدركه من الشقاء ما يدرك الكلب الضال حين يتسع لاختطاف طعامه ، فيقع على جسمه من الضربات أكثر مما يدخل فمه من المضغ المنهوبة .

وليس هذه المعاصي شؤماً على أصحابها فقط ، بل هي رجوم تملأ جنبات المجتمع بالمسى والمخازي .

وانتشار الجرائم له من تدمير معنويات الأمم ما لانتشار الأوبئة الخبيثة في كيانها .

(١) طه ١٢٣ - ١٢٤ .

مقتضى الإيمان أن يعرف المرء لنفسه حدوداً يقف عندها ، ومعالم ينتهي إليها .  
أما العيش من غير ضوابط ، والتمشى وراء النزوات المهاجنة دون تحفظ ولا تصوّن ،  
فليس ذلك سلوك المسلم ، ولا ما يُرتفب منه .

إنَّ الإيمان يُعطي أحکاماً صائبة ، وتقديرات جيّدة لكل ما يختلف علينا في الحياة  
من خسارة وربح ، وهزيمة ونصر ، ونجاح وفشل ، وصداقة وخصومة ..

وهو يهدى المؤمن إلى ما ينبغي فعله في هذه النواحي جميعاً .

ومع أنَّ تلك طبيعة الإيمان فإنَّ الله عزَّ وجلَّ نصب للناس علامات أخرى يهتدون  
بها بين الحين والحين ، حتى لا يشردوا عن الصراط المستقيم .

وذلك هي جُلُّ الأوامر والنواهى والوصايا التي حفل بها كتابه ، وعلّمنا إياها رسوله .  
إنها تعاليم تدفع بالسلوك في مجرى معين .

وتنفعه أن يسبع هنا وهناك ، كما تمنع الشيطان القائمة لجج الماء أن تسيل كيف شاء ..  
ولطبيعة الإنسان نزوات تطفو بها أحياناً وتطيش .

. والمخوف في هذه النزعات أن يسترسل المرء معها ، فإنَّ هذا الاسترسال يرمي به في  
مطاح لا يعود منها سالماً ، ولذلك قال « ابن المقفع » : ( المؤمن بخير ما لم يعش ،  
إذا عثر لجأ به العثار ) .

هذه اللجاجة خور في الإرادة ييسِّر الانهيار ، ويمنع التماسك ، ويجعل الرجل من  
القلق ريشة في مهب الرياح ..

ويرى « دليل كارتيجي » وجوب وضع حد أقصى للاضطراب الذي يعتري المرء  
عقب هذه العثرات المقلقة .

إنَّ الإنسان يخطيء حتماً ، فليست العصمة أملأَ له ، ولا طبعاً فيه .

وهو يعاني نتيجة ما يتورط فيه من أخطاء انفعالات مضطربة حمقاء .

وأفضل ما يصنع أن ينفض يديه كلّيّهما بما حدث ، وألا يدع اللجاجة تنتقل به  
من سوء إلى أسوأ ، ومن ظلال داكنة إلى ظلمات بعضها فوق بعض .

اجتهد ألا تسلك طريق ضلاله ، فإذا سلكته - تحت أي ضغط أو إغراء - فاجتهد  
ألا تُوغَل فيه .

وعُدْ من حيث جئت في أقرب فرصة ، وفي أسرع وقت ..

وقد تصاب بقارعة - كما تخيل - أو في نفس الأمر - فتهتز لوقعها ..  
ليَكُنْ ... بَيْدَ أَنْ من الرشد استعادة الثبات والهدوء ، واحتفاظ المتابع التي  
تنشأ حتماً من الإصرار على الضيق والسطخ .

إنَّ بعض الناس قد يصاب بشلل في مُخِّه إثر خسارة تصيبه ، أو غيظ يستفزه ،  
فهل ذلك دلالة إيمان أو شارة إحسان ؟ . كلا ، ولا هو آية رجولة كبيرة ..

قال « ديل كارنيجي » ( حدث في أثناء الحرب الأهلية الأمريكية عندما كان  
أصدقاء « لنكولن » يحملون حملات شعواء على أعدائهم أن قال « لنكولن »  
- مُهَدِّئاً - أتباعه : إن لديكم إحساساً بالغضب والثورة أكثر مما لدى ، وقد أكون خُلقت  
هكذا ، ولكنني لا أرى الغضب يجدي .

إنَّ المرء لا ينبغي أن يضيئ نصف حياته في المشاحنات ، ولو أنَّ أحداً من أعدائه  
انقطع عن مهاجمتي ما فكرت لحظة واحدة في عدائِه القديم لي ) .

وال المجال يضيق هنا عن سرد النصوص الناهية عن الشحناء والغضب والأمرة  
بالسامحة والصفح ، ابتعاد مثوبة الله ، واحتفاظاً بصفاء الحياة .

ماذا يُجدى التمشي مع مشاعر الغيظ والتشفي ؟ إنَّ خسائرنا أضعاف أرباحنا من  
هذه الاحتياجات الطائشة .

ولو استجبنا لهَدْيَ الإيمان لوفَّ علينا متابع جمَّةٌ نستريح من عبئها يقيناً يوم  
نستهدف مرضاه الله وإنفاذ وصاياه .

ولا بأس أن نذكر هنا قصة « تولستوي » الفيلسوف الروسي الكبير وخصامه مع زوجته .

تقول دائرة المعارف البريطانية عن هذا الأديب الكبير : ( إنه في خلال العشرين سنة  
الأخيرة من حياته كان أخلقَ رجال العالم بالتقدير والاحترام ، كان المعجبون به يحجُّون  
إلى بيته في سيل لا ينتهي ليتملأوا بطلعته ، ويشنفوا آذانهم بصوته ، بل ليتمتعوا  
أصحابهم بملمس مُسّوحه . كانت كل كلمة تخرج من فمه تُدوَّن في الصحف ، كما لو  
كانت نبوءة رسول . هكذا كانت حياته العامة . أمّا حياته الخاصة فإنَّ تصرفاته وهو  
شيخ في السبعين كانت أشدَّ حمقاً من تصرفات صبي في السابعة !! .

تزوج « تولستوي » من فتاة أحبها . وسعد الزوجان في بداية أمرهما ، إلا أنَّ  
الزوجة كانت غيوراً بطبعها ، حتى إنها اعتادت التخفّي في زى الفلاحات والتجسس  
على زوجها . وتفاقمت على مرّ الأيام غيرتها ، فإذا هي تغار على زوجها من بناتها !! ،  
وأنسكت مرّةً بندقية وأحدثت بها ثقباً في صورة ابنتها بدوافع العيرة !! .

فما الذي فعله رجلها ردًا على هذا؟ أنشأ يكتب مذكرات يلوم فيها زوجته ويحملها  
تبعة الشقاق الذي يغمر بيته .

إنَّه أراد أن تنصفه الأجيال القادمة وتصب اللوم كله على زوجته ، ولذلك عَكَفَ  
على الكتابة ضدَّها .

فماذا تُرِى فعلت زوجته ردًا على ذلك؟ مَرَقت جانبًا كبيرًا من هذه المذَّكرات  
وأحرقتها ، ثم أخذت تكتب مذَّكرات أخرى ترُدُّ على زوجها ، وتکيل له الصاع  
صاعيْن ، بل إنَّها كتبت في ذلك قصة بعنوان : « غلطة مَنْ!؟ » .

قال « ديل كارنيجي » : ( ما دوافع هذا كله ؟ ولماذا أحال هذان الزوجان منزلهما  
إلى ما يشبه مستشفى المجانين ؟ إنَّ هناك سببًا أصلِّاً لهذا البلاء ؛ هو رغبة الزوجين  
كلِّيهما في التأثير علينا نحن الأجيال التالية .

لقد أراد كل منهما أن ننصفه ، وأن نسخط على صاحبه فهل تظن أحدًا منا يهتمُّ  
أيَّهما كان المصيب ، وأيَّهما كان الخطيء ؟ كلا ، فأنا وأنت مشغولان بشئوننا  
الخاصة ، ولسنا نملك أن نضيئُّ دقَّيقَةً واحدةً في آل « تولستوي » الكرام .



فيما له من ثمن فادح دفعه هذان الزوجان . لقد قضيا خمسين عامًا في جحيم  
مقيم ، دون أن يُلْهِم أحدُهُما قوله « كفى » ، ودون أن يفطن أحدُهُما إلى وجوب تقدير  
الأشياء بقيمتها الحقيقية فيقول لشريكه : دعنا نضع حدًا لهذه الحال في التوْ  
واللحظة ، أتنا نُسَمِّ حياتنا من أجل توافقه لا قيمة لها ) .

إنَّ أولى هدايا الرياء إلى ذويه أنهم يُسلِّبون نعمة القرار ، وراحة البال !!  
وأنهم يُضَحِّون مصالحهم الخاصة ، وحاجاتهم الماسة في سبيل استرضاء المترفِّجين  
عليهم ، والناظرین إليهم .

وربما أخذ مثلو المسارح أجورًا كبيرة على الأدوار التي يقومون بها ، والروايات  
الضاحكة أو الباكيَّة التي يخرجونها !! .

أما أولئك المراءون - وهم ممثلون في غير مسرح - فإنَّهم يدفعون من أموالهم  
وسعادتهم ما يظلونه ثمنًا لاسترضاء الناس ونيل إعجابهم .

والناس قد يرمون هذه الأعمال ، وقد يعلّقون عليها بكلمات من أطراف شفافهم ،  
ولكنهم في صميم أنفسهم مشغولون بطالبيهم وماربِّهم .

وهي مطالب وما رأب تستغرق انتباهم ، ولا تترك بقية يفرح بها أولئك  
المراءون المستغفلون .

ولو أقبل المرء على ربه يستلهمه ويستعينه وحده لوفقه إلى ما يريح أعصابه ويزيج آلامه .  
وما يضع حداً أقصى لكدر الإنسان أن يقارن بين ما لديه من خير ، وما يحسه  
الألف من حرمان ، ولن تعدم - إذا فتحت عينيك بدقة - من تمتاز عليهم في نفسك  
ومالك ، ومن يرزحون تحت ضواائق هي أثقل مما ابتليت به .

وفي هذا يقول رسول الله : «انظروا إلى من أسفل منكم ، ولا تنظروا إلى من هو  
فوقكم ، فهو أجد رألاً تزدروها نعمة الله عليكم» .



ولا بد من لفت الأنظار إلى شيء . هو أن الإنسان قلماً يذكر نهاية حياته ، فهو إن  
سرّ أو حزن يبالغ في استصحاب هذه المشاعر وتوسيع نطاقها ، غير مفكر البتة في أنه  
سيفارقها يوماً إن لم تفارقه !! .

وقد كنتُ أميل إلى اعتبار الموت باطلًا لا يكترث به .

وأميل إلى التعلق بحياة لا يخترمها فناء .

ولكن ما الحيلة إذا كان الموت حقاً ، وإذا كان وقوعه الصارخ يفضي المجامع ويفرق  
الشمل وإن كرها ..

ألا ينبغي ذكر هذه الحقيقة ؟ إن ذكرها يضع حدوداً حاسمة لشتى أحوال الحمق  
والغرور والاستطالة التي تُطيش بالأilibاب .

سئل رسول الله ﷺ : أى المؤمنين أكياس ؟ قال : «أكثراهم للموت ذكرًا ،  
وأحسنهم لما بعده استعداداً» <sup>(١)</sup> . وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله مرّ بمجلس وهم  
يضحكون فقال : «أكثروا من ذكر هادم - قاطع - اللذات ، أحسبه قال - : فإنه ما  
ذكره أحد في ضيق من العيش إلا وسعة .. ولا في سعة إلا ضيقها عليه» <sup>(٢)</sup> .

فليس ذكر الموت لإفساد الحياة إساءة العمل فيها ، بل للتخفيف من غلوائها  
وكفففة الاعتراض بها .

إذا اعتدل التفكير فلن تتحول السعة إلى فوضى ، ولن يتتحول الضيق إلى سجن .



(٢) البزار .

(١) الطبراني .

## لا تبك على فائت

يقولون : « لا جديد تحت الشمس » ، وهذه الكلمة تصدق على سير الحياة الإنسانية في تاريخها الطويل ، من ناحية الطبع والرغبات ، والاختلاط والمنازعات ، والجُرْر والعدل ، والسلام وال الحرب ، وقيام الأم وانهيارها ، وازدهار الحضارات وانقراضها .

ولهذا الشبه الدائم في مواكب العمران المتواصل على ظهر الأرض ، والخصائص المتراثة بين الأخلاف والأسلاف أمر الله عباده أن يستعرضوا أحداث الماضي ليتفعوا بما فيها .

فإن ما يعني الأوَّلين يعني الآخرين ، وما نواجهه - دَهْشِين بِلَدَتِه - قد سبق به عهد ، وصدرت فيه أحكام .

وخيرٌ لنا أن نستصحب ما كان ، ونحن نعالج ما يكون . والله عز وجل يقول :

﴿ فَاعْتَرِرْ وَأَيَاً وَلِيَ الْأَبْصِرِ ﴾<sup>(١)</sup>

والبصر الذي ينفذ في أعماق الماضي يستقرئ أنباءه ، ويتعرف موعظه ، ويتزود من تجارب السابقين بذُرْرِ يجنِّبهُ الزلل ، هو البصر المؤمن الحصيف .

وفي هذا يقول الحق جل اسمه : « أَفَلَمْ يَسِيرُ وَأَفِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ إِذَا نَسِمُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْقِلُ الْأَبْصَرُ وَلَكِنْ تَعْقِلُ الْقُلُوبُ أَلَّا فِي الْأَصْدُورِ ﴾<sup>(٢)</sup>

وفي القرآن الكريم قصص كثيرة خلَدَ الله فيهم أحوال القرون الغابرة ، ومصائر الأتقياء والفحار ، وصراع الخير والشر ، ووضع ذلك كلَّه بين أيدينا لنتوسَّم ونتدبَّر :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولَئِكَ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرِي وَلَكِنْ تَصَدِّيَقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدَى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾<sup>(٣)</sup>

• (٢) يوسف : ٤٦ .

• (٣) الحشر : ٢ .

فى هذه الحدود المبيّنة يجب أن ندرس الماضي .

وابتغاء العظة المجردة وحدها يصح أن نلتفت إلى الوراء .

أما العودة إلى الأمس القريب أو البعيد لنجد حزناً ، أو ننكمأ جرحاً ، أو ندور حول مأساة حزّت في نفوسنا لقوله : « لَيْتَ ، وَلَوْ » فإنّ هذا ما يكرهه الإسلام وينفرّ من التردّي فيه ، بل إنّ هذا كان دين الحيارى والمرتدّين من المنافقين ومرضى القلوب :

﴿ يُخْفِونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يُبَدِّلُونَ لَكُمْ يَقُولُونَ  
لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرَ شَيْءٌ مَا قَاتَلَنَا هُنَّا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ  
الَّذِينَ كَيْبَ عَلَيْهِمْ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ﴾ (١) ١١

﴿ الَّذِينَ قَاتَلُوا إِلَيْهِنَّا وَقَعَدُوا  
لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَاتَلُوا قُلْ فَادْرُءُوهُنَّا عَنْ أَنفُسِكُمْ وَالْمُؤْتَ إِنْ كُنُتمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢)

وهذه التأوهات المنكسرة ، والتحسّرات المفجوعة سيطرت على ضعفاء الإيمان بعد غزوة ( أحد ) ، فإنّ الخسائر التي أصابت أهل المدينة بعد هجوم المشركين عليها خلّفت آثاراً غائرة ، وفتحت أمام الحاقدين على الإسلام ثغرات للتشفي واللّمّز .

لكن الله عزّ وجلّ أنزل آيات مفصّلة في مداواة هذه الجراح ولمّ شمل المسلمين عقب النكبة التي أصابتهم ، فكان من تأديبه لهم أن علق عيونهم بالمستقبل ، وصرف أذهانهم عن الماضي ، وزجرهم عن الوقوف بأطلال الأمس يبكون ويولولون .

لا ، ليست هذه شيمة الرجلة ، ولا منطق الإيمان ، يجب أن نتعرّف سرّ الخطأ للتّقيّه في المستقبل ، ولن ننظر فيما وقع إلا بقدر ما نستخلص العبرة منه ، وذاك ما تكفل به القرآن الكريم ، فقد أشار إلى علة الهزيمة في إيجاز :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَشَلْتُمْ وَتَنْزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَكُمْ مَا تَحْبُّونَ ﴾ (٣)  
﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ وَيَوْمَ أَنْتَقَ الْجَمْعَانِ إِنَّمَا أَسْتَرْهُمُ الشَّيْطَانُ إِنْ يَعْضِ  
مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ (٤)

(١) آل عمران : ١٥٤ .

(٢) آل عمران : ١٦٨ .

(٣) آل عمران : ١٥٢ .

(٤) آل عمران : ١٥٥ .

ثم واساهم بما يهون وقع الألم عليهم ، فإنَّ الألم إذا قيَّد النفوس بسلالله الغلاظ ربُطها في زمِنٍ يتحرَّك ، فلم تحسن شيئاً ، ولم تكسب خيراً .

ما قيمة لطمُ الخدود ، وشقُ الجيوب على حظٍ فات أو غُرم نابَ ؟ .

ما قيمة أن ينجذب المرء بأفكاره ومشاعره إلى حدَثٍ طوأه الزمن ليزيد ألمه حُرقةً وقلبه لذعاً !؟ .

لو أنَّ أيدينا يمكنها أن تتدَّى إلى الماضي لتمسُك حوادثه المُذبحة ، فتغييرٌ منها ما تكره ، وتحوّرها على ما تحب ؛ وكانت العودة إلى الماضي واجبة ، ولهمنا جميغاً إليه ، نحو ما ندمنا على فعله ، ونضاعف ما قلَّتْ أنصبتنا منه .

أما وذلك مستحيل فخيارٌ لنا أن نكرّس الجهود لما نستأنف من أيام وليلٍ ، وفيها وحدها العِوض .

إنَّ المرء ليس متَهِماً في حرصه على مصلحته ، فإذا ضاعت هذه المصلحة لسبب ما ، خصوصاً تلك التي تتصل بالأجال والأرزاق ، فلنجعل من إيماننا بالله وقدره ما يحرجنا عن التعلق بالأوهام والحماقات .

وهذا ما نبه إليه القرآن الكريم بعد (أحد) ؛ قال للباكيين على القتلى ، النادمين على الخروج للميدان : لو بقيتم في بيوتكم ما طالت لكم حياة ولا امتدَّ أجل :

﴿ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرَ شَيْءٌ مَا قَاتَلَنَا هُنَّا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزََ  
الَّذِينَ كُثِّبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ﴾ (١)

فعلمَ هذا النعيب المسحوق ؟! إن الطائرة تسقط من الجوَّ بما فيها ومنْ فيها ، فإذا القدر الرائع يتكشف عن جثث محترقة ، وعنأطفال ورجال لم يمسسُهم سوء !! فلماذا لا نعرف بالقدر الأعلى فيما يقع ؟ . ونرد عليه ما يغلبنا على أمرنا ليكون من ذلك سلوى ورضاءً ! .

إن « دليل كارنيجي » يلْجأ إلى العقل ليصل بنا إلى هذه الغاية فيقول :

( من الممكن أن تحاول تعديل النتائج التي ترتبت على أمر حدث منذ ١٨٠ ثانية ، أمّا أن تحاول تغيير الزمن فهذا هو الذي لا يعقل . وليس ثمة إلا طريقة واحدة يمكن

(١) آل عمران : ١٥٤ .

بوساطتها أن تصبح الأحداث الماضية إنشائية مُجْدِية . تلك هي تحليل الأخطاء التي وقعت في الماضي والاستفادة منها ثم نسيانها نسياناً تماماً .

أنا أؤمن بهذا ، ولكن هل تُراني أملك الشجاعة دائمًا لأفعل ما أؤمن به؟! ثم قال : حَدَّثَنِي « سوندرز » أن مُسْتَر « برايندوين » مدرس الصحة بكلية « جورج واشنطن » عَلِمَه درسًا لن ينساه أبداً ، ثم قصّ على قصة هذا الدرس فقال : لم أكن بعُدْ قد بلغت العشرين من عمرِي ، ولكني كنت شديد القلق حتى في تلك الفترة المبكرة من حياتي ، فقد اعتدتُ أن أجترّ أخطائي ، وأهتم لها همّاً بالغاً . وكنت إذا فرغتُ من أداء امتحان وقدّمتُ أوراق الإجابة ، أعودُ إلى فراشي فأستلقى عليه ، وأذهب أفرض أظافري وأنا في أشد حالات القلق خشية الرسوب ، لقد كنت أعيش في الماضي وفيما صنته فيه ، وأود لو أتنى صنعت غير ما صنعت ، وأفكر فيما قلته من زمن مضى ، وأود لو أتنى قلتُ غير ما قلت .

ثم إنني في ذات صباح ضمّنَى الفصل وزملائي الطلبة ، وبعد قليل دلف المدرس (مسُتَر برايندوين) ومعه زجاجة ملوءة باللبن وضعها أمامه على المكتب . وتعلقت أبصارنا بهذه الزجاجة ، وانطلقت خواطernَا تتساءل : ما صلة اللبن بدروس الصحة؟ وفجأة نهض المدرس ضاربًا زجاجة اللبن بظهر يده فإذا هي تقع على الأرض ويُراق ما فيها ، وهنا صاح مُسْتَر (برايندوين) : لا يبكي أحدكم على اللبن المراق . ثم نادانا الأستاذ واحداً واحداً لتأمل الحطام المتاثر والسائل المسكوب على الأرض ، ثم جعل يقول لكلّ منا : انظر جيداً إنني أريد أن تذكر هذا الدرس مدى حياتك ، لقد ذهب اللبن واستوعبته البالوعة ، فمهما تشدّ شعرك ، وتسمح للهمّ والنّكـد أن يمسـكا بخناقـك فلن تستعيد منه قطرة واحدة . لقد كان يمكن بشيء من الحيلة والخذر أن تتفـلـي هذه الخـسـارـة . ولكن فـاتـ الـوقـتـ ، وكلـ ما نـسـطـيـعـهـ أنـ نـحـوـ أـثـرـهـاـ وـنـسـاـهـاـ ثـمـ نـعـودـ إـلـىـ الـعـلـمـ بـهـمـةـ وـنـشـاطـ ) .

### ٣٣٣٣٣٣

ذلك حق ، وإليه يشير الحديث الشريف : « استعن بالله . ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أتنى فعلت كذا كان كذا وكذا . ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان ». .

وبهذا نُعْفِي على الماضي ، ونستأنف المسير في نشاط ورجاء .

# حياتك من صنع أفكارك

سعادة الإنسان أو شقاوته أو قلقه أو سكينته تنبع من نفسه وحدها .

إنه هو الذي يُعطي الحياة لونها البهيج ، أو المقبض ، كما يتلوّن السائل بلون الإناء الذي يحتويه : « فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط »<sup>(١)</sup> .

عاد النبي ﷺ أعرابياً مريضاً يتلوّن من شدة الحمى ، فقال له مواسياً ومشجعاً : « طهور » ، فقال الأعرابيُّ : بل هي حمى تفور ، على شيخ كبير ، لتورده القبور . قال : « فهي إذن »<sup>(٢)</sup> .

يعنى أن الأمر يخضع للاعتبار الشخصى ، فإن شئت جعلتها تطهيراً ورضيت ، وإن شئت جعلتها هلاكاً وسخطت .

إن العمل الواحد بما يصاحبه من حال نفسى يتغير تقديره تغييرًا كبيراً .

وانظر إلى هاتين الآيتين وما تبرزانه من صفات الناس :

﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْقُقُ مَعْرِمًا وَيَرْبَصُ بِكُمُ الدَّوَارَ  
عَلَيْهِمْ دَأْرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَيَمِعُ عَلَيْهِمْ ﴾

﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْقُقُ وَرَبَّتِ  
عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتُ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ ﴾<sup>(٣)</sup>

هؤلاء وأولئك يدفعون المال المطلوب .

هؤلاء يتّخذونه غرامة مؤذية مكرهه ، ويتمنّون العنت لقاضيه .

وأولئك يتّخذونه زكاة محبوبة تطيب النفس بأدائها ، وتطلب الدعاء الصالح بعد إيتائها .

وشئون الحياة كلها لا تعدو هذا النطاق .

(٣) التوبة : ٩٨ - ٩٩ .

(٤) البخاري .

(٥) الترمذى .

قيمة العمل ، بل قيمة صاحب العمل ترتبط ارتباطاً وثيقاً بحقيقة الأفكار التي تدور في الذهن ، والمشاعر التي تعتمل في النفس ، قال « ديل كارنيجي » : ( إنَّ أفكارنا هي التي تصنعنا ، واتجاهنا الذهني هو العامل الأول في تقرير مصائرنا ، ولذلك يتساءل « إيمeson » : نبئنى ما يدور في ذهن الرجل أبىتك أىَّ رجل هو . نعم ، فكيف يكون الرجل شيئاً آخر غير ما يدل عليه تفكيره ؟ واعتقادى الجازم أنَّ المشكلة التي تواجهنا هي : كيف نختار الأفكار الصائبة السديدة ؟ فإذا انحلَّت هذه المشكلة انحلَّت بعدها سائر مشكلاتنا واحدة إثر أخرى . قال الإمبراطور الرومانى « ماركوس أورليوس » : إن حياتنا من صنع أفكارنا .

فإذا نحن ساورتنا أفكار سعيدة كنا سعداء ، وإذا تملكتنا أفكار شقية غداناً أشقياء ، وإذا خامرنا أفكار مزعجة تحولنا خائفين جبناء ، وإذا تغلبتْ علينا هوا جنس السقم والمرض فالغلب أن نبيت مرضي سقام ، وهكذا ) .

### ٣٣٣٣٣

إن أحداً لا يستطيع إنكار ما للروح المعنى من أثر باهر لدى الأفراد والجماعات .

فالجيوش التي يَحْسُن بلاؤها وتعظم بسالتها إنما تستمد طول مقاومتها من رسوخ العقيدة وقوة الصبر ، أكثر مما تستمد من وفرة السلاح والعتاد .

فذخيرة الْخُلُقِ المتيين والمسلك العالى أجدى على أصحابها وأكسب للنصر من أى شيء آخر .

والرجل الذى تربى ثقته بنفسه لا يشنِّل إقدامه على الحياة نقصٌ فى بدنـه ، أو عَنْتَ فى ظروفـه ، بل قد يكون ذلك مثار نشاطـه ، وشدة شـكيمـته ، كما قال الشاعـر :

لـه بالخـصال الصـالـحـات وـصـوـلـ	إـنـ لـاـ يـكـنـ عـظـمـى طـوـيـلاـ فـإـنـى
بعـارـفـةـ حـتـىـ يـقـالـ :	إـذـ كـنـتـ فـىـ الـقـومـ الطـوـالـ عـلـوـتـهـمـ

والحقُّ أَنَّ مركَب النقص قد يكون خيراً وبركة إذا حفز إلى التكميل وَحدَّا إلى المجد .

وهو إنما يُدْمَدُ ويُستكرَه إذا التوى بالإنسان وجعله يجنح إلى الرياء والتظاهر الكاذب ، ومواراة عيوبه بالادعاء والخدعـةـ .

إنَّ الأَهْوَالُ النُّفْسِيَّةُ الْحَيَّةُ تَجْعَلُ الْقَلِيلَ كَثِيرًا ، وَالْوَاحِدَ أَمْمَةً .  
وَإِلَى هَذِهِ الأَهْوَالِ - كَمَا وَكَيْفًا - يَرْتَدُ مُسْتَقْبَلُ الْإِنْسَانِ ، وَتَأْخُذُ حَيَاتَهُ مَجْرَاهَا .  
وَالنُّفْسُ وَحْدَهَا هِيَ مَصْدَرُ السُّلُوكِ وَالتَّوْجِيهِ حَسْبَ مَا يَغْمُرُهَا مِنْ أَفْكَارٍ ،  
وَيَصْبِغُهَا مِنْ عَوَاطِفٍ .

إنَّ الإِنْسَانَ عِنْدَمَا يَرْتَفِعُ عَنْ سطحِ الْأَرْضِ تَتَغَيَّرُ الأَشْكَالُ وَالْأَحْجَامُ فِي عَيْنِهِ ،  
وَتَكُونُ نَظَرَتِهِ إِلَى مَا دُونَهُ أَوْسَعَ مَدْيَ وَأَرْحَبَ أَفْقًا .  
وَهُوَ هُولَمُ يَتَغَيَّرُ .

كذلك ارتفاع الإنسان في مدارج الارتقاء الثقافي والكمال الخلقي .  
إنه يغير كثيراً من أفكاره وأحساسه .

ويبدل أحكامه على كثير من الأشخاص والأشياء .

والمرء فى طور الصبا غيره فى طور الرجولة ، وهو فى طور الشباب غيره فى طور الكهولة .

ونحن نستطيع أن نصنع من أنفسنا مُثلاً رائعة إذا أردنا .

وبالإضافة إلى ذلك تجديد أفكارنا ومشاعرنا ، كما تتجدد الرقعة من الصحراء إذا  
انضاف إليها مقدار ضخم من المخصبات والمياه .

إننا نتحول أشخاصاً آخرين كما تتحول هذه الصحراء القاحلة روضة غناء .

۳۳۳۳

تجاربك ، وكما يفكر المرء يكون ، فمتى أدركتَ ذلك يا بني ، فعد إلى بيتك وأهلك ، لأنك يومئذ تكون قد شفيت !! ) .

قال الشاب : ( هاجنـى هذا الخطاب ، وبلغـى الغضـب حـدـاً قـرـرتُ مـعـه أـلـأـعـود إـلـى بـيـتـى وـأـهـلـى ، قال : وـفـى تـلـكـ اللـيـلـةـ وـبـيـنـمـا كـنـتـ أـذـرـعـ إـحـدى الشـوـارـعـ ، وـجـدـتـ كـنـيـسـةـ فـى طـرـيقـى تـقـامـ فـيـهـا الصـلـاـةـ ، وـلـمـ تـكـنـ لـى وـجـهـةـ مـعـيـنـةـ ، فـقـدـ دـلـفـتـ إـلـيـهـ لـأـسـتـمـعـ إـلـى المـوـعـظـةـ الـدـيـنـيـةـ التـىـ تـلـقـىـ ، كـانـ عـنـوانـ الـعـظـةـ : «ـ هـذـاـ الـذـىـ يـقـهـرـ نـفـسـهـ ، أـعـظـمـ مـنـ ذـاكـ الـذـىـ يـفـتحـ مـدـيـنـةـ »ـ .

وكأنـاـ كانـ جـلوـسـىـ فـىـ مـعـبـدـ مـنـ مـعـابـدـ اللهـ ، وـإـنـصـاتـىـ إـلـىـ الـأـفـكـارـ التـىـ تـضـمـنـهـاـ خـطـابـ أـبـىـ تـقـالـ بـصـيـغـةـ أـخـرىـ مـحـاـةـ مـسـحـتـ الـاضـطـرـابـ الـذـىـ يـطـغـىـ عـلـىـ عـقـلـىـ ، وـوـسـعـنـىـ فـىـ تـلـكـ الـلـحـظـةـ أـنـ أـفـكـرـ تـفـكـيرـاـ مـتـزـنـاـ فـىـ حـيـاتـىـ ، وـهـالـنـىـ إـذـ ذـاكـ أـنـ أـرـىـ نـفـسـىـ عـلـىـ حـقـيقـتـهـاـ ، نـعـمـ ؟ـ لـقـدـ رـأـيـتـنـىـ أـرـيدـ أـنـ أـغـيـرـ الـدـنـيـاـ وـمـاـ عـلـيـهـ ، فـىـ حـيـنـ أـنـ الشـىـءـ الـوـحـيدـ الـذـىـ كـانـ فـىـ أـشـدـ الـحـاجـةـ إـلـىـ التـغـيـرـ هـوـ تـفـكـيرـىـ وـاتـجـاهـ ذـهـنـىـ .ـ هـوـ نـفـسـىـ )ـ .

### ٣٣٣٣٣٣

ومـاـ كـتـبـهـ «ـ كـارـنـيـجـىـ »ـ كـتـبـنـاـ مـثـلـهـ فـىـ مـؤـلـفـنـاـ «ـ خـلـقـ الـمـسـلـمـ »ـ وـنـوـهـنـاـ فـيـهـ بـهـذـهـ الـحـقـيقـةـ ، قـلـنـاـ :ـ (ـ الإـسـلـامـ -ـ كـسـائـرـ رسـالـاتـ السـمـاءـ -ـ يـعـتمـدـ فـىـ إـصـلـاحـهـ الـعـامـ عـلـىـ تـهـذـيـبـ النـفـسـ الـإـنـسـانـيـةـ قـبـلـ كـلـ شـىـءـ ،ـ فـهـوـ يـصـرـفـ جـهـودـاـ ضـخـمـةـ لـلـتـغـلـلـ فـىـ أـعـماـقـهـ ،ـ وـغـرـسـ تـعـالـيمـهـ فـىـ جـوـهـرـهـاـ حـتـىـ يـسـتـحـيلـ جـزـءـاـ مـنـهـاـ .ـ

ومـاـ خـلـدـتـ رسـالـاتـ النـبـيـينـ وـكـوـنـتـ حـولـهـاـ جـمـاهـيرـ الـمـؤـمـنـينـ إـلـاـ لـأـنـ «ـ النـفـسـ الـإـنـسـانـيـةـ »ـ كـانـتـ مـوـضـعـ عـمـلـهـاـ ،ـ وـمـحـورـ نـشـاطـهـاـ ،ـ فـلـمـ تـكـنـ تـعـالـيمـهـمـ قـشـورـاـ مـلـصـقةـ فـتـسـقـطـ فـىـ مـضـطـرـبـ الـحـيـاةـ الـمـتـحـرـكـةـ ،ـ وـلـاـ أـلـوـانـاـ مـفـتـلـةـ تـبـهـتـ عـلـىـ مـرـ الـأـيـامـ .ـ لـاـ ..ـ لـقـدـ خـلـطـواـ مـبـادـئـهـمـ بـطـوـاـيـاـ النـفـسـ ،ـ فـأـصـبـحـتـ هـذـهـ الـمـبـادـئـ قـوـةـ تـهـيـمـنـ عـلـىـ وـسـاوـسـ الـطـبـيـعـةـ الـبـشـرـيـةـ ،ـ وـتـحـكـمـ فـىـ اـتـجـاهـاتـهـاـ .ـ

وـرـبـاـ تـحـدـثـتـ رسـالـاتـ السـمـاءـ عـنـ الـمـجـتمـعـ وـأـوـضـاعـهـ ،ـ وـالـحـكـمـ وـأـنـوـاعـهـ ،ـ وـقـدـمـتـ أـدوـيـةـ لـمـاـ يـعـرـوـ هـذـهـ النـوـاـحـىـ مـنـ عـلـلـ .ـ

ومع ذلك فالآديان لن تخرج عن طبيعتها في اعتبار النفس الصالحة هي البرنامج المفضل للكل إصلاح ، والخلق القوى هو الضمان الخالد لكل حضارة . وليس في هذا تهويٌ ولا غضٌ من عمل الساعين لبناء المجتمع والدولة .

بل هو تنويه بقيمة الإصلاح النفسي في صيانة الحياة وإسعاد الأحياء .

فالنفس المختلة تشير الفوضى في أحكام النظم ، و تستطيع النفاذ منه إلى أغراضها الدنيئة . والنفس الكريمة ترقع الفتوق في الأحوال المختلة ، و يُشرق نُبلها من داخلها ، فتحسن التصرف والمسير وسط الأنواء والأعاصير .

إنَّ القاضي النزيه يكمل بعدله نقص القانون الذي يحكم به ، أما القاضي الجائر فهو يستطع الميل بالنصوص المستقيمة . وكذلك نفس الإنسان حين تواجه ما في الدنيا من تيارات وأفكار ، ورغبات ومصالح .

ومن هنا كان الإصلاح النفسي الداعمة الأولى لتغلب الخير في هذه الحياة . فإذا لم تصلح النفس أظلمت الآفاق ، وسادت الفتنة حاضر الناس ومستقبلهم ، ولذلك يقول الله تعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَلَذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَامَرَهُ وَمَا هُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٰ﴾<sup>(١)</sup>

ويقول معللاً هلاك الأمم الفاسدة . ﴿كَذَبُ الْأَلْفَارِقُونَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخْذَهُمُ اللَّهُ بِذُوبَهِمْ فِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌ شَدِيدُ الْعِقَابِ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُنْ مُغَيِّرًا نَفْثَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾<sup>(٢)</sup>



ويريد الله عزوجل أن يبيّن لنا الصلة الوثيقة بين صفاء النفس وصفاء العيش وبين جمال الخلائق وجمال الحياة ، فأكّد لنا أنّ بركته الشاملة تتنزّل أماناً على المؤمنين ، وبراً وفضلاً على الأتقياء والمحسنين ، فقال :

(٢) الأنفال : ٥٢ - ٥٣ .

(١) الرعد : ١١ .

﴿ وَلَوْاَنَّ أَهْلَ الْقُرْبَىَّ امْنَوْا وَاتَّقُوا لَفَخْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾<sup>(۱)</sup>

وذكر أنه أنزل الهزيمة والخزي بقوم من الغزا :

﴿ خَرَجُوا مِن دِيَرِهِمْ بَطَرًا وَرَأَءَ الْتَّاسِ وَيَصْدُونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾<sup>(۲)</sup>

ثم بعد أن وقع عليهم العقاب فتح لهم منافذ الرجاء إلى مستقبل أكرم ، ولكن كرامته رهن بتغيير قلوبهم ، وانتقالها عن خلال البطر والاستعلاء إلى خلال التواضع

والمراحمة والعدالة ، فقال : ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيهِمْ كُمْ مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِنْ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَخَيْرًا يُؤْتِنَكُمْ وَخَيْرًا مَمَّا أَخِذْ مِنْكُمْ وَيَغْفِرُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾<sup>(۳)</sup>

والتربيـة الإسلامية الأولى أوغـلت إلى حد هائل في دراسـة النفـوس وأحوالـها ، والقلـوب وأطـوارـها ، مـستهدـفة في هذه الـدراسـة جـعل السـعادـة العـظمـى تـبعـ من دـاخـل الإـنسـان لاـ من خـارـجه ، ومـعـرـية المـرـء أـن يـرـتـقـبـ في آـفـاقـ نـفـسـهـ وـحـدـهاـ كـواـكـبـ الـيـمـنـ وـالـإـقـبـالـ وـالـرـضـوانـ . فإذا طـلـعـتـ - بـعـد طـولـ الـرـياـضـةـ وـالـتجـرـدـ وـصـدـقـ الـيـمـنـ وـالـإـخـلاـصـ - فـهـيـهـاتـ أـن يـدـركـ شـعـاعـهاـ أـفـولـ .

وعـنـدـما يـصـلـ السـالـكـونـ إـلـىـ هـذـاـ الشـأـوـ ، يـقـولـونـ : نـحنـ فـىـ لـذـةـ لـوـ عـرـفـهـاـ الـلـوـكـ لـقـاتـلـونـاـ عـلـيـهـاـ بـالـسـيـوـفـ !! .

بـيـدـ أـنـ هـذـهـ الـرـياـضـاتـ النـفـسـيـةـ ، وـمـاـ يـنـشـدـ مـنـهـاـ ، أـصـابـهـاـ مـنـ التـطـرـفـ وـالـفـوـضـيـ مـا أـزـرـىـ بـنـتـائـجـهـاـ .

إـذـ أـنـ مـتـصـوـفـةـ الـسـلـمـينـ الـأـوـلـ اـنـحـصـرـوـاـ فـيـ نـطـاقـ تـصـوـرـاتـهـمـ ، وـغـالـلـوـ بـالـنـتـائـجـ الشـخـصـيـةـ التـىـ أـحـرـزـوـهـاـ ، وـحاـولـوـاـ أـنـ يـنـظـرـوـاـ مـنـ خـالـلـهـاـ إـلـىـ حـقـائقـ الـكـونـ وـالـحـيـاةـ الـطـبـيـعـيـةـ فـضـلـوـاـ وـأـصـلـوـاـ ..

وـالـفـرـقـ بـيـنـ التـصـوـفـ الـإـسـلـامـيـ وـالـتصـوـفـ الـأـمـرـيـكـيـ يـظـهـرـ مـنـ ذـكـرـ هـذـهـ الـحـكاـيـةـ التـىـ أـثـبـتـهـاـ «ـدـيـلـ كـارـنيـجـىـ»ـ لـلـسـيـدـةـ «ـمـارـىـ بـيـكـرـ إـلـدىـ»ـ مـؤـسـسـةـ مـاـ سـمـمـاـهـ «ـالـعـلـمـ الـمـسـيـحـىـ»ـ .

(۱) الأعراف : ۹۶ . الأنفال : ۴۷ .

(۲) الأعراف : ۹۶ . الأنفال : ۷۰ .

هذه السيدة لم تكن تعلم من شئون الحياة إلا الفقر والجوع والمرض ، فقد مات زوجها بعد وقت قصير من قرانهما ، وهجرها زوجها الثاني هارباً مع امرأة أخرى ، ثم وجد بعدها ميتاً في منزل حقير .

وكان لها ولد واحد .. لكنها ألغت نفسها مدفوعة بالفاقة والمرض إلى التخلّي عنه حين بلغ الرابعة من عمره .

ثم فقدت كل أثر له بعد ذلك ، فلم تره مدة واحد وثلاثين عاماً .

ولما كانت السيدة « إيدى » عليلة على الدوام فقد انساقت إلى الاهتمام بفكرة « العلاج بقوّة العقل » .

وقد وقعت نقطة التحول في حياتها وهي ببلدة « لين » ، فبينما كانت تحبوب طرقات البلدة ذات يوم إذ زلت قدمها فسقطت على الإفريز المكسو بالجليد ، ثم ذهبت في إغماء طويل ، وأصيبت من جراء سقطتها هذه إصابة بالغة في عمودها الفقري ، وتوقع لها الأطباء إما الموت العاجل ، وإما الشلل التام طول حياتها ..

وبينما المرأة راقدة في فراش المرض فتحت الكتاب المقدس ، وألهمتها العناية الإلهية - كما عبرت هي - أن تقرأ هذه الكلمات من إنجيل متى : ( وإذا مفلوج يقدمونه إليه - تعنى عيسى عليه السلام - مطروحاً على فراش ، حينئذ قال للمفلوج : قمْ احمل فراشك وادهب إلى بيتك ، فنهض وغادر المكان ) .

قالت « ماري بيكر » : إن هذه الكلمات أمدّتها بقوّة وإيمان وفورة داخلية ، حتى أنها نهضت من الفراش وتنشت في الغرفة !! ومهّدت هذه التجربة الطريق للسيدة المشلولة كى تشفى نفسها وتسوق العافية للأخرين .

قال « ديل كارنيجي » ( تلك هي التجربة التي مكنت « ماري بيكر إيدى » من أن تصبح مبشرة بدين جديد ، لعله الدين الوحيد الذي بشرت به امرأة !! ) .

ونحن غيل إلى تصديق هذه الأقصوصة الطريفة ، بل غيل إلى تصديق الخوارق التي تحكيها الصحف عن فقراء الهند ، فإن القوى النفسية الطامحة تصنع العجائب . ولمن شاء أن يهز كتفيه استخفافاً ، فليس يتعلق بتصديق هذه الروايات إيمان ولا كفران .

غاية ما نلفتُ النظر إليه أن هذه الحوادث يجب أن تُحصر في النطاق الفردي المغض ، فلا يحاول أحد أن يجعل منها قانوناً مادياً عاماً .

والأمريكان الذين وقعت بينهم تلك القصة لم يتجاوزوا تلك الحدود ، ولم يحاولوا نقلها إلى معامل الذرة أو ساحات المصانع وميادين الإنتاج .

أما الذى حدث فى بلادنا منذ قرون فعلى العكس من ذلك تماماً .  
إذ تحولت هذه الخوارق النفسية إلى وباء اجتاح القرى والمدن .

فما يكاد يمر يوم حتى تضيف « الروايات » خارقاً لرجل ماجن أو ماجد ، وكرامة لولى صالح أو داهية خبيث .

واتسعت دائرة الأساطير ، فإذا هى تنتقل إلى ميادين التجارة والصناعة والعلم والبحث .

بل لقد انتقلت إلى ميادين الحرب والسياسة ، فعندما حارب الخديوى إسماعيل الحبشة وأحسَّ ملاقته حملاته هناك من خيبة ، أمر علماء الأزهر أن يجتمعوا فى صحفه ليقرأوا : « صحيح البخارى » !! .

كأن تلاوة السنة كلُّها أو القرآن كلُّه تردُّ الهزائم عن الفرق المدببة لسوء خطتها أو ضعف عدُّتها !! .

إن امرأة تتلو سطوراً من إنجيل « متى » فتشفى - كما يحكى الأمريكان - لا يجوز أن يتحول أمرها إلى لغط حول سنن الله فى كونه ، كما حدث لأمثالها فى بلادنا ، إذ تحولت هذه الخوارق النفسية الخاصة إلى هجوم شامل على حقائق الكون والحياة !! .  
ذلك أن الأنظار والأحكام يمكن أن تتفاوت تفاوتاً واسعاً في الحالات الاعتبارية البحتة ، ويمكن أن تزيد قواك أو تنقص بعما فى نفسك من همة ونشاط وإقبال .  
أما قوانين المادة العتيدة فهى لاتماع وفق الأهواء والميول .

وفى هذه الحدود نفهم قول « جمس آلن » .

( دَعْ إِنْسَانًا يَغْيِرُ اتِّجَاهَ أَفْكَارِه ، وَسُوفَ تَتَمَلَّكُ الدَّهْشَةَ لِسُرْعَةِ التَّحْوُلِ الَّذِي يَحْدُثُهُ هَذَا التَّغْيِيرُ فِي جَوَانِبِ حَيَاتِهِ الْمُتَعَدِّدَةِ . إِنَّ الْقَدْرَةَ الْإِلَهِيَّةَ الَّتِي تَكَيِّفُ مَصَائِرُنَا ، مُوَدِّعَةٌ فِي أَنفُسِنَا ، بَلْ هِيَ أَنفُسُنَا ذَاتُهَا !! .

وكل ما يصنعه المرء هو نتيجة مباشرة لما يدور فى فكره ، فكما أن المرء ينهض على قدميه وينشط وينتتج بدافع من أفكاره ، كذلك يمرض ويشفى بدافع من أفكاره أيضاً) .

من أمد بعيد وأنا أكتب للإسلام وأخطب وأجوب  
أرجاء الدنيا ، والجماعة التي عشتُ فيها حقبة من الدهر  
تعلم ذلك عنى . ولم تكن خطابتي بسْطة لسان يهدى  
بالقول ، ولم تكن كتاباتي سَطوة قلم يصوّل ويتجول ،  
بل كان ذلك كله ذوب عاطفة تضطرّم بالإخلاص ،  
وفكر يستكشف صميم الحق ويبادر إلى إعلانه .

محمد الغزالى

## الثمن الباهظ للقصاص

إحساس المرء بع祌ة نفسه ، ورسوخ قدمه ، وحصانة عرضه ضد المفتريات وإحساسه بتفاهة خصومه أو عجزهم عن النيل منه ، أو قدرته على البطش بهم ، كل ذلك يجعله بارد الأعصاب إذا أهين ، بطئ الغضب إذا أسى إليه .

والغالب أن الإنسان يتغير ، ثم يغتاظ ، ثم تنفجر ثورته إذا اقتحمت نفسه ، كما يقتحم العدو بلداً سقط في قبضته وأعلن الاستسلام .

أما إذا أيقن أن عدوه يحاول المستحيل باستفزازه ، وأنه مهما بذل فلن يجرمه ، فإن هذه الطمأنينة تجعله يتلقى الضربات بهدوء ، أو بابتسام ، أو بسخرية .

ودعمًا لهذه الحقيقة نسوق شاهدين : أحدهما ذكره « ديل كارنيجي » ، والآخر ذكرته في كتابي « خلق المسلم » وكلا الشاهدين يصدق الآخر ويزكيه . قال « ديل كارنيجي » : ( نصبنا مُخيّماً ذات ليلة تجاه حرش متكافف الأشجار ، وفجأة بрез لنا وحش الغاب الخيف : الدب الأسود . وتسلل الدب إلى ظلال الضوء المنبعث من معسكرنا ، وراح يلتهم بقايا طعام يبدو أنّ خدم أحد الفنادق المقامة في أطراف الغابة ألقاها هناك ... وفي ذلك الوقت كان « الماجور مانتريل » - أحد رواد الغابات المغامرين - يمتنى صهوة جواده ، ويقصّ علينا أتعجب القصص عن الدببة ، فكان مما قاله : إنّ الدب الأسود يسعه أن يقهر أي حيوان آخر يعيش في العالم الغربي باستثناء الثور على وجه الاحتمال .

غير أنّ لاحظتُ في تلك الليلة أن حيواناً ضئيلاً ضعيفاً استطاع أن يخرج من مكمنه في الغابة وأن يواجه الدبَّ غير هياب . ولا وجِل .

بل أن يشاركه الطعام أيضاً ، ذلك هو « النمس » .

ولا ريب أنَّ الدبَّ يعلم أن ضربة واحدة من مخلبه القوى تمحو « النمس » من الوجود ، فلماذا لم يفعل هذا . لأنَّه تعلم بالتجربة أنَّ مغاضبة مثل هذا

الحيوان الضئيل عداوة لن تعود بالضرر إلا عليه هو ، فأكرم له وأليق بكبريائه أن يغضّ الطرف عنه .

ولقد تعلمتُ هذا أنا أيضًا ، فطالما ضيّقت الخناق على أدميين من طراز هذا «النمس» ، فعلمتنى التجربة المرة أن اجتلاف عداوة هؤلاء لا تجدى فتيلاً .

ذاك ما كتبه « ديل كارنيجي » فى كتابه : « دع القلق ». وقد وافقته فى هذا التفكير فيما كتبته - قبلاً - بخلق المسلم قلت :

( ومع أنَّ للطبع الأصيلة في النفس دحلاً كبيراً في أنصبة الناس من الحدة والهدوء ، والعجلة والأناة ، والكدر والنقاء ؛ إلا أنَّ هناك ارتباطاً مؤكداً بين ثقة المرء بنفسه وبين أناهه مع الآخرين وتجاوزه عن خطئهم .

فالرجل العظيم حقاً كلما حلّ في آفاق الكمال اتسع صدره ، أو امتد حلمه ، وعذَّرَ الناس من أنفسهم ، والتمس المبررات لأغلاطهم . فإذا عدَّ عليه غرِّيريد تجريمه ، نظر إليه من قمته كما ينظر الفيلسوف إلى صبيان يعبثون في الطريق وقد يرمونه بالأحجار .

وقد رأينا الغضب يشتط ب أصحابه إلى حد الجنون عندما تُقْتَحَمُ عليهم نفوسهم . ويررون أنَّهم حُقِّروا تحقيراً لا يعالجه إلا سفك الدم .

أفلو كان الشخص يعيش وراء أسوار عالية من فضائله يحسُّ بوخذ الألم على هذا النحو الشديد؟ كلا . إنَّ الإهاناتِ تسقط على قاذفها قبل أن تصل إلى مرمها بعيد .

وهذا المعنى يفسّر لنا حلم « هود » وهو يستمع إلى إجابة قومه بعد ما دعاهم إلى توحيد الله قالوا : « إِنَّا لَنَرَكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا نَظُنُكَ مِنَ الْكَافِرِينَ {١٢} قَالَ يَقُولُ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ {١٣} أَبَلْغُكُمْ رِسْلَتِ رَبِّي وَإِنَّا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ »<sup>(١)</sup>

إنَّ شتائم هؤلاء الجهال لم يطش لها حُلم « هود » لأن الشقة بعيدة بين رجل اصطفاه الله رسولاً ، فهو في الذؤابة من الخير والبر ، وبين قوم سفهوا أنفسهم ،

(١) الأعراف : ٦٦ - ٦٨ .



وتهاوا على عبادة الأحجار يحسبونها - لغبائهم - تضر وتنفع !! كيف يضيق المعلم الكبير بهَرَف هذه القطعان !؟ ) .

### ﴿٣٤٣٤٣٤٣﴾

والإِلْكَ نماذج من الرجولات التي لا تهُزُّها إِسَاءَةٌ ، ولا تستفرَّزُها جهَالَةٌ ، لأنَّ لغو السفهاء يتلاشى في رحابتها كما تتلاشى الأَحْجَار في أغوار البحر المحيط .

ما يضير البحَرَ أَمْسَى زَاخِرًا      إِنْ رَمَى فِيهِ غَلَامٌ بِحَجَرٍ ؟

يُروى أنَّ رجلاً سبَّ الأَحْنَفَ بنَ قَيْسٍ - وهو يماشيه في الطريق - فلما قرب من المنزل وقف الأَحْنَفَ وقال : يا هذا ، إنَّ كَانَ بِقَى مَعَكَ شَيْءٍ فَقُلْهُ هَهُنَا ، إِنَّمَا أَخَافُ إِنْ سَمِعْتُ فَتِيَانَ الْحَىِّ أَنْ يَؤَذُوكَ .

وقال رجل لأَبِي ذِرٍ : أَنْتَ الَّذِي نَفَاكَ معاويةً من الشَّامَ ؟ . لو كَانَ فِيكَ خَيْرٌ مَا نَفَاكَ !! فقال : يا ابْنَ أَخِي ، إِنَّ وَرَائِي عَقبَةَ كَوْوَدًا ، إِنْ نَجَوْتُ مِنْهَا لَمْ يَضُرَّنِي مَا قَلَتْ ، وَإِنْ لَمْ أَنْجُ مِنْهَا فَأَنَا شَرُّ مَا قَلَتْ !! .

وقال رجل لأَبِي بَكْرٍ : وَاللهِ لَأَسْبِّنَكَ سُبُّاً يَدْخُلُ الْقَبْرَ مَعَكَ !! قال : مَعَكَ يَدْخُلُ لَا مَعِي !! .

وقال رجل لعمرٍو بن العاص : وَاللهِ لَا تَفْرَغَنَّ لَكَ . قال : هُنَاكَ وَقَعْتَ فِي الشُّغْلِ !! قال : كَأَنَّكَ تَهَدَّدَنِي ؟ وَاللهِ لَئِنْ قَلَتْ لِي كَلْمَةٌ لَا قُولَنَّ لَكَ عَشْرًا !! قال عمرٍو : وَأَنْتَ وَاللهِ لَئِنْ قَلَتْ لِي عَشْرًا لَمْ أَقْلِ لَكَ وَاحِدَةً .

وَشَتَمَ رَجُلُ الشَّعْبَى فَقَالَ لَهُ : إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فَغَفِرَ اللَّهُ لَى ، وَإِنْ كُنْتَ كاذِبًا فَغَفِرَ اللَّهُ لَكَ .

وَشَتَمَ رَجُلُ أَبِي ذِرِ الغَفارِي فَقَالَ لَهُ أَبُو ذِرٍ : يَا هَذَا لَا تَغْرِقْ فِي شَتَمِنَا ، وَدَعْ لِلصَّلْحِ مُوسِعًا ، إِنَّا لَا نَكَافِيَ مِنْ عَصْيِ اللَّهِ فِينَا بِأَكْثَرِ مِنْ أَنْ نَطِيعَ اللَّهَ فِيهِ .

وَمَرْسَيْحُ بْنُ يَهُودَ فَقَالُوا لَهُ شَرًا . فَقَالَ لَهُمْ خَيْرًا ، فَقَيْلَ لَهُ : إِنَّهُمْ يَقُولُونَ شَرًا وَتَقُولُ لَهُمْ خَيْرًا ؟ ! فَقَالَ : كُلُّ وَاحِدٍ يُنْفِقُ مَا عَنْهُ .

وَقَيْلُ لَقَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ : مَا الْحَلْمُ ؟ قال : أَنْ تَصْلَى مِنْ قَطْعَكَ ، وَتَعْطَى مِنْ حَرْمَكَ ، وَتَغْفَى عَنْ ظَلْمَكَ ..

وقالوا : ما قُرِنَ شَيْءٌ أَزَينَ مِنْ حَلْمٍ إِلَى عِلْمٍ ، وَمِنْ عَفْوٍ إِلَى قَدْرَةٍ !! .

وقال الحسن : المؤمن حليم لا يجهل وان جهل عليه . وتلا قوله تعالى :

﴿ وَلَذَاخَاطَبَهُمْ أَجْهَلُونَ قَالُوا سَلَّمًا ﴾<sup>(١)</sup>

وقال يزيد بن حبيب : إنما كان غضبي في نعلى ... فإذا سمعت ما أكره أخذتها ومضيت .

وقال على : من لانت كلمته وجبت محبته ، وحُلْمك على السفيه يُكثِرُ أنصارك عليه .

وأسمع رجل عمر بن عبد العزيز بعض ما يكره ، فقال : لا عليك ، إنما أردت أن يستفزني الشيطان بعزة السلطان ، فأنا منك اليوم ما تناله مني غداً ، انصرف إذا شئت !! .

### ٣٦٣٥٣٤٣

إنَّ الغضب مسٌّ ، يسرى في النفس كما تسرى الكهرباء في البدن .

قد يُنشِيءَ رُغْدَةً شاملةً واضطراًباً مذهلاً ، وقد يشتد التيار فيصعق صاحبه ويقضى عليه .

ولذلك يرى « ديل كارنيجي » أنَّ التحلُّم مع الأعداء رحمة تلحق بالنفس قبل أن ينال الغير خيراًها ويدركه بُرُدُّها وبُرُّها ..

وهو ينقل لنا فقرة من منشور وزعته إدارة الشرطة بإحدى مدن أمريكا ، وهي فقرة تستحق التنويه : (إذا سُوِّلتْ لِقُومٍ أَنفُسُهُمْ أَنْ يُسْيِئُوا إِلَيْكَ ، فَامْحُّ مِنْ نَفْسِكَ ذُكْرَاهُمْ ، وَلَا تَحَاوُلُ الْاِقْتِصَاصَ مِنْهُمْ ، إِنَّكَ إِذْ تَبِيِّنُ نِيَةَ الانتقامَ تُؤْذِنِي نَفْسِكَ أَكْثَرَ مَا تُؤْذِيَهُمْ !! ) .

ثم يتساءل : (كيف تؤذيك محاولة القصاص ؟ . إنها قد تُودي بصحتك ، كما ذكرت مجلة « لاييف » : أنَّ أَبْرَزَ مَا يَمْيِيزُ الَّذِينَ يُعَانِونَ ضَغْطَ الدَّمِ هُوَ سُرْعَةُ اِنْفَعَالِهِمْ ، واستجابتهم لدعواتي الغيظ والحدق) .

قال : ( وأصيَّتْ إِحْدَى مَعَارِفِي بِدَاءَ الْقَلْبِ ، فَكَانَ كُلُّ مَا نَصَحَّهَا بِهِ الْأَطْبَاءُ أَلَّا تَدْعُ لِلْغَضَبِ سَبِيلًا إِلَيْهَا مَهْمَا بَلَغَ الْخَطْبُ ، فَإِنَّ الْمَرِيضَ بِقَلْبِهِ قَدْ تَكْفِي لِحْفَرِ قَبْرِهِ غَضْبَةً وَاحِدَةً !! ) .

(١) الفرقان آية ٦٣ .

ومحافظة على الإنسان من ثورات الغضب ، ومن آثاره البدنية والنفسية ، قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة من كُنْ فيه أواه الله في كنهه ، وستر عليه برحمته ، وأدخله في محبته : من إذا أعطى شكر ، وإذا قدر غفر ، وإذا غضب فتر »<sup>(١)</sup> .

وروى أنه قال : « من دفع غضبه دفع الله عنه عذابه ، ومن حفظ لسانه ستر الله عليه عورته »<sup>(٢)</sup> .

وعن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله : « ما من جُرْعةٍ أعظم أجراً عند الله من جُرْعةٍ غيظٍ كظمها عبدٌ ابتغا وجه الله »<sup>(٣)</sup> .

وظاهر أنَّ المرء مع تفاقم الغضب يغيب عنه وعيه ويتسلى الشيطان زمامه ، وكما تعصف الأضطرابات بمشاعره تُطِيشُ لُبُّه ، فلا يعى ما يوجه إليه من نصْحٍ ولو كان من كلام الله وحكمة الرسول .

فقد جاء في الصحيح : استَبَ رجلان عند النبي ﷺ ، فجعل أحدهما يغضب ويحرُّ وجهه وتنتفخُ أوداجه ، فنظر إليه النبي ﷺ فقال : « إني لأعلم كلمةً لو قالها لذهب عنه هذا ... أَعُوذ بالله من الشيطان الرجيم » ، فقام إلى الرجل أحد مَنْ سمع النبي ﷺ وقال له : هل تدري ما قال رسول الله أنا؟ قال : لا ، قال : قال : « إني لأعلم كلمةً لو قالها لذهب عنه هذا ... أَعُوذ بالله من الشيطان الرجيم » . فقال له الرجل : (أَمْجُوناً ترانى؟ ...) <sup>(٤)</sup> .

وهكذا بلغ الغضب بالرجل يُمهَد النفس لقبول شتى الوساوس و يجعلها بحالة تستسهل فيها أشد الجرائم ، حتى إذا صحا الغضوبُ من نزُوْتهِ راح يندم على ما فرط منه ، ولات ساعة مُنْدَمَ .



يقول « ديل كارنيجي » : ( فأنت ترى المسيح عليه السلام حين قال : « أَحَبُّوا أعداءكم » لم يكن يبغى تقويم الأخلاق فحسب ، وإنما كان يبغى تقويم الأبدان أيضًا وفقاً لمبادئ الطب الحديث .

(١) الحاكم .

(٢) الطبراني .

(٣) ابن ماجه .

وحين نصح بأن يعفو المرء إلى سبعين مرة سبع مرات ، فإنما كان يعلمـنا كيف  
نتفادـى لـغط القلب وـقرحة المـعدة وغيرـهما من الأدواء) .

وقصة العـفو عن الـهـفـوات أـكـثـرـ من سـبـعينـ مـرـة روـيـتـ فـي إـنـجـيلـ «ـمـتـىـ» . وروـيـتـ  
كـذـلـكـ فـي سـنـ النـبـىـ ﷺ ، فـعـنـ عـبـدـ اللـهـ بـنـ عـمـرـ ؓ : جـاءـ رـجـلـ إـلـىـ النـبـىـ  
ﷺ فـقـالـ : يـارـسـولـ اللـهـ ، كـمـ أـعـفـوـ عـنـ الـخـادـمـ ؟ قـالـ «ـكـلـ يـوـمـ سـبـعينـ مـرـةـ» (١) وـفـيـ  
رواـيـةـ أـنـ رـجـلاـ أـتـىـ رـسـولـ اللـهـ فـقـالـ لـهـ : إـنـ خـادـمـ يـسـىـءـ وـيـظـلـمـ ، أـفـأـضـرـبـهـ ؟  
قـالـ : «ـتـعـفـوـ عـنـهـ كـلـ يـوـمـ وـلـيـلـةـ سـبـيعـنـ مـرـةـ» (٢) .

أما مـحـبـةـ الـأـعـدـاءـ فـلـعـلـلـهاـ تـعـنـىـ إـيـشـارـعـوـنـعـنـهـمـ ، وـتـنـقـيـةـ الـقـلـبـ مـنـ الضـغـائـنـ  
عـلـيـهـمـ ، وـتـرـكـ الـإـنـشـغـالـ بـمـاـ أـسـلـفـواـ مـنـ سـيـئـاتـ ، ذـلـكـ الـإـنـشـغـالـ الذـىـ لـاـ ثـمـرـةـ لـهـ إـلـاـ  
تـوـاـصـلـ الـأـحـزـانـ وـطـوـلـ الشـكـاـيـاتـ ، وـنـدـبـ ماـ تـوـرـرـتـ فـيـهـ الـطـبـاعـ الـغـلـيـظـةـ مـنـ مـظـالـمـ .

أما أـنـ تـكـونـ عـوـاطـفـ الـإـنـسـانـ سـوـاءـ تـجـاهـ مـنـ يـحـسـنـ إـلـيـهـ وـمـنـ يـجـورـ عـلـيـهـ  
فـذـاكـ مـسـتـحـيلـ .

إـنـ الـمـرـءـ يـشـكـرـ نـعـمـىـ الـمـحـسـنـينـ ، وـيـحـمـدـ عـرـاقـةـ الـأـمـجـادـ وـيـوـدـ عـشـرـتـهـمـ .  
وـإـنـ لـيـفـرـ مـنـ دـنـاءـ الـأـدـنـيـاءـ ، وـيـعـافـ الـقـرـبـ مـنـ نـفـوسـهـمـ وـالـتـعـرـضـ لـمـساـوـيـهـمـ ؛  
فـكـيـفـ يـحـبـهـمـ !؟ .

إـنـ اـبـنـ آـدـمـ الصـالـحـ كـانـ طـبـيـعـيـاـ فـيـ مـشـاعـرـهـ ، وـمـنـطـقـيـاـ مـعـ نـفـسـهـ وـمـعـ الـعـدـلـ عـنـدـمـاـ  
كـرـهـ أـخـاهـ الـقـاتـلـ ، وـتـرـبـصـ بـهـ الـقـصـاصـ الـوـاجـبـ ، وـقـالـ :

﴿إِنَّ أَرِيدُ أَنْ يَبُوَا بِإِثْمِي وَإِنِّي لَكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ بِرَبِّ الظَّالِمِينَ﴾ (٣)

عـلـىـ أـنـ الـمـؤـمـنـ مـعـ ذـلـكـ كـبـيرـ الـقـلـبـ ، وـالـقـلـبـ الـكـبـيرـ لـيـسـ تـرـبةـ لـجـذـورـ الـغـلـ تـشـبـثـ  
فـيـهـ وـتـمـتـدـ ، كـلاـ . إـنـ الـحـقـدـ عـنـصـرـ غـرـيبـ عـلـيـهـ ، وـلـذـلـكـ مـاـ إـنـ يـمـرـ بـهـ طـيـفـهـ حـتـىـ  
يـتـقـلـصـ وـيـزـوـلـ .

ثـمـ إـنـ لـلـمـؤـمـنـ شـغـلـاـ بـمـسـتـقـلـهـ فـيـ الـأـخـرـىـ وـالـإـعـدـادـ لـهـ فـيـ هـذـهـ الدـنـيـاـ .  
وـالـتـفـرـغـ لـلـخـصـومـاتـ دـيـدـنـ مـنـ لـاـ عـمـلـ لـهـمـ إـلـاـ الـلـجـاجـةـ وـإـيـثـارـ النـزـاعـ .  
كـذـلـكـ كـانـ الـعـربـ فـيـ جـاهـلـيـتـهـمـ حـتـىـ نـزـلـ الـقـرـآنـ يـنـادـيـهـمـ :

(٣) المائدة آية ٢٩ .

(٤) الترمذى .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذْ خُلُوْفٍ  
السِّلْمُ كَافَّةً وَلَا تُتَبِّعُوا خُطُوْتَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (١)

فجمعهم على الحق وشغلهم به بدل أن يشتغل بعضهم بالبعض الآخر .

وقد عادت هذه الجاهلية إلى الجماهير الفارغة من أمتنا ، فهم بين مُقاتلات وثارات لا تنتهي ، لأنهم ليسوا أصحاب رسالة يحيون لها وينشغلون بحقوقها !! .

إن الشبه قائم بين طباع العظماء وإن اختلفت أسلوباتهم وألوانهم ، ذلك لأن بذور السُّمُّ تنشأ بين شمائهم وهمأطفال ، ثم تقوى مع اشتداد أعراضهم ، فهى خصائص يزود الله من يشاء من خلقه ليقوم فى الحياة بعمل كبير أو يؤدى رسالة رائعة .

وأولو الموهب النفسيّة والعقلية الفارعة سِناد رَكِين للألم التي يقودونها ، والأعباء التي يحملونها .

ولذلك دعا رسول الله - في إبان غربة الإسلام وقلته - أن يعزه بأحد العُمرَين : عمر بن الخطاب ، أو عمرو بن هشام .. فكان الأول أسعد الرجلين وأحظاهما عند الله .

وعندما وفدت قبيلة عبد القيس إلى المدينة ، قال النبي ﷺ للأشج - رئيسها - : «إنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يَحْبِهِمَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ : الْحَلْمُ وَالْأَنَّةُ» (٢) .

وروى أن الرجل قال للنبي : خصلتان جبلني الله عليهما ، أم جدّتا في ؟ فقال له «بل جَبَّلَكَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا» فسر الرجل على هذا العطاء الجزل .

لقد كانت نفسه - في ظلمات الجاهلية - تتلقى بخلال يحبها الله جل شأنه .

ولقد طالعت النُّبُذ اليسيرة التي نقلها «ديل كارنيجي» عن حياة «إبراهام لنكولن» الزعيم الأمريكي الكبير ، فتبينت في تصاعيفها هذا السُّمُّ الذي يبرا الله عليه بعض النّفوس ، لتكون في بيئتها نوراً يومض بالنُّبل والفضل ، ومع ذلك فإن هذا الرجل لم ينج من تأثير الصغار عليه ، بل إن «كارنيجي» يقول : (لعل أحداً من أنجبتهم أمريكا في تاريخها كله ، لم يلق من الإيذاء والمقت والخديعة ما لقيه «لنكولن») .

(٢) البخاري .

(١) البقرة : ٢٠٨ .

وبرغم ذلك فإنه كما يقول - مؤلف سيرته - (لم يزن الناس قط بميزان حبه أو كراهيته لهم) .

فإذا أساء رجل إلى شخصه - وكان هذا الرجل أصلاح الرجال لتقلد منصب من المناصب - أسرع «لنكولن» يقلده إيهاماً كما لو كان يقلده صديقاً له .

ولا إخاله عزل رجلاً عن عمله لأنه كان خصماً له ، أو لأنه كان يكرهه .

بل الواقع أن «لنكولن» أوذى وأسى إليه من رجال قلدهم فيما بعد مناصب ذات وجاهة وسطوة ، لأنه يرى - كما يقول كاتب سيرته «هندرون» - أنه لا ينبغي لرجل أن يمدح أو يُذمَّ على عمل يؤديه ، لأننا جميعاً مسخرون في أيدي الظروف والأقدار والبيئة والتعليم ، والعادات المكتسبة ، والوراثات التي تطبع الناس بطابع لا ينفك عنهم أبداً .

ويحتمل أن يكون «لنكولن» مصيباً ، فلو أنها ورثنا الخصائص الجثمانية والذهنية والعاطفية التي ورثها أعداؤنا لكننا على الأرجح قد أصبحنا على غرارهم ، وما اختلفنا عنهم .

وقد اعتاد «كلارنس وارد» أن يقول : بدلأً من أن نُفْتَ أعداءنا ينبغي أن نشفق عليهم ، وأن نحمد الله عز وجل على أنه لم يخلقنا مثلهم .

وبدلأً من أن نصب الاتهامات وألوان النعمة على رؤوس أعدائنا يحسن أن نلتمس لهم الرحمة والمعونة والعفو ) .

هذه الكلمات التي نضجت بها قلوب كبيرة تذكرنا ب موقف رجل من أئمة الفقه الإسلامي ، حاولت الحكومة في عهده أن تحمله على اعتناق رأي ديني لها فأبى الرجل أن يعتنق هذا الخطأ ، ورأى الحكومة أن تستعين على إقناعه بالحلل والتنكيل والسجن الطويل ، ومع ذلك فقد صبر الرجل على بلائه ورفض أن يبيع عقيدته في أهواء المبتدعين ، ورغبات الجبارين .

فلما يئسوا منه وظُئروا أن أجله قد اقترب لهول ما نزل به ردُّوه إلى بيته .

قال ابن كثير : وجاء الأطباء إلى الإمام المعذَّب ، فقطعوا لحماً ميتاً من جسده وجعلوا يداوونه حتى عاد إليه روحه الذي كاد يزهق ، فلما شفاه الله بقى مدة وإبهامه يؤذيهما البرد .

أتدرى ما كان موقفه بعد ؟ .

جعل كلَّ من آذاه في حلٍّ إلا أهل البدع ، وكان يتلو قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَيَعْفُوا وَلَيَصْفَحُوا إِلَّا تَجْبُونَ أَن يَغْرِيَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾<sup>(١)</sup>

يقول : ماذا ينفعك أن يُعذَّب أخوك المسلم بسببك ، وقد قال الله :

﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾<sup>(٢)</sup>

وينادي المنادى يوم القيمة «لِيَقُومْ مِنْ أَجْرِهِ عَلَى اللَّهِ ، فَلَا يَقُومُ إِلَّا مِنْ عَفَّا» .

وروى عن رسول الله ﷺ : «إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الْخَلَائِقَ نَادَى مَنَادٍ : أَيْنَ أَهْلُ الْفَضْلِ؟ قَالَ فِي قَوْمٍ نَاسٌ - وَهُمْ يَسِيرُ - فَيَنْتَلِقُونَ سَرَاعًا إِلَى الْجَنَّةِ .

فتتلقاهم الملائكة ، فيقولون : وما فضلكم ؟ ، فيقولون : كنا إذا ظلمَنَا صَبَرْنَا ، وإذا أُسْيَءَ إلينا حَمَلْنَا . فيقال لهم أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ فَنِعْمُ أَجْرُ الْعَامِلِينَ» .

تلك خلال السماحة والتجاوز كما يثبتها التاريخ لإله الأكرمين في المغارب .

وما أقلَّهم على كثرة الناس .



(١) النور : ٤٠ .

(٢) الشورى : ٤٠ .

# لا تنتظِر الشُّكْرَ من أحدٍ

مع أنَّ نعم الله تلاحقنا في كل نفس يملاً الصدر بالهوا ، وكل خفقة تدفع الدماء في العروق ؛ فنحن قلما نحسُ ذلك الفضل الغامر ، أو نقدر صاحبه ذا الجلال والإكرام !! .

إننا نحال كل شيء مهيأً من تلقاء نفسه لخدمتنا وأنَّ على عناصر الوجود تلبية إشارتنا وإجابة رغبتنا لا لعلة واضحة سوى أننا نريد ، وعلى الكون كله التنفيذ !! .  
بالضبط كما يعيش الأطفال المدللون !! .

وقد نشعر ببعض الجميل لظروف مواتية ، أو ببعض الجمال في بيئه مريحة ممتعة ، وعلى ما في هذا الشعور من نقص - لانقطاعه عن الله وسوء إدراكتنا لنعماه - فكم تظن من الناس يملكونه هذا الشعور ؟ قلة لا تذكر !! .

أما جمهور البشر فذاهل عمما يكتنفه من آلاء وإنَّ يتقلب في خيرات الله غير واعٍ لكثرتها ، ولا شاكر لمرسلها .

وقد أراد الله عز وجل أن ينبه الناس إلى ما خولهم من برّه ، وإلى ما يحيط بهم من آثار قدرته ورحمته فقال - كأنه يعرف نفسه خلقه - :

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَيْلَلَ لِتَسْكُنُوهُ  
فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبِيرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكُنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ  
لَا يَشْكُرُونَ ﴿١﴾ ذَلِكُمْ وَاللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقُوكُمْ شَيْءًا لِّإِلَهٍ إِلَّاهُو هُوَ فَإِنَّ  
لَوْفَكُونَ ﴿٢﴾ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا إِيمَانَهُمْ  
لِلَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣﴾ اللَّهُ  
الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَارًا وَالسَّمَاءَ بَنَاءً وَصَوَرَكُمْ فَأَحْسَنَ  
صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمْ وَاللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ  
رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٤﴾﴾

(١) غافر : ٦١ - ٦٤ .

فهل بعد هذا البيان والتنبيه أديتنا حق الله؟ ! .

يظهر أن شكر المنعم واجب ثقيل ، وأننا على قدر ما نحتاج ونأخذ ، على قدر ما نستخف ونسى .

بل إنّ كثيراً من الناس يتناول أنعم الله وكأنه يسترّ حقاً مسلوباً منه ، أو ملكاً خاصاً به ، ومن ثم فهو لا يرى لأحد فضلاً عليه . وبهذا التفكير الكنود لا يثمر صنيع ولا يجئ شكر .

وذلك هي العلة في أنك قد تسلف أيادي بيضاء لبعض الناس وتبذل جهداً محموداً في سوقها ، حتى إذا استقررت في أيديهم نظروا إليك جامدين ، أو ودعوك بكلمات باردة ، ثم ولوا عنك مدبرين !! .

هل يغضبك هذا المسلك؟ . هكذا صنعوا قبلًا مع ربكم وربّهم فقال :  
﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِي أَشْكُورُ﴾<sup>(1)</sup>

ويضرب لنا «ديل كارنيجي» عدة أمثلة لشيوع الجحود بين الناس فيقول : (لو أنك أنقذت حياة رجل أثارك تنتظر منه الشكر؟ . قد تفعل . بيد أن «صمويل لايبيتز» - الذي اشتغل محاميًّا ثم قاضياً - أنقذ ثمانية وسبعين رجلاً من الإعدام بالكرسي الكهربائي ، فكم من هؤلاء تقدم له بالشكر؟ . لا أحد !!) .

ولقد شفى المسيح عليه السلام عشرة من المفلوجين في يوم واحد ، فكم من أولئك المعافين سعى إلى رسول الله ليشكروه؟ . واحد فقط !! .  
أما الآخرون فقد انصرفوا دون أن ينبسوا بكلمة .

ويستطرد «كارنيجي» قائلاً : (وحذّنى «تشارلس شواب» أنه أنقذ مرة صرّافاً خسر في مضاربات «البورصة» أموالاً تخص «البنك» ، فدفع له المال المفقود كلّه ، وبذلك نجاًه من السجن ، ومن فقد شرفه وعمله ، فهل شكره الصراف؟ . نعم شكره يومئذ بكلمة ، ثم ما لبث أن راح يحمل عليه ويكييل له السباب ألواناً !!) .

ثم يقول «كارنيجي» وكأنه يشرح قول الله سبحانه :  
﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾<sup>(2)</sup>

(1) العadiات: ٦ .

(2) سيا: ١٣ .

(إنَّ الْجَحْودَ فُطْرَةً ، إِنَّهُ يَنْبُتُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ كَالْأَعْشَابِ الْفَطَرِيَّةِ - الَّتِي تَخْرُجُ دُونَ أَنْ يَزْرَعَهَا أَحَدٌ - أَمَّا الشُّكْرُ فَهُوَ كَالْزَهْرَةِ الَّتِي لَا يَنْبُتُهَا إِلَّا الرَّىٰ وَحْسَنُ التَّعْهِيدُ ...).

ويقول : (إنَّ الطَّبِيعَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ مَا بَرَحَتْ هِيَ الطَّبِيعَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ وَالْأَرجُحُ أَنَّهَا لَنْ تَغْيِيرَ أَبَدَ الْأَبْدِينَ !!).

وإذن فلنقبلها على عِلَّاتِهَا .

لَمَّا نَتَحْسَرُ عَلَى ضَيْاعِ الْمَنْ وَتَفْسُّرِ الْجَحْودِ ؟ إِنَّهُ لِأَمْرِ طَبِيعَيِّنِ أَنْ يَنْسَى النَّاسُ وَاجْبُ الشُّكْرِ ، فَإِذَا نَحْنُ انتَظَرْنَا مِنْهُمْ أَدَاءَهُذَا الْوَاجِبِ فَنَحْنُ خُلُقَاءُ بَأْنَجْرَ عَلَى أَنْفُسِنَا مَتَّاعِبُ هِيَ فِي غِنَىٰ عَنْهَا .

وَهَذَا كَلَامٌ يَحْتَاجُ إِلَى تَعْقِيبٍ وَإِيْضَاحٍ ، فَإِنَّ إِقْفَارَ النُّفُوسِ مِنْ نِصَارَةِ الشُّكْرِ ، وَانْتَشَارَ الْجُفَافِ أَوِ الْأَشْوَاكِ بِهَا فَحَسْبٌ مِنْكُرٌ قَبِيحٌ ، وَيَنْبَغِي أَنْ نَزَعَ النَّاسَ عَنْهُ ، وَأَنْ نَعْلَمُهُمُ الْحَفَاوَةَ بِمَا يُسْدِي إِلَيْهِمْ مِنْ مَعْرُوفٍ ، وَتَقْدِيرَ مَا فِيهِ مِنْ بَرٌّ وَمَرْحَمَةٍ وَإِحْسَانٍ .  
وَالْإِسْلَامُ يَوجِهُ الْمُعْطَى إِلَى ذِكْرِ النِّعْمَةِ الَّتِي سَيَقَتْ لَهُ ، وَإِلَى الشَّنَاءِ عَلَى مُرْسِلِهَا وَإِلَى مَكَافَأَتِهِ عَلَيْهَا بِأَيَّةٍ وَسِيلَةٍ . فَإِنَّ لَمْ يَجِدْ الْجَزَاءَ الْمَادِيَ الْمَعَادِلَ لِمَا نَالَ فَلْيَشْكُرْ بِلِسَانِ الْحَالِ وَالْمَقَالِ ، وَلْيَدْعُ اللَّهَ أَنْ يُثِيبَ مِنْ عَنْدِهِ الْثَوَابَ الَّذِي يُشَبِّعُ عَوَاطِفَ الشُّكْرِ فِي أَفْئَدِنَا ، وَيَحْقِقَ مَا قَصَرَتْ عَنْهُ أَيْدِينَا .

قال رسول الله ﷺ : «من اصطنع إليكم معرفةً فجازوه ، فإن عجزتم عن مجازاته فادعوا له ، حتى تعلموا أنكم قد شكرتم ، فإن الله شاكر يحب الشاكرين» (١) .

وقال رسول الله ﷺ : «من أَعْطَى عَطَاءً فُوجِدَ فَلَيَجْزِيَ بِهِ ، فَإِنَّ لَمْ يَجِدْ فَلَيُشْكِرْ فَإِنَّ مَنْ أَنْثَى فَقَدْ شَكَرَ ، وَمَنْ كَتَمَ فَقَدْ كَفَرَ» (٢) .

وقال : «إِنَّ أَشَكَرَ النَّاسُ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، أَشَكَرَهُمُ الْنَّاسُ» . وفي رواية : «لَا يَشْكُرُ اللَّهُ مَنْ لَمْ يَشْكُرْ النَّاسَ» (٣) .

وقال : «مَنْ لَمْ يَشْكُرْ الْقَلِيلَ لَمْ يَشْكُرْ الْكَثِيرَ ، وَمَنْ لَمْ يَشْكُرْ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرْ اللَّهَ ، وَالْتَّحْدِثُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ شَكَرَ ، وَتَرَكَهَا كَفَرَ ، وَالْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ . وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ» (٤) .

(٢) الترمذى .

(٤) عبد الله بن أحمد .

(١) الطبراني .

(٣) أحمد

وذكر ما في الجماعة من رحمة موصول بما قبله ، فإنَّ التقطاع يرجع غالباً إلى كنود النعم وجد الإحسان ، ولا يشُدُّ أواصر الجماعات كحفظ المعروف وإكرام أهله ، ولا يفصِّم عرْى الائتلاف ويعرِّض لعذاب الفرقَة إلا غمط الحقوق وإهمال ذويها والتنكر لما أسلَّهُ من جميل .

إلا أنَّ الإسلام مع توكيده لواجب الشكر وتحقيقه لشأن الجاحدين يطلب من أولئك الخير أن يجعلوا عملاً خالصاً لوجه الله وأن يبعدوا عن مقاصدهم كل دخل ، فإنَّ غشَّ النية يفسد العمل ويحيط الأجر ، والمعروف الذي يُقبل ويُحترم هو الذي يبذل صاحبه بداعِ الحُلُم لا يطلب عليه ثناءً بشر ولا شكره ، إنما يطيع به أمر الله ويطلب رضوانه ومغفرته .

والإسلام بما يفرضه على العمل من إخلاص يريد أن يحرر القلوب من قيود الأغراض وأن يعلقها بالكمال المطلق ، فهني تفعل الخير عن بواطن نقية ، أى عن حبٍ مكين له ورغبة قوية في تحقيقه دون نظر إلى مدايا الناس أو تطلع إلى منزلةٍ ما بينهم .

وهذا السُّمُّ المنزه هو دعامة الإحسان الحق ، وهو المثل الأعلى لكل خلقٍ كريم ، رُوى أنَّ رجلاً تطاول على عبد الله بن عباس ، فقال له : «أتشتمنى وفيَّ ثلات : إنى لأسمع بالحاكم من حكام المسلمين يعدل فأحبيه ولعلَّى لا أقضى إليه أبداً !! . وأسمع بالغثيث يصيب البلد من بلاد المسلمين فأفرح به وليس لى به سائبة ولا راعية !! .

وأتى على الآية من كتاب الله فأؤدُّ لو أنَّ المسلمين كُلُّهم يعلمون منها مثل ما أعلم» .

ما هذا؟ .. هذا رجل يحب شيوخ الحق والخير والعلم ، ويفرح من أعماق قلبه لو استمتع الناس بما فيها من بركات ، ولو لم يمسه من ذلك حظ كبير أو صغير .

إن هذا التعلق بالكمال المطلق والإحسان المبرأ أهمل ما يطلبه الإسلام منك ، حين تُسدى إلى أحدٍ معروفاً قدْم جميلك عشقاً لصنائع المعروف وابتغاء ما لدى الله من مثوبة .

وَلَا تَعُولْ عَلَى حَمْدٍ أَحَدٌ أَوْ تَقْدِيرِهِ ، كُنْ كَمَا وَصَفَ اللَّهُ الْأَبْرَارُ مِنْ عِبَادِهِ :

﴿ وَيَطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى جِهَتِهِ مُسْكِنًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾  
﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُهُ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا زِيَادَةَ مِنْ كُلِّ جَزَاءٍ وَلَا شُكُورًا ﴾ (١)

وليس المقصود أنَّهم يقولون ذلك بأسنتهم ، فذاك مستبعد لأنَّه قد يؤذى أصحاب الحاجات ، وإنما ذلك ترجمة لما في قلوبهم من نيات صافية ، ومشاعر نظيفة .

هل ابتغاء وجه الله عسير على الناس ؟ .

المؤسف أنَّ أغلب البشر تهيجهم للعمل بواعث مشوبة ، ويطلبون به غaiيات شتى ، وقليل جداً أولئك الذين يتحرّكون بدافع نقى ، ويرتفعون بمقاصدهم عن مأرب هذه الأرض انظر إلى قول الشاعر :

يَفْحَصْنَ بِالْمَعْزَاءِ شَدًّا  
لَمَّا رَأَيْتُ نَسَاءَنَا  
بَدْرُ السَّمَاءِ إِذَا تَبَدَّى  
وَبَدَتْ لَمِيسُ<sup>١</sup> كَأَنَّهَا  
تُخْفَى وَكَانَ الْأَمْرُ جِدًّا  
وَبَدَتْ مَحَاسِنُهَا التِّي  
نَازَلتُ كَبَشَهُمْ وَلَمْ  
لِمَنْ هَذَا إِلَّا قَدَامٌ ؟ لَوْجَهِ «لَمِيسٌ» الْحَسَنَاءِ !! .

وما سرُّ هذه الشجاعة ؟ نَيْلٌ إعجابها ، وطلب المنزلة عندها وعند مثيلاتها ..  
وهذه طبيعة ألوف من الناس !! .

ويذكر شاعر آخر أنه صنع معروفاً أنقذ به من الهلاك أحد الرجال الذين لا يحبّهم ، وأنَّه كان يستطيع تركه وحده ليلقى حتفه ، لو لا أنه خشي أحاديث الناس عنه في مجالسهم .

ذَكَرْتُ تَعْلَةَ الْفَتِيَانِ يَوْمًا  
وَإِسْنَادَ الْمَلَامَةَ لِلْمُلَمِّيمِ  
وَالْبَعْدُ عَنِ الدِّينِيَّةِ اتقاءً ذَمَّ النَّاسِ لَيْسَ خَيْرًا مَحْضًا ، وَتَكَشَّفُ حَقِيقَةُ هَذَا الْخَيْرِ  
الْمَغْشُوشُ عِنْدَ أَمْنِ النَّاسِ ، مَاذَا يَصْنَعُ هَذَا الْإِنْسَانُ عِنْدَمَا يَخْلُو بِنَفْسِهِ ، وَيَوْقَنُ أَنَّ  
النَّاسَ لَنْ يَطْلُعُوا عَلَى مَا يَفْعَلُ أَوْ يَتَرَكُ ؟ .

(١) الإنسان : ٩ - ٨

إِنَّ عُشَّاقَ النَّاسِ وَطَلَابَ الْفُتُوحِ لَا يَبَالُونَ عِنْدَئِذٍ أَنْ يَرْتَكِبُوا الْعَظَائِمِ ..

فلا جَرَمَ أَنْ يَشْتَدَّ الْإِسْلَامُ فِي تَحْيِصِ الْقُلُوبِ ، وَإِخْلَاصِ السَّرَايْرِ ، وَاشْتِرَاطِ وَجْهِ اللَّهِ فِي كُلِّ شَأْنٍ يَقُومُ النَّاسُ بِهِ ، وَتَجْرِيدِ الْأَعْمَالِ مِنْ كُلِّ مَلَابِسَةٍ تَخْدُشُ النِّيَّةَ ، وَفِي الْحَدِيثِ «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ : (أَنَا خَيْرٌ شَرِيكٌ ، فَمَنْ أَشْرَكَ مَعِي شَرِيكًا فَهُوَ لِشَرِيكِي) يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَخْلَصُوا أَعْمَالَكُمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يَقْبِلُ مِنَ الْأَعْمَالِ إِلَّا مَا خَلَصَ لَهُ .

وَلَا تَقُولُوا هَذِهِ لِلَّهِ وَلِلرِّحْمَمِ ، فَإِنَّهَا لِلرِّحْمَمِ وَلَيْسَ لِلَّهِ مِنْهَا شَيْءٌ .

وَلَا تَقُولُوا هَذِهِ لِلَّهِ وَلِوْجُوهِكُمْ ، فَإِنَّهَا لِوْجُوهِكُمْ ، وَلَيْسَ لِلَّهِ مِنْهَا شَيْءٌ» (١) .

وَهَذَا صَحِيحٌ ؛ فَإِنْتَ إِذَا قَلْتَ : (أَفْعُلُ هَذَا لِلَّهِ وَمِنْ أَجْلِ خَاطِرِ فَلَانِ) ، فَالْأَغْلُبُ أَنَّهُ مِنْ أَجْلِ هَذَا الْخَاطِرِ الْعَزِيزِ ، وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ لَهُ جُوارٌ هَذَا الْخَاطِرُ نَصِيبٌ ، وَلَوْ كَانَ لَهُ نَصِيبٌ مَا فَإِنَّهُ يَرْدِهُ لَأَنَّهُ جَلَ شَأْنَهُ لَا يَقْبِلُ الْعَمَلُ إِلَّا خَالِصًا لَهُ وَحْدَهُ .

وَمِنْ ثُمَّ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَتَوَجَّهَ بِحُرْكَاتِ قُلُوبِنَا وَأَيْدِينَا لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، لَا نَنْتَظِرُ شَنَاءً وَلَا إِعْجَابًا ، وَلَا بِرْوَزًا وَلَا ظَهُورًا وَلَا شَكُورًا ..

### ٣٤٣٤٣٤٣٤

وَإِنَّمَا بَعْدَ مَا بَلَوْتُ النَّاسَ أَجَدَنِي مُضطَرًّا لِأَنْ أَقُولُ : مَحْضٌ عَمْلُكَ لِلَّهِ وَأَنْشَدْتُ ثَوَابَهُ وَحْدَهُ ، وَلَا تَنْتَظِرُ أَنْ يَشْكُرَكَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ ، بَلْ تَوَقَّعُ أَنْ يَضْيقَ النَّاسُ بِكَ !! وَأَنْ يَحْقِدُوكَ عَلَيْكَ !! وَأَنْ يَبْتَغُوكَ الرِّبَيْةَ وَيَنْسُوكَ الْفَضْلَ !! وَأَنْ يَكُونُوكَ ، كَمَا قَالَ الشاعر :

إِنْ يَسْمَعُوا رِبِّيَّةً طَارُوا بِهَا فَرَحًا  
عَنِّي وَمَا سَمِعُوا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوا  
جَهْلًا عَلَيْنَا ، وَجَبَنًا عَنْ عَدُوْهُمْ  
لَبِئْسٌ الْخَلَّانُ : الْجَهْلُ ، وَالْجَبَنُ

وَإِنَّهُ لِيَخِيلُ إِلَيَّ أَنَّ الْعَدَاوَةَ أَزْلِيَّةٌ بَيْنَ الْأَمْجَادِ وَالْأَوْغَادِ .  
بَيْنَ أَصْحَابِ الْمَوَاهِبِ وَالْمَحْرُومِينَ مِنْهَا .  
بَيْنَ فَاعِلِيِّ الْخَيْرِ وَالْعَاطِلِينَ عَنْهُ .

(١) البهقى .

وأخيراً بين من نحسن إليهم ، وبين من يستكثرون علينا أن نكون في مكانٍ  
يجيئهم منه إحساناً ، ويدرُّ عليهم خيراً ..

والجريمة التي ارتكبناها والتي جعلت قلوب هؤلاء تنحرف عنَّا لأنَّا أسعفناهم يوم  
احتاجوا ، وأنَّا لما قدرنا على ذلك لم ندخل به .

وكما كانت جريمة ابن آدم الصالح أنَّ الله قبل عمله ولم يقبل عمل أخيه ،  
كذلك كانت جريمة أبي بكر أنه أافق على قريبه «مسطح» فكان جزاؤه أنَّ «مسطحاً»  
ما إن سمع الإشاعات الكاذبة تدور حول «عائشة» حتى أسرع يعين على ولِيَّ نعمته  
ويروج مع الأفاكين قوله السوء ، بدل أن يرد جميل قريبه بالدفاع عن عرضه !! .

### ٣٤٣٤٣٤٣٤

إنَّ في طباع نفر من الناس كُنوداً يَعْزُّ على الدواء ، ولستُ أدرى أَكثُرُ  
الناس معلولون بهذا الداء ، أم تلك قلة عَكَرَت صفو الحياة ، كما يعكر عذوبة الماء  
القليلُ من الملح .

أيَاً ما كان الأمر فإنَّ الشكاة من هذا البلاء قديمة جديدة .

كان مالك بن أنس يشكو على عهده قلة الإنفاق ، وهو عهد التابعين .

وفى هذا الطُّغْرائى بعد مئات السنين يقول :

غض الوفاء ، وفاض الغدر ، واتسعت مسافة الخُلُف بين القول والعمل  
وأنت لأتلفت يمنةً ويسرةً وأتفرس في الجزاء الذي لقيته من الناس ، فأحسْ غصَّةً .  
وأريد في إيجاز أن أكشف بعض الجوانب التي يجب إعلانها فيما أصدر للناس من  
كتب ، حتى يبدو أمرى على حقيقته .

من ثماني عشرة سنة وأنا أكتب للإسلام وأخطب ، والجماعة التي عشتُ فيها  
حقبة من الدهر تعلم ذلك عنى . ولم تكن خطابتي بسْطة لسان يهدر بالقول ، ولم  
تكن كتابتي سَطْوة قلم يصول ويتجول ، بل كان ذلك كله ذَوْبَ عاطفة تضطرم  
بالإخلاص ، وفكري يستكشف صميم الحق ويبارد إلى إعلانه .

وقد انفردت بأسلوب في شرح تعاليم الإسلام ، ومهاجمة الفساد الاقتصادي  
والاجتماعي السياسي - باسمه - لم يشركني فيه أحدٌ أبداً طويلاً .

ثم نثبت فتن عمياه انتهت بفصلى من الجماعة ، وهو فصل أراه أنا نتيجة ضغائن شخصية ، ويراه غيري تصرفاً منطقياً لا شئ فيه ، ليكن ، إنَّ المرء قد ينذر عن الصواب في تصوُّره لشئونه الخاصة من يدرى ؟ . ربما كان خصوصي معدورين في الإساءة إلىَّ ، أعني في التخلص منِّي ؛ فلأرضَ بهذا الذي حدث ، ولأغمض الطُّرفَ عما أتوهَّمه فيه من غدر وجُورَ .

يُبَدِّلَ أنَّ هناك محاولة للنيل منِّي ، بل للقضاء علىَّ يجب أن أرْدَها بقوة ، وأن أفضح ما يكتنفها من دناءة . وهى محاولة الإغارة على تراثي الأدبى ، ووضع اليد الظالمة عليه في صفقة لا أعرف لها مثيلاً في تاريخ الأداب والدعوات .

ليُكْرِهَنى من شاء . أمَّا أن تُختطف كتاباتى ويوضع عليها اسمُ غير اسمى ، ثم يتواصى الحاقدون بالإرجاف علىَّ وإظهارى للملأ كأنى أنا الناقل عن غيري ؛ فهذه هى الجريمة التي تُطلق عَقِيرتى بالصياح ، ولا أقبل فيها هدنة !! .

عجبًا لا ينتهى من عجب وفتونا ليس يبلى من فنون !!



لكن لماذا مضت بي سورة الغضب على هذا النحو ؟ إنَّ هذا الموضوع ينبغي أن يُطوى وأن يُنسى .

وقلت لنفسي : ألا تعلمين الإخلاص لله من مسلك الإمام الشافعى الذى ملأ طباق الأرض علمًا ثم قال : وددت لو نُشر هذا العلم دون أن يُعرف صاحبه ؟ .

فلافترضْ أنَّ سحب النسيان غطت علىَّ فلم يُعرف أحد من الخلق أنى سبقت إلىَّ كذا ، أو بَرَزْتُ فى كذا ، إنَّ ذلك لا يضرِّ أمراً يقصد وجه الله فيما يكتب ، بل ربما كان ذلك أعنَّ على تصحيح نيته وتنقية وجهته .

وقالت لي نفسى : لكنَّ هؤلاء بعد أن تعاونوا على طردك من مكانك ، وأرادوا إظهارك فى ثوب الساطع علىَّ غيرك ، فكيف يسمعون خطبك ويقرأون كتبك ثم ينتحلونها لأنفسهم ، و يجعلونك فى أعين الناس الناقل المقلد ؟ ! .

وقلت لنفسي : ما تزالين تتعلَّقين بالخلق ، وتذهبين عن الخالق .

وأخيراً .. قررتُ أن أطوى هذه الصفحة ، سائلاً ربِّي أن يغفر لى ، ولمن جار علىَّ ، أو استهان بي .



# هل تستبدل مليون جنيه بما تملك؟

ما أكثر النعم التي بين أيدينا وإن غفلنا عنها !! .

أقليل أن يخرج الإنسان من بيته وهو يهزم يديه كليهما ، ويمشي على الأرض بخطوات ثابتة ، ويملاً صدره بالهواء في أنفاس رتبة عميقة ، ويمدّ بصره إلى آفاق الكون ، فتنفتح عيناه على الأشعة المناسبة ، وتلتقط أذناه ما يموج به العالم من حراك الحياة والأحياء ؟ .

إنَّ هذه العافية التي تمرح في سعاتها وتستمتع بحريتها ليست شيئاً قليلاً .

وإذا كنتَ في ذهول عمّا أوتيت من صحة في بدنك ، وسلامة في أعضائك ، واقتمال في حواسك ، فاصبح على عجل .. وذق طعم الحياة الموفورة التي أتيحت لك ، وأحمد الله - ولـى أمرك ولـى نعمتك - على هذا الخير الكبير الذي حـبـاك إـيـاه ..

ألا تعلم أنَّ هناك خلقاً ابتلوا بفقد هذه النعم ، وليس يعلم إلـا الله مـدى ما يحسـونـه من ألم ؟ ..

منهم من حبس في جلدـه ، فـما يـسـطـعـ حـرـكـةـ بعدـ أنـ قـيـدـهـ المـرـضـ وـمـنـهـمـ منـ يـسـتجـدـ الـهـوـاءـ الـوـاسـعـ نـفـسـاـ يـحـيـيـ بـهـ صـدـرـهـ الـعـلـيـلـ ، فـما يـعـطـيـهـ الـهـوـاءـ إـلـاـ زـفـرـةـ وـتـخـرـجـ شـاخـبـةـ بـالـدـمـ !! .

وـمـنـهـمـ مـنـ عـاشـ مـنـقـوـصـ الـأـطـرـافـ أـوـ الـمـشـاعـرـ !! .

وـمـنـهـمـ مـنـ يـتـلـوـىـ مـنـ أـكـلـ لـقـمـةـ لـأـنـ أـجـهزـتـهـ الـهـاضـمـةـ مـعـطـوـبـةـ . وـمـنـهـمـ ، وـمـنـهـمـ ..

إـذـاـ كـنـتـ مـعـافـىـ مـنـ هـذـهـ الـأـسـقـامـ كـلـهاـ فـهـلـ تـظـنـ الـقـدـرـ زـوـدـكـ بـثـرـوـةـ تـافـهـةـ ؟

أـوـ مـنـحـكـ مـاـ لـاـ تـحـاسـبـ عـلـيـهـ ؟ـ كـلاـ ،ـ كـلاـ .

إـنـ اللـهـ يـكـلـفـكـ بـقـدـرـ مـاـ يـعـطـيـكـ .

وـمـنـ الـخـطـأـ أـنـ تـحـسـبـ رـأـسـ مـالـكـ هوـ مـاـ اـجـتـمـعـ لـدـيـكـ مـنـ ذـهـبـ وـفـضـةـ !! . إـنـ رـأـسـ مـالـكـ الـأـصـيـلـ جـمـلةـ الـمـوـاـبـ التـىـ سـلـحـكـ الـقـدـرـ بـهـ ،ـ مـنـ ذـكـاءـ ،ـ وـقـدـرـ ،ـ وـحـرـيةـ ،ـ وـفـيـ طـلـيـعـةـ الـمـوـاـبـ التـىـ تـحـصـىـ عـلـيـكـ وـتـعـتـبـرـ مـنـ الـعـنـاـصـرـ الـأـصـيـلـةـ فـيـ ثـرـوـتـكـ مـاـ أـنـعـمـ

الله به عليك من صحة سابغة ، وعافية تتألق بين رأسك وقدمك ، وتألق بها في  
الحياة كيف تشاء .

والغريب أنَّ أكثر الناس يزدرون هذه الشروة التي يمتلكونها ، لا يشركهم أحد فيها ،  
أو يزاحمهم عليها !! .

وهذا الازدراء جُحود يستحق التنديد والمؤاخذة ، قال «ديل كارنيجي» : (أَتُرَاكَ  
تَبِيعُ عينيك فِي مَقْابِلِ مَلْيُونِ دُولَارٍ؟ . كم من الثمن تظنه يكفيك فِي مَقْابِلِ ساقِيك  
أَوْ سمعِكَ ، أَوْ أَوْلَادِكَ؟ أَوْ أَسْرِتِكَ؟ .

احسب ثروتك من هذه الموهب الغالية ، ثم اجمع أجزاءها وسوف ترى أنها تقدر  
بالذهب الذي جمعه آل «روكفلر» وأآل «فورد» بيد أن البشر لا يقدرون هذا كله ! إننا  
كما قال فيما «شوبنهاور» : ما أَقْلَى تفكيرنا فيما لدينا وما أكثر تفكيرنا فيما ينقصنا) .

ويُروى أنَّ «الرشيد» قال لابن السمَّاك : عظُمى - وقد أَتَى بماء ليشربه - فقال :  
«يَا مِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، لَوْ حُبِستَ عَنِّكَ هَذِهِ الشَّرْبَةُ أَكْنَتْ تَفْدِيهَا بِمَلْكِكَ؟

قال : نعم ؟ قال : فلو حبس عنك خروجُها . أَكْنَتْ تَفْدِيهَا بِمَلْكِكَ؟ . قال : نعم .  
قال : فَمَا خَيْرٌ فِي مُلْكٍ لَا يُسَاوِي شَرْبَةً وَلَا بَوْلَةً؟!» .

وإذا كان هذا الواقع يريده أن يهُون ملك الخليفة فيجسم أمام عينيه نعمة مبذولة ،  
ويريه أنها أرجح مما يعتز به من دُولَة وصَوْلَة ، فنحن ننظر إلى هذه العظة من وجهها  
الآخر ، لنرى جميعاً أنا وأنت أنَّ ما يفتديه الملوك بتبيغانهم نحصل عليه دون انتباه ،  
ونناه من غير جهد !! .

فهل نذكر هذا الفضل ؟ وهل نقدر هذه النعمة ؟ وهل نشكر عليها ؟ .

أغلبنا يألف ما يجده من صحة ، فلا يعرف روعته وجلاله إلَّا إذا تعكر عليه  
أو فقده .. وطول الإِلْف قد يتَأَدَّى بنا إلى الاستهانة ، لكن الله لا يُلغى حقيقة ما  
لأن عباده يغضون منها ، إنه يحاسبهم بها على مقدارها كله .

قال رسول الله ﷺ : «والذى نفسى بيده ، إنَّ الرَّجُلَ لِيَجْعَلَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ  
بِعَمَلِ صَالِحٍ لَوْ وَضَعَ عَلَى جَبَلٍ لَأَثْقَلَهُ ، فَتَقُومُ النَّعْمَةُ مِنْ نَعْمَةِ اللَّهِ ، فَتَكَادُ تَسْتَنْدُ  
ذَلِكَ كُلَّهُ ، لَوْلَا مَا يَتَفَضَّلُ اللَّهُ مِنْ رَحْمَتِهِ» (١) .

(1) المندرى .

ومعنى ذلك أن أصحاب النعم مطالبون بمزيد من الجهد والنشاط كفاءً ما أتوا من خير ، ومنحوا من بُرّ .

### ﴿۴۳﴾

والإسلام يرى الحياة نعمة ، ويطلب إلينا أن نشكر الله على ما وهبنا من روح وإحساس ، وسخر لنا من ليل ونهار ، وممكن لنا بين الأرض والسماء . إنَّ هذه الحياة الممتازة الراقية تكريم خاص ينبغي أن نعتزَّ به وأن نبصر حق الله فيه :

﴿كَيْفَ نَكُفِّرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَنَاكُمْ  
لَمْ يُكِنْتُمْ ثُمَّ يُحِيقُّكُمُ شَهَادَةُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (١)

والله قد منحنا الحواس المعروفة لنجاوب مع الوجود ، ونتعرف ما فيه ، ونتذوق بملكاتنا المادية والأدبية جماله وقواه ، حتى إذا غمرنا هذا البهاء المفاض من كل ناحية اهتزَّ مشاعرنا شكرًا للذى أحياناً وكرمـنا :

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بَطْوَنِ أُمَّهَّنِمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ  
وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئَدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٢)

إنَّ المرء قد يغفل عن النطاق الواسع الذى يجتنى منه ما بين يديه من خيرات ، ولو دقق النظر لرأى المائدة التى أمامه تحفل بألوان شتى من أقطار العالم ، ربما كان يأكل قمحاً من روسيا ، ولحماً من إفريقيا ، وفاكهه من أوروبا ، ويشرب شاياً من آسيا ، ويتناول بعض المواد الأخرى من أمريكا .

ولو رجع مرة أخرى لرأى الأرض والسماء كلتيهما قد اجتمعا على خدمته ، وتسير حياته ، فيفهم قول الله عز وجل :

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ أَعْبُدُ وَارْبَعَكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ  
قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشَكُّونَ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَشًا  
وَالسَّمَاءَ بَنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ التَّمَرِّاثِ  
رِزْقًا لَّكُمْ﴾ (٢)

(٣) البقرة : ٢١ - ٢٢ .

(٤) النحل : ٧٨ .

والحق أنَّ مافي الحياة من منعَّصات ومتاعب يجيء من فوضى الناس ونُزق غرائزهم  
وطيش مسالكهم أكثر مما يجيء من طبيعة الحياة نفسها !! .

هَبْ رجلاً ترك لأولاده ثلاثة داراً تسع ثلاثمائة لوفرة مراافقها ورحابة بآحادتها ،  
فاختصم الأولاد في هذه الدار ، وطرد بعضهم بعضاً ، أو سجن بعضهم بعضاً ، هل  
يكون ذلك عيباً في الدار ، أو تقصيراً من ربِّهما ؟ .

أم هو عيب الإخوة المُتشارِكين والشريكَ المُتظالمين ؟ .

كذلك الحياة الدنيا ، والله ما أفسدها ، وكشف ضياءها ، وشاب نعماها ، إلا ركض  
البشر في جوانبها ركضاً مجنوناً ، لا يخضع لشرع الله ، ولا يستقيم مع نصحه وهذا .

لَعْمُرُكَ مَا ضاقت بِلَادُ بَاهِلَهَا      ولَكِنَّ أَخْلَاقَ الرِّجَالِ تُضْيقَ

ولو استرشدنا بمنارات الله التي أنزل علينا ، وأدركنا الخير الواسع الذي أتاح لنا ؛  
لكان لنا وللحياة شأن آخر .

غير أنَّ أكثرنا يحتقر ثروة الحياة والعافية التي يملكتها ، ويعجز تبعاً لذلك عن  
الانتفاع بها ، ثم يبكي أمانىً هينة لم يحصل عليها ، ولو حصل عليها ل كانت بعض  
الواقع الثمين الذي يقدّره حق قدره !! .

حکى «ديل كارنيجي» قصة رجل أرهقه الكدح الفاشل ، واضطربت نفسه تحت  
وطأة الأزمات التي عانها ؛ إلا أنه وعى من صور الحياة درساً أخذ بيده إلى النهاية  
المشرقة ، ولنسمع إليه يقول : ( ... كنت خلال العامين السابقين لهذا الحادث أديرُ  
محلَّ للبقالة في مدينة «وب» ، وقد باعت تجاري بالكساد ، وفقدت فيها كل ما  
ادخرته من مال ، بل عمدت فوق ذلك إلى الاستدانة ، حتى لقد استغرق سداد  
ديوني سبع سنين ، وكانت أغلقت محل البقالة قبل ذلك الحادث بأسبوع ، وفي يوم  
الحادث اتجهت إلى أحد المصارف لأفترض شيئاً من المال يعيننى على الذهاب إلى  
مدينة «كانساس» للبحث عن عمل فيها .

وبينما أنا أسير في الطريق ذاهلاً شارد اللب ، قد خامرني اليأس وأوشك الإيمان  
يفارقني ، إذ رأيت رجلاً مبتور الساقين يريد أن يعبر الطريق .. كان يجلس على  
عارضه خشبية مزوَّدة بعجلات صغيرة ، ويستعين على تسيير هذه العارضة بيديه  
اللَّتين أمسك بكلتيهما قطعتين من الخشب يستند بهما إلى أرض الشارع «ليدفع

عربته» هذه إلى الأمام .. وقد التقيت به بعد أن عبر الشارع ثم بعد أن أخذ يحاول رفع خشنته التي يجلس عليها ليعلو «الطوار» فلما أصبح فوقه أدار «عربته» الصغيرة لي MPSI في سبيله ، فاللتقت عيناه بعينى وابتسم ابتسامة عريضة مشرقة . ثم قال : سعدت صباحاً يا سيدى ، إنه يوم جميل ، أليس كذلك ؟ .

ووقفتُ مكانى أتطلع إلى هذا الرجل ، وأدركتُكم أنا واسع الغنى .  
إنَّ لِي ساقين ، وأستطيع أنْ أمشي !! .

وخرجتُ ما كنتُ أستشعره من الرثاء لنفسى ، وقلتُ : إذا كان هذا الرجل يستطيع أن يكون سعيداً مرحباً مع فقد ساقيه ، فأولى بي أنْ استجمع هذه الصفات ولدى ساقان ، وكنتُ قد عوَّلت على أنْ أفترض من المصرف مائة دولار ، ولكنى إذ ذاك واتتني الشجاعة فطلبتُ مائتين ، وكنتُ قد عوَّلت على أنْ أقول للمصرف : إنَّى ذاهب إلى «كانساس» لأحاول الحصول على عمل ، لكنى بعد هذا قلت للمصرف : إنَّى ذاهب للحصول على عمل ، ولقد حصلت على القرض وحصلتُ على العمل ) .



ما أغلَى العافية التي تسرى في أوصالنا .  
وما أثمن القوى التي زوَّدنا اللهُ بها .

وما أشهى الشمار التي نقطفُها لو أحسنا استغلالها ولم نهدِر قيمتها .  
إنَّ الإسلام يريد أن يلقي أنظارنا بقوة إلى نفَاسة النعم التي تكتنفنا ، وإلى ضرورة الإفادة منها . وإليك هذه القصة التي أراد بها النبي ﷺ تبيهنا إلى جلال النعم التي يستمتع أغلبنا بها ولا يلتفت إليها :

عن جابر رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله ﷺ فقال : «خرج من عندي خليلي جبريل أنفأ فقال : يا محمد .. والذى بعثك بالحق إنَّ لله عبداً من عباده ، عَبَدَ اللَّهَ خَمْسَمَائَةْ سَنَةٍ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ فِي الْبَحْرِ ، عَرَضَهُ وَطَوَّلَهُ ثَلَاثُونْ ذَرَاعًا

في ثلاثين ذراعاً ، والبحر محيط به أربعة آلاف فرسخ من كل ناحية . وأخرج له عيناً عذبة بعرض الإصبع تفيف بماء عذب ، فيستنقع في أسفل الجبل ، وشجرة رُمَّانٌ تخرج له في كل ليلة رمانة .. يتعبد يومه ، فإذا أمسى نزل فأصاب من الوضوء وأخذ تلك الرمانة فأكلها ، ثم قام لصلاته .. فسأل ربه عند وقت الأجل أن يقبضه ساجداً ، وأن لا يجعل للأرض ولا لشيء - من الهوام عليه سبيلاً حتى يبعثه الله وهو ساجد .. قال ففعل . فنحن نحن غر عليه إذا هبطنا وإذا عرجنا ، فنجد له في العلم أنه يبعث يوم القيمة ، فيوقف بين يدي الله فيقول له رب : أدخلوا عبدى الجنة برحمتى ، فيقول : رب بل بعملى ، فيقول : أدخلوا عبدى الجنة برحمتى : فيقول : رب بل بعملى ، فيقول الله : قايسوا عبدى بنعمتى عليه وبعمله ، فتوجد نعمة البصر قد أحاطت بعبادة خمسين سنة ، وبقيت نعم الجسد ، فضلاً عليه ، فيقول : أدخلوا عبدى النار !! فيجر إلى النار .. فينادى : رب برحمتك أدخلنى الجنة ، فيقول : رُدُوه ، فيوقف بين يديه فيقول : يا عبدى من خلقك ولم تك شيئاً فيقول : أنت يا رب ، فيقول : من قواك لعبادة خمسين سنة؟ فيقول : أنت يا رب ، فيقول من أنزلك في جبل وسط اللجة ، وأخرج لك الماء العذب من الماء المالح ، وأخرج لك كل ليلة رمانة ، وإنما تخرج مرة في السنة ، ومن سأله أن يقبضك ساجداً ففعل؟ فيقول : أنت يا رب . قال فذلك برحمتى ، وبرحمتك أدخلوك الجنة ، أدخلوا عبدى الجنة ، فنعم العبد كنت يا عبدى ، فأدخله الله الجنة ، قال جبريل : إنما الأشياء برحمة الله يامحمد»<sup>(١)</sup> .



في هذا الحديث تنويه بقيمة النعم التي يحظى أغلب الناس بها ، وليس فيها أي انتقاص لعنصر العدالة ، أو خدش لموازين الجزاء في الدار الآخرة .

وبعض الحمقى يمطون كلمة : «إنما الأشياء برحمة الله» ليجعلوا الحساب فوضى ، وليوهموا أن العمل لا يرشح لجنة أو نار .

(١) المندري .

إِنَّمَا هِيَ الرَّحْمَةُ الْعُلِيَا يَظْفَرُ بِهِ فَرِيقٌ - وَلَوْ كَانَ عَاصِيًّا - فَيُدْخَلُ الْجَنَّةَ وَيُحْرَمُ مِنْهَا  
آخَرٌ - وَلَوْ كَانَ مُطِيعًا - فَيُدْخَلُ النَّارَ .

وقد شاعت هذه السخافات بين الأجيال المتأخرة من المسلمين ، فضللت فكرهم ،  
أوهنت سعيهم ، ولم تزدهم عن الله إلا بعداً وبدينه إلا جهلاً .

كيف يدخل الجنة من لم يرشحه لها جهده ، والله يقول :

﴿لَمْ يَمْرُدْ دَارُ السَّلَامِ عِنْ دِرَبِهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾<sup>(١)</sup>

ويقول :

﴿وَنَلَكُ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقْيِيًّا﴾<sup>(٢)</sup>

ويقول :

﴿وَنَلَكُ الْجَنَّةَ الَّتِي أُرْسَلْنَا هُنَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾<sup>(٣)</sup>

إنَّ مُعْصيَةَ الله لا تُنْيِل رحْمَتَه ورَضَاَه ، والعمل الصالح هو الذي يقرب من عطفه  
ومغفرته .

وفي مقدمة الصالحات أن تدرك ضخامة النعم التي أسبغت عليك ، وأن تُغالى  
بحقيقتها وحقّها ، فإنَّ الله لو ناقشك الحساب عليها وتقاضاك الوفاء بشمنها لعجزت .



. ٧٢ : الزخرف (٣)

. ١٢٧ : الأنعام (١) مريم : ٦٣ . (٢)

## أنت نسيج وحدك

كنت مُعجبًا به ، تسحرني كلماته ، وتزدهيني توجيهاته .  
وكان يسرّني أن أنجح مثله في حسن البيان ، وقوة التأثير .  
ولكنّي لم أحارّ التشبّه به أو متابعته على طريقته ، وأحسّبني لو حاولت  
لفشل ، لأن طبيعتي تغلبني .

إنني أسيّرُ وفق خصائصي النفسيّة كما يسير القطار على قضبانه ، عندما أخرج  
عنها أتوقف لفوري .

وقد عرفتُ جَمَا من أصحابي يقلدون الرجل فيما دقّ أو جلّ من شأنه كله ،  
ويحبون في التقرب إليه أن يكونوا صُورًا متتشابهة من أعماله وأحواله .  
ولِمَا كان أستاذنا قد اشتغل قرابة عشرين سنة مدرّساً في المرحلة الأولى من  
التعليم ، فقد جرت على لسانه كلمة «صح» التي طالما قالها لتلامذته في فصول  
المدرسة ، كذلك شاع في تصرفه الرّبّت على الكتفين ، مظهر العطف والحنّ اللذين  
يبديهما نحو أطفال المرحلة الأولى ، والغريب أن مقلّديه من طلاب الزعامة تابعواه في  
هذه الكلمات والحركات ، كما تابعوه في حفظ خطبه ومقالاته .

وقد تشاءمتُ من هذا الذّوبان السّمّي وتوقعْتُ السوء منه على الرجل وعلى مقلّديه  
جميعاً ، لأن الصدق والإخلاص والإنتاج والمناصحة والحقيقة نفسها تضيع في هذا  
الجو المفعّل من التمثيل الرديء أو المتقن .

لماذا لا ينمو الرجال على فطرتهم التي خلقهم الله بها كما تنمو أنواع النبات في  
غارتها ، لا التخيّل تتحول أعناباً ، ولا الشمار تحاكي غيرها في طعم أو لون .

إنّ أيسّر شيء على الشخص المقلّد أن يلغى شخصيته أمام من يُفتن فيهم .  
إذا أبدوا رأياً أيّده ، وإذا طلبوا مشورة تحرّي الإدلة بأقرب الأمور إلى هواهم .. !!  
وقد قلت يوماً لبعض هؤلاء المقلّدين : ما هكذا كان يعامل أصحاب محمدٍ محمداً  
وهو المثل الأعلى للخلقية !! .

فعندما استشار أصحابه في أسرى «بدر» انطلق كلّ على سجيته يبدى ما عنده ،  
كما يعتقد .

«فأبُو بَكْرٍ» الْخَلِيم يُؤثِّر الصَّفْح ، و «عُمَرٌ» الصَّارِم يُرى العَقْوَة .  
وقد عَقَّبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى مشورة صَاحِبِيهِ بِأَنْ شَبَّهَ هَذَا «بِإِبْرَاهِيمَ» الَّذِي قَالَ لِقَوْمِهِ :

﴿فَمَنْ تَبَعَّنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ <sup>(١)</sup>

وَشَبَّهَ ذَاكَ «بِنُوحٍ» الَّذِي قَالَ :

﴿رَبِّ لَا نَدْرَعُ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكُفَّارِ دَيَّارًا ﴿٢﴾ إِنَّكَ  
إِنَّكَ زَرُّهُمْ يُضِلُّونَ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُونَ وَلَا فَاجِرًا كُفَّارًا﴾ <sup>(٢)</sup>

وَظَاهِرٌ أَنَّ كُلَّ الصَّاحِبِينَ تَحْرِي الْحَقَّ كَمَا يَهْدِيهِ إِلَيْهِ تَفْكِيرُهُ الْمُسْتَقْلُ ، وَمَزاجُهُ  
الخَاصُّ فِي عَلاجِ الْأَمْوَارِ .

وَهُذَا الْمُسْلِكُ الْحَرُّ الْمَنْزَهُ عَنِ الْمَلَقِ وَالْمَيْوَعَةِ هُوَ الْإِسْلَامُ : «فَطْرَةُ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ  
النَّاسَ عَلَيْهَا» .

وَبِهَذَا الضَّرِبُ مِنَ الشَّمَائِلِ النَّظِيفَةِ وَالسُّجَابِيَا الأَبِيَّةِ النَّقِيقَةِ التَّفَّ حَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ  
أَنَّاسٌ لَا يَرَى أَحَدُهُمْ مَانِعًا لِبَيْتِهِ مِنْ أَنْ يَطْلُبَ إِلَيْهِ تَغْيِيرَ مَنْزِلِهِ فِي مِيدَانِ الْقِتَالِ لِأَنَّ  
الْأَفْضَلُ كَذَا ، وَيَرَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الصَّوَابَ فِي مشورةِ صَاحِبِهِ فَيَأْخُذُ بِهَا .  
أَلَا لَيَتَ الزُّعمَاءُ وَالرُّؤْسَاءُ عِنْدَنَا يَعْرُفُونَ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ .

إِنَّهُمْ يَؤثِّرُونَ مِنْ يَذِيبُ نَفْسَهُ فِيهِمْ - عَلَى ضَعْفِ الْكَفَايَةِ أَوْ اِنْدَامِهَا - وَيُؤْخِرُونَ  
أَصْحَابَ الْطَّبَاعِ الْحَرَّةَ ، وَإِنْ وَثَبَتَ بِهِمِ الرِّسَالَاتُ وَالْأَعْمَالُ إِلَى الْأَمَامِ .

وَهَذِهِ هِيَ الطَّامَّةُ !! وَبِلْغَنِي أَنَّ الزَّعِيمَ الْرُّوسِيَّ «سَتَالِينُ» <sup>(٣)</sup> فَصَلَّى أَحَدُ كِبَارِ  
الْمُوْظَفِينَ مِنْ مَنْصِبَهُ ، لِمَاذَا ؟ لِأَنَّ «سَتَالِينُ» مَا اسْتَشَارَ هَذَا الْمُوْظَفَ فِي أَمْرٍ إِلَّا أَشَارَ  
عَلَيْهِ بِمَا يَظْنُهُ أَقْرَبَ إِلَى مَرْضَاتِهِ .

وَمُثْلُ هَذَا الْمُوْظَفِ لَا يُرجِي مِنْهُ نَفْعًا ، وَلَا يُؤْمِنُ عَلَى مَصْلَحةٍ .

وَقَدْ تَخْلَصَ مِنْهُ الزَّعِيمُ الْرُّوسِيُّ ، وَلَوْ كَانَ فِي رِبْعِ الشَّرْقِ لَبَقِيَ مَوْضِعُ الرِّعَايَا  
إِلَى الْمَمَاتِ .

(١) إِبْرَاهِيمٌ : ٣٦ .

(٢) نُوحٌ : ٢٦ ، ٢٧ .

(٣) لَا نَدْرِي بُعْدَ الَّذِي كَتَبَ فِي الرِّجْلِ ، أَهْذِهِ الْقَصَّةُ وَقَعَتْ ، أَمْ افْتَعَلَتْ لَهُ .

والمحاكاة ، وذوبان الشخصية ، وتمثيل الأكابر ، علَّ لا تُنْدِمُ فِي مَجَالٍ قَدْرَ مَا تَذَمَّ  
فِي الْمَجَالِ الديني ، حيث لا يبلغ أحد درجة التقوى إِلَّا إذا استقامت خلائقه وطابت  
سجاياه .

وكل ظاهر - مع فقدان هذا الأساس - لا يزيد المرء إِلَّا مَسْخًا .

من بضع سنين سمعت غلاماً في كلية الحقوق - اشتغل بعده في الصحافة -  
يخطب جمعاً كبيراً من الناس ، ويتناول موضوعاً أشبه بوحدة الوجود ، أو الفناء في  
الله ، أو لا أدري بالضبط ، من هذه الموضوعات التي تكلم فيها الصوفية بعد دراسات  
ومجاهدات مُرّة ، ولم ينتهاوها إلى حدود يقرّها الإسلام الحقُّ .

وسمعت الغلام الخطيب يتمثل بقول الشاعر الصوفي في مناجاة الله :

ولو خَطَرْتُ لِي فِي سُوَاكَ إِرَادَةٍ عَلَى خاطِرِي يَوْمًا حَكَمْتُ بِرِدَتِي !!

وهذا حكم باطل . وقد نسمعه من أساتذته الكبار في ميدان الدعوة والتعبد  
والمحايدة المضنية ، فلا تُسِيغه منهم إِلَّا على تجوّزٍ وإِغماضٍ .

فكيف نقبله من غلام بينه وبين هذه المجاهدات أمد بعيد؟ ! .

وعادت بي الذاكرة إلى فصول المدرسة الأولى يوم كنا نحفظ قطعاً من روائع الشعر  
والنشر ، ونُكَلِّفُ بإلقائتها . لقد حفظ زميل لي يجيد فن الإلقاء خطبة «طارق بن زياد»  
وهو يحرّض رجاله على مهاجمة القوط .

لقد تخيلنا أنَّ السفن المحترقة وراءنا ، وأنَّ جيوش الإسبان تجاهنا ، وأنَّ ميدان  
المعركة قد انتقل إلى رحمة المدرسة !! .

ماذا لو زعم التلميذ الماهر أنه «طارق بن زياد» نفسه؟ ! .

إنَّ المهزلة التي يضحكك افتراضها هي التي وقعت في مجال التدين نفسه ، فقد  
رأيتُ الغلمان الذي يحتاجون إلى مراحل هائلة من التهذيب والتنقية يقفزون إلى  
المরتبة الخرافية لبيت «ابن الفارض» :

ولو خَطَرْتُ لِي فِي سُوَاكَ إِرَادَةٍ عَلَى خاطِرِي يَوْمًا حَكَمْتُ بِرِدَتِي  
وَمِنْ ثُمَّ تَحُولَ تَمْثِيلَهُمْ لِبَعْضِ الْكَبَارِ .. إِلَى كَبَارٍ فِي نَظَرِ أَنفُسِهِمْ وَنَظَرِ الْجَاهِلِينَ !! .

إن خروج الإنسان على سجاياه ، وانفصاله عن طباعه العقلية والنفسية التي لا عوج فيها أمر يفسد على الإنسان حياته ويثير الاضطراب في سلوكه .

وقد علمتَ قصة الغراب الذي راقه المشى على الأرض ، فلا هو استطاع الخطوه كما يبغى ، ولا هو استطاع الطيران كما خلق .

إنه عسير جداً على الإنسان مهما حاول أن يكون غيره .

قال «دييل كارنيجي» : (سألت مدير المستخدمين في شركة «سوكوني فاكوم» عن الغلطة الكبرى التي يرتكبها طلاب العمل في شركتهم فأجاب : إنَّ أكبر غلطة يرتكبها طلاب الأعمال هي أنهم لا ينطلقون على سجاياهم ، فبدلاً من أن يصارحوك بحقيقة أفكارهم وأرائهم يحاولون أن يجيبوا على أسئلتك بما يظنُّونه الجواب الذي تريده أنت ، ولكن هذه الحيلة قلماً تُفلح ، فالناس يعرفون الشخص الذي يدعى ما ليس فيه ، كما يعرفون العمالة الزائفة .

وقال العالم النفسي «وليم جيمس» : لو قسناً أنفسنا بما يجب أن تكون عليه لأنَّه لنا أننا نتصف بأحياء ، ذلك أننا لا نستخدم إلاً جانبًا يسيراً من مواردنا الجسمانية والذهنية ، أو يعني آخر أن الواحد منا يعيش في حدود ضيق يصنعها داخل حدوده الحقيقة ، فإنه يمتلك قوى كثيرة مختلفة ، ولكنه لا يفطن إليها عادة ، أو يتحقق في استغلالها كلها) .

قال «كارنيجي» : (إنك شيءٌ فريد في هذا العالم . إنك نسيج وحدك ، فلا الأرض منذ خلقت رأت شخصاً يشبهك تمام الشبه ، ولا هي في العصور المقبلة سوف ترى شخصاً يشبهك تمام الشبه .

ويبيئك علم الوراثة بأنك تخلَّقت جنيناً نتيجة للتلاقي أربعة وعشرين زوجاً من «الكريموزومات» أربعهم فيها بالنصف كلٌّ من والديك ؛ وقد تضافت هذه الأزواج الأربع والعشرون على توريثك الصفات التي تتميز بها .

ويقول «امران شاينفلد» في كتابه «أنت والوراثة» : إنَّ كل «كريموزوم» يحمل جينات تعداد بالمئات ، وأنَّ واحداً فحسب من هذه الجينات يستطيع في بعض الأحيان أن يغير حياة المرء تغييرًا شاملًا .

نعم فالحق أننا مخلوقون بدقة تثير الرهبة وتستدعي الإعجاب ، وحتى بعد التقاء أبيك أحدهما بالأخر وتزاوجهما فإن احتمال خروجك أنت بالذات إلى حيز الوجود كنسبة واحد إلى ٣٠٠,٠٠٠ بليون ، أو يعني آخر لو أن لك ٣٠٠,٠٠٠ بليون آخر وأخت لكانوا جمیعاً مختلفین عنك مناقضین لك .

ثم يقول : أنت نسيج وحدك في هذه الدنيا . فاغبط نفسك على هذا ، واعمل على الاستزادة مما ركبته فيك الطبيعة من مواهب وصفات .

قال : «إيمeson» : سوف ينتهي كل امرئ إلى وقت يدرك فيه أنَّ الحسد جهل ، وأنَّ التشبعُ انتحار ، وأنَّه ينبغي للمرء أن يأخذ نفسه على علاّتها ، ويرضى بها كما قسمها الله له .. ويعلم أنَّ الأرض على امتلائِها بالخيرات لن تبهه حبة من شعير ما لم يبذل الجهد في تعهد تلك الأرض التي تنبت له الشعير ، كذلك القوة التي أودعها الله فيه إنها فريدة في نوعها ، فلا أحد غيره يعلم كنهها ، ولا هو نفسه يحيط بمداها ما لم يضعها موضع التجربة) .

### ٣٣٣٣٣

على هذه الأسس العلمية التي نقلناها وشرحناها فسرَّت مجلة «منبر الإسلام» قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُولِيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ  
أَيْنَ مَا تَكُونُوا إِنَّ اللَّهَ بِجِمِيعِ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ عَقِيدَرٌ﴾<sup>(١)</sup>

ولا بأس أن ننقل هنا هذا التفسير للأية ، إذ هو تلخيص حسن لكلام «ديل كارنيجي» واهتداء بالشواهد التي ساقها ، ثم إنه لا تكُلف فيه ولا جُور .

قال المحرر :

وردت هذه الآية الكريمة في سياق النَّظُم الذي تضمَّن حديث القِبْلَة وتحويلها من بيت المقدس إلى الكعبة المكرمة .. ومن ثمَّ كان لا بدَّ للمفسِّرين أن يلحوظوا الرابطة التي بينها وبين موضوع القِبْلَة ، وأن يبيّنوا حظها الذي تؤديه من معانٍ لهذا الحديث ، فقالوا : ١ - الوجهة هي القِبْلَة ، ومن معنى الآية على هذا : إن لـكُلَّ أهل دين وملة قِبْلَة يتَّجهون إليها ، مشركيَّن كانوا أم كتابيين .

(١) البقرة : ١٤٨ .

٢ - إنها خاصة بأهل الكتب السماوية وحدهم ، وهم : اليهود ، والنصارى ،  
وال المسلمين ، فلكلّ منهم قبلة خاصة به .

٣ - إنها خاصة بال المسلمين وحدهم ، والمراد أن لكل قوم من المسلمين جهة من  
الكعبة يصلون إليها ، جنوبية ، أو شمالية ، أو شرقية ، أو غربية .

### اختلاف خصائص النفوس

على أنَّ الآية الكريمة تتَّسع لمعنى آخر ، إذ تنص على أنَّ لكل إنسان مذهبًا  
في الحياة ، أو اتجاهًا خاصًّا يتَّجه إليه ، بحسب ما يجد في نفسه من ميل طبيعي ،  
أو ملاءمة لخصائص ذاته .

ولسنا نُقصِّر المذهب هنا على أن يكون للإنسان في الحياة مبدأ واضح متميَّز في  
السياسة ، أو الاقتصاد ، أو الفلسفة ، أو نحوها ، بل نريد الدائرة الواسعة التي تشمل  
البشر جميعاً أصحاب المذاهب المتميزة وغير المتميزة .

فإنَّ الناسَ ليسوا نسخة واحدة مكرَّرةً متماثلةً في ملامح النفس و مشابه البدن ..  
فهم من حيث القالب الحسِّي مختلفون طولاً و قصراً ، ونحافة وغلاطاً ، وقوَّة وضعفاً ،  
وصحة ومرضاً .. وفي صفة الأنف والعين والفم والجبهة وسائر ملامح الوجه .. أيُّ  
أنَّ أبدانهم ووجوههم ليست مصبوبة في قوالب متماثلة ، ولا مطبوعة على مثال  
واحد .. بل إن الاختلاف ليذهب في تلك الناحية الحسيَّة حتى يشمل الأمور الدقيقة  
التي لا يكاد يُلتفت إليها ، كتغير آثار البنان في البصمات المختلفة لملائين البشر .

هذا الاختلاف المعجز العجيب الذي يدلُّ على قدرة الخالق سبحانه يقابله اختلاف  
آخر في ملامح النفس ، وتسوية الطبع ، وتقدير الغرائز ، وخصائص الفكر  
والعاطفة .. فكما يختلف الناس في التقسيم الحسيَّة الظاهرة يختلفون في الملامح  
النفسية الباطنة .

فلكل إنسان قالبه البدني الذي لا يماثله فيه أحد ، وكيانه المعنوي الباطن الذي  
يتميز به عمن سواه .

## اختلاف وجهات القلوب :

ومعروف أنَّ القالب الحسنيَّ إنْ هو إلا وعاء أو ظرف لخصائص الكيان المعنوي ، وأنَّ العوامل الباطنة المختلفة هي التي تحكم في توجيهه البدن إلى الوجهة التي تشاء ، وتفرض عليه من ألوان التصرفات ما تريد ، فللطبع أحکامه ، وللغرائز مطالبه ، وللعاطفة أشواقها وميولها ، وللفكر منطقه ونقده ، وتمييزه . وكل ذلك لا يستطيع أن يتخذ سبيلاً إلى ظاهر الحياة إلاَّ عن طريق البدن . أى لا يستطيع أن يعبر عن نفسه ، ويكشف حقيقة مستوره إلاَّ بوساطة الأجهزة المختلفة والجوارح المتباعدة التي يتتألف منها البدن ، فالماء حين يتكلم ، أو يكتب ، أو يشير بيده ، أو يمشي برجله ، أو يبيع ، أو يستر ، أو يتصل بالناس ، أو يتقلب في أنواع التصرف ؛ إنما ينبغى بناء بواسعه كامنة ، وإملاء عوامل باطنة ، وما حركات البدن إلاَّ التعبير الطبيعي عن مقاصد تلك البواعث والعوامل .

فحقيقة الإنسان - إِذَا - ليس هي بدنه الذي يؤمر فيأتمر ، ويُساق فيتحرَّك ، ويُسخر فيلزم ما يلى عليه أو يرسم له ، بل هي المزاج المعنوي الذي يجمع اتجاهات الطبع والغرائز والعاطفة والفكر في نسق واحد ، أو كيان نفسي يطبع سلوك صاحبه بطابعه الخاص ، ويرسم له في أذهان الناس شخصية متميزة عمماً سواها .

هذا المزاج المعنوي ، أو هذا الكيان النفسي هو حقيقة المرء التي تهب له وجوده المستقل ، وتمييزه بخصائصها الذاتية فلا يماثله فيها أحد .

وبما أنَّ سلوك المرء إنْ هو إلاَّ الخط الذي ترسمه له طباعه ، وميوله وغرائزه وذهنه ، فلا جرم أن يكون لكل امرئ خطه الذي لا يشاركه فيه أحد ووجهته التي يتميَّز بها دون الناس .

وهذا كلُّه هو من معانى قوله سبحانه : «ولكلَّ وجهةٍ هُوَ مُؤْلَيْهَا» ، أى لكل من الناس قبلة ، أى وجهة ، على ما ذكره الإمام القرطبي في تفسيره<sup>(١)</sup> .

## احترام الوجود الذاتى للإنسان

والحق سبحانه لا يريد بهذا القول الكريم مجرد التقرير والخبر وإفاده المعنى ، بل يريد النص على سُنَّة باقية ، وقانون أصيل من قوانين صلاح الفرد والمجتمع .

(١) الجامع لأحكام القرآن .

١ - ي يريد النص على أنَّ لكل إنسان شخصيته المستقلة ، فإذا هو حافظ على هذا الاستقلال ، ودعم أصوله ، وزكي فروعه ، وعاش في نطاق ذاتيه الخاصة ، فقد مضى على سُنَّة اللَّهِ إِذْ أَرَادَهُ أَمَّةً وحده ، ودولة قائمة بذاتها .. وإذا هو لم يعرف لنفسه حقَّها ، فنافق الرؤساء ومن إليهم ، أو مضى يقلُّد بعض ذوى الشهرة في حركاتهم وأصواتهم ومظاهرهم وطريقة أدائهم للأعمال ، أو راح على غير سجيته يتتكلَّفُ الأمور ويرأى الناس في تصرفاته ، فقد جانب سُنَّة اللَّهِ ، وأهدر شخصيته ، وغير خلق اللَّه الذي آثره به وسوَّاه عليه ، وتغيير خلق اللَّه ما فتنَ دِيَنَ الشيطان منْ أقسام بين يدي رب العزة جل شأنه : ﴿ وَلَا مِنْهُمْ فَلَيَغِيِّرُونَ خَلْقَ اللَّهِ ﴾ (١)

٢ - ويريد سبحانه أن يقرَّ لـكـلـ إـنـسانـ حـقـهـ فـىـ اـخـتـيـارـ الـوـجـهـةـ التـىـ يـرـيدـهـاـ لـخـدـمـةـ نـفـسـهـ وـقـوـمـهـ ، أـىـ حـقـهـ فـىـ أـنـ يـعـيـشـ حـرـاـ فـىـ نـطـاقـ الـجـمـعـ الصـالـحـ المـتـكـافـلـ ، إـذـ يـجـبـ أـنـ يـكـوـنـ هـذـاـ الـاتـجـاهـ مـنـ نـبـعـ فـؤـادـهـ وـوـحـىـ ضـمـيرـهـ وـوـجـدـانـهـ ، وـالـلـهـ سـبـحـانـهـ يـقـولـ : ﴿ هُوَ مُؤْلِيـهـ ﴾ ، أـىـ لـكـلـ إـنـسانـ وـجـهـهـ هـوـ الـذـىـ يـتـوـلـىـ نـفـسـهـ التـوـجـهـ إـلـيـهـ ، أـوـ هـوـ الـذـىـ يـوـلـىـ وـجـهـهـ وـنـفـسـهـ نـحـوـهـ . فإذا حملناه على غير طبيعته ، فقد حملناه على الرَّهَقَ ، وأدخلنا التشويش على عوامله النفسية المؤلفة ، وذلك أيضاً من تغيير خلق الله .

ويريد الله سبحانه أن يقرر حرية الرأي لـكـلـ إـنـسانـ . فـلـكـلـ إـنـسانـ وـجـهـهـ يـنـظـرـ إـلـىـ الـحـيـاـةـ مـنـ زـاوـيـتـهـ ، وـلـاـ يـدـرـىـ أـحـدـ فـىـ أـىـ زـاوـيـةـ يـكـوـنـ الـحـقـ وـالـخـيـرـ . وـرـبـ حـكـمـةـ يـنـشـدـهـ كـبـارـ النـاسـ فـىـ أـفـاقـهـمـ الـعـقـلـيـةـ مـنـ زـوـاـيـاـهـمـ الـخـاصـةـ فـلـاـ يـجـدـونـ لـهـاـ أـثـرـاـ ، لـأـنـهـاـ مـخـبـئـةـ عـنـهـمـ فـىـ زـاوـيـةـ رـجـلـ مـغـمـورـ ، إـذـ نـظـرـ إـلـيـهـ بـيـنـهـاـ فـىـ بـسـاطـةـ وـوـضـوـحـ ..

فالنظر إلى الحياة من زواياها المختلفة يكفل لنا الإحاطة بأوفر حظ من الصواب والخير ، أو هو نوع من التعاون الذهني على استشارة ما في هذا الكون من منافع حسية ومعنوية لمصلحة الفرد والمجتمع . ولذلك خلقنا الله سبحانه متفاوتين في طبيعة التفكير ، وجعل لكلَّ منا زاويته الخاصة التي ينظر إلى الحياة من عندها ..

وليس معنى حرية التفكير أنَّ الإنسان حرٌّ في تشيط مواهبه العقلية وعدم تنشيطها ، فإن شاء فكرٌ وشحد ذهنه ، وإن شاء تجاهل كل ما حوله ، وترك ذهنه

كاسداً معطلًا .. لا .. فإنَّ لكلَّ موهبة وهبها لنا سبحانه حقاً علينا ، هو تنشيطها ، واستعمالها فيما خلقت له ، وذلك من صميم شكر الله .. أما تعطيلها وإهمالها فهو ضربٌ من الكنود والجحود لنعمته سبحانه .

فوق أنه ضرب من الحرمان والشقاوة ..

وما قيمة المرء إذا عاش بذهن كاسدٍ معطلٍ !؟ .

وما قيمة الأمة إذا عاش ملايينها الكثيفة في معزل عن تمحيص الأمور وإدراك وجوه الحق فيها !؟ .

إنَّ لك أن تتصورَ مبلغ ما يفوتها من المنافع وينالها من الشلل والتآخر إذا كانت زوايا البحث عن الحق ومنابع الخير فيها معطلة ، أو مُهدرة على هذا النحو الأثيم .

والقول الفصل في حرية الرأي أنها حقٌّ طبيعي للمرء ، ولكنَّ حقٌّ يتخد صفة التكليف اللازم ، والرسالة الواجبة الأداء ..

ذلك ، وحرية الرأي هي حارس العدالة في الشعب ، والسياج الذي يكتفِّي الحاكم أن يستبدَّ بأمور الناس .

ولا قيام لحكم الطاغية إلا على الأذهان المسوخة والأفكار الراكدة البلياء ، والمحجر على ذوى الرأى أن ينظروا إلى الأمور إلا من الزاوية التي يراها لهم الطاغية .. وقد أدرك «فرعون مصر» قديماً تلك الحقيقة ، فأعلن إلغاء حرية الرأي بقوله :

﴿ مَا أَرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرِّشادِ ﴾<sup>(١)</sup> أي أنه اعتزم تعطيل مَلَك الرأي فيهم ، فلا يسمح أن يكون لهم رأى في الأمور غير ما يرى هو فيها .

وذلك من مَسْخِ الموهاب ، وتغيير خلق الله ، وصميم أمر الشيطان .

### احتمال الفساد والفرقـة

ولكن ما عاقبة أن يصبح كل منا حرّاً في تفكيره ، وميوله ، وشخصيته واتجاهه في الحياة ؟ .

ألا يجوز أن يفضي بنا ذلك إلى ضرب من البلبلة ، والفرقـة ، والتدابر ، ونبـلـى بالشـحـ المـطـاعـ ، والـهـوـيـ المـتـبعـ ، وإعـجـابـ كلـ ذـيـ رـأـيـ بـرأـيـهـ ؟ .

(١) غافر : ٢٩ .

إن تلك المبادئ تكون مأمونة العاقبة لو أنَّ طبيعة الإنسان مفطورة من الخير المخض الذي لا يشوبه الاستعداد للشر .. أما وهو يحمل في طبيعته خصائص الحَمَّاً المتن إلى ما يحمل من سر الروح العلوى ، فإنَّ إطلاق تلك المبادئ بلا قَيْد هو إطلاق لقوى الشرّ تعیث في الأرض فساداً ، فيکثر فينا السخفاء والماجنون ، ويقلُّ التعاون ، وتنتشر المنكرات ، ويصعب جمع أفراد الأمة في رأى عام ، وخطة تكفل وحدتها ومصلحتها .

### ضمان الصلاح والوحدة

لهذا نرى الآية الكريمة تقرُّ الشروط وتضع القيود التي تنفي عنَّا شرَّ تلك المبادئ ، وتکفل خيراً وبرَّها ، وذلك إذ يقول سبحانه :

**﴿فَاسْتِبْقُوا الْخَيْرَاتِ﴾**

**﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يُأْتُ بِكُوَّلِ اللَّهِ بِجَمِيعِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ عَقِيدٌ﴾<sup>(١)</sup>**

إِذَا كان لكل إنسان وجهته الخاصة ، فيجب أن تكون لتلك الوجهة غايةً معينة تنظم سيرها ، وتحكم أمرها ، ولا نستطيع أن نتصور اتجاهًا للمرء ليس له غاية مقصودة أو غرض منشود إلا أن يكون أبله أو مجنوناً .

ولا ينزع أحدٌ في أن الغاية التي يصلح بها اتجاه المرء - ولا يصلح له اتجاه سواها - هي الخير ، فذلك مقرر في كل فطرة ، وكل فلسفة رشيدة ، وكل دين ، ولذا يأمرنا الله سبحانه بقوله : **﴿فَاسْتِبْقُوا الْخَيْرَاتِ﴾** .

أى فاجعلوا الخير غايتكم في كل وجه تنبئون إليه .

إِذَا تقرر الهدف كانت وحدة الأمة .

وإِذَا كان الخير هو الغاية ، كان الصلاح لا محالة .



إحساس المُرء بِنَفْسِهِ إِذَا زَادَ عَنْ حَدَّهُ يُحْجِبُهُ عَنِ  
الآخِرِينَ وَيُحَصِّرُهُ فِي عَالَمٍ خَاصٍ بِهِ.

وَلَا يَزَالُ ماضِيَا فِي تَكْبِيرِ شَانَهُ وَتَهْوِينِ غَيْرَهُ وَلَا  
تَرْزَالُ نَفْسَهُ تَعْجِبَةً وَتَنْسَجُ حَوْلَ فَكْرَهُ غَلَالَةً سَمِيكَةً  
مِنَ الْغَرُورِ وَالشَّرَاهَةِ.

وَلَا تَرْزَالُ "أَنَا" تَنْمُو فِيهِ وَيَتَضَاعِفُ وَرْمُهَا وَتَضَخِّمُهَا،  
حَتَّى يَقُولَ "أَنَا رِكْمُ الْأَعْلَى".

إِنْ حُبُّ الدَّاَتِ، وَالْعِيشُ فِي إِفْرَازَاتِهَا - وَلَوْ كَانَتْ  
حَرِيرًا كَالَّذِي تَفَرَّزَ لَهُ دُودَةُ الْقَزِّ مِنْهُ حَتَّى بِالْاخْتِنَاقِ  
وَهُوَ اخْتِنَاقُ أَدْبِيٍّ وَإِنْ وَصَلَ صَاحِبُهُ إِلَى قَمَةِ الْجَهَدِ  
وَالسُّلْطَانِ.

محمد الغزالى

# اصنع من الليمونة اللحة شراباً حلواً

الصبر - كما عرّفه علماؤنا : حبس النفس على ما تكره .

وهذا تفسير حسن إذا عنينا به مواجهة الشدائـد البغيضة بثبات لا نكوص معه ،  
وعقل لا يفقد توازنه واعتداله .

غير أنّ حبس النفس على ما تكره إذا عنينا به دوام الشعور بمرارة الواقع ،  
وطول الإحساس بما فيه من سوء وأذى ، قد ينتهي بالإنسان إلى حالٍ منكرة من  
الكآبة والتبلد .

وربما انهزم الصبر أمام المقارنات التي تعقدـها النفس بين مانابـها وما كانت تحـب  
وتـشتهـي ، كما قال الشاعـر :

أقول لنفسي في الخلاء ، ألوـها : لكـ الـوـيل ، ماـ هـذـا التـجـلـدـ والـصـبرـ؟

وهـذهـ نـهاـيـةـ الإـحـسـاسـ المـخـضـ بـالـأـلـمـ ، والـخـبـطـ فـىـ ظـلـمـاتـهـ دونـ التـمـاسـ نـورـ يـهـدـىـ فـىـ  
ديـاجـيـهـ ، أوـعـزـاءـ يـنـقـذـ مـنـ مـأسـيـهـ!!

والإسلام يـعـملـ عـلـىـ تحـوـيلـ الصـبـرـ إـلـىـ رـضـاـ فـىـ الـجـالـ الذـىـ يـصـحـ فـيـ هـذـاـ التـحـوـلـ ،  
ولـنـ يـتـمـ تـذـوقـ النـفـسـ لـبـرـ الرـضاـ بـإـصـدارـ أـمـرـ جـافـ ، أوـفـرـضـ تـكـلـيفـ أـجـوفـ ، كـلـاـ ،  
فـالـأـمـرـ يـحـتـاجـ إـلـىـ تـلـطـفـ مـعـ النـفـسـ ، وـاستـدـرـاجـ لـمـشـاعـرـهـ النـافـرـةـ ، وـإـلـاـ فـلـاـ قـيمـةـ لـأـنـ  
تـقـولـ : أـنـاـ رـاضـ ، وـنـفـسـكـ طـافـحـةـ بـالـضـيقـ وـالتـقـرـزـ!!

وـأـوـلـ مـاـ يـطـلـبـهـ إـلـاسـلـامـ مـنـكـ أـنـ تـتـهـمـ مـشـاعـرـكـ حـيـالـ مـاـ يـنـزـلـ بـكـ .

فـمـنـ يـدـرـىـ؟ رـبـ ضـارـةـ نـافـعـةـ صـحـتـ الـأـجـسـامـ بـالـعـلـلـ ، رـبـ مـحـنـةـ فـىـ طـيـهاـ مـنـحةـ .  
مـنـ يـدـرـىـ؟ رـبـ كـانـتـ هـذـهـ المـتـاعـبـ التـيـ تعـانـيـهـ بـاـباـ إـلـىـ خـيـرـ مـجـهـولـ ، وـلـئـنـ أـحـسـنـاـ  
التـصـرـفـ فـيـهـ لـنـحـنـ حـرـيـونـ بـالـنـفـاذـ مـنـهـ إـلـىـ مـسـتـقـبـلـ أـطـيـبـ .

﴿ وَعَسَىٰ أَن تُكَرِّهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ  
وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾<sup>(١)</sup>

إنَّ أكثرنا يتبرَّم بالظروف التي تحيط به ، وقد يضاعف ما فيها من نقص وحرمان ونكَد ، مع أنَّ المتابِع والآلام هى التربة التي تنبت فيها بذور الرجولة .  
وما تفتَّقت مواهِب العظَماء إلَّا وسط ركام من المشقات والجهود .

وفي هذا يقول «ديل كارنيجي» : (كلما ازددتُ إيجالاً في دراسة الأعمال العظيمة التي أنجزها بعض النوابغ ، ازددتُ إيماناً بأن هذه الأعمال كلُّها ما تمت إلَّا بدوافع من الشعور بالنقص ؛ هذا الشعور هو الذي حفزهم إلى القيام بها واجتناء ثمراتها . نعم ، فمن المحتمل أنَّ الشاعر «ملتون» لم يكن يقرض شعره الرائع لو لم يكن أعمى ، وأنَّ «بيتهوفن» لم يكن ليؤلف موسيقاه الرفيعة لو لم يكن أصمّ ..).

إنَّ هؤلاء المصابين لم يجسِّموا مصاديبهم ثم يطوفوا حولها مُعْولين منتحبين ، ولم يدعوا ألسنتهم تلعق ما في واقعهم المرّ من غضاضة ، كلاً .

لقد قبلوا الواقع المفروض ، ثم تركوا العنان لمواهِبهم تحوّل محنته إلى منحة ، وتحوّل ما فيه من كدر وطنين إلى ورود ورياحين .

وتلك هى دعائِم العظمة ، أو هذا هو تحويل الليمونة الحامضة إلى شراب سائع ، كما يقول «كارنيجي» أو كما نقل عن «إيرسون» في كتابه «القدرة على الإنجاز» حيث تساءل : (من أين أتتنا الفكرة القائلة إنَّ الحياة الرغدة المستقرة الهدائة الخالية من الصعاب والعقبات تخلق سعداء الرجال أو عظَماءهم؟ إنَّ الأمر على العكس ، فالذين اعتادوا الرثاء لأنفسهم سيواصلون الرثاء لأنفسهم ولو ناموا على الحرير ، وتقلُّبوا في الدَّمَقْس . والتاريخ يشهد بأنَّ العظمة والسعادة أسلمتا قيادهما لرجال من مختلف البيئات ؛ بيئات فيها الطَّيْب وفيها الخبيث ، وفيها التي لا تميز بين طَيْب وخبيث .

في هذه البيئات نبت رجال حملوا المسؤوليات على أكتافهم ، ولم يطرحوها وراء ظهورهم ..).



(١) البقرة: ٢١٦ .

وليس كل امرئ يُؤتى القدرة على تحويل قسمته المکروهه إلى حظ مستحب ذى جَدوى ، فإن عُشاق السُّخْط ومدمى الشکوى أفشل الناس في إشراب حياتهم معنى السعادة إذا جفَّت منها ، أو بتعبير أصح إذا لم تجِء وِفق ما يشهون .

أما أصحاب اليقين وأولو العزم فهم يلقون الحياة بما في أنفسهم من رحابة قبل أن تلقاءهم بما فيها من عَنَّت .

وكما يفرز الجسم عصارة معينة لمقاومة الجراثيم الهاجمة يفرز هؤلاء معانٍ خاصة تترج بأحوال الحياة وأغيارها فتعطيها موضوعاً وعنواناً جديدين .

واسمع إلى ابن تيمية وهو يقول - مستهيناً بتنكيل خصومه : إن سجنى خلوة ، ونَفَّيْ سِيَاحَة ، وَقُتْلَى شهادة .. !!.

أليست هذه الفواجع أقصى ما يصنعه الطغاة؟

إنها عند الرجل الكبير قد تحولت إلى نعم يستقبلها بابتسام لا باكتئاب .

وقريب من هذا المسلك القوى ما رواه «ديل كارنيجي» عن سيدة نقلت مع زوجها الضابط إلى صحراء موحشة ، فضاقت ذرعاً بمعيشتها ، وهمت بترك رجلها وحده والعودة إلى أهلها ، قالت هذه السيدة : (ولكن خطاباً ورد إلى من أبي تضمن سطرين ، سطرين اثنين ساذكرهما ما حبست لأنهما غيرا مجرى حياتى وهذا هما :

من خلف قضبان السجن تطلع إلى الأفق اثنان من المسجونين ، فاتجه أحدهما ببصره إلى وَحْل الطريق ، أما الآخر فتطلع إلى نجوم السماء .

قالت السيدة : وقد تلوت هذه الكلمات وأعدت تلاوتها مراراً ، فخجلت من نفسي وعوكلت أن أتطلع إلى نجوم السماء .

من قديم عُرف تفاوت الهمم باختلاف الطاقات في الإِفادَة من الشدائِد ، والکسب من الظروف الحَرجَة .

أو كما قال «وليم بوليثو» : ليس أهم شيء في الحياة أن تستثمر مکاسبك ، فإن أى أبله يسعه أن يفعل هذا ، ولكن الشيء المهم حقاً في الحياة هو أن تحيل خسائرك إلى مکاسب ، فهذا أمر يتطلب ذكاء وحِذقاً ، وفيه يكمن الفارق بين رجل كيّس ورجل تافه ) .

وهذا حق ، وانظر إلى هذه الأمثلة لتحويل الخسائر إلى مكاسب :

عندما فقد عبد الله بن عباس عينيه ، وعرف أنه سيقضى ما بقى من عمره مكفوف البصر ، محبوساً وراء الظلمات عن رؤية الحياة والأحياء ، لم ينطِ على نفسه ليندب حظه العاشر .

بل قبل القسمة المفروضة ، ثم أخذ يضيف إليها ما يهون المصاب ويبعث على الرضا فقال :

ففى لسانى وسمعى منهما نورٌ  
إنْ يأخذَ اللَّهُ مِنْ عَيْنِي نُورَهُمَا  
وفي فمى صارم كالسيف مأثورٌ  
قلبى ذكى ، وعقلى غيرُ ذى دَخَلٍ

وقال «بشار بن برد» يردد على خصومه الذين نددوا بعماه  
فليس بعار أن يقال ضريرٌ  
وعيّرنى الأعداء ، والعيبُ فيهمُ  
فيإنْ عَمِى الْعَيْنَيْنِ لِيُضِيرُ  
إذا أبصرَ المرءُ المروءَ والتُّسْقَى  
وإنى إلى تلك الثلاثِ فقيرٌ  
رأيتُ العمي أجرًا ، وذُخْرًا وعِصْمَةً

ولا شك أن تلقى المتابع والنوازل بهذا الروح المتفاءل ، وهذه الطاقة على استئناف العيش والتغلب على صعابه ، أفضل وأجدى من مشاعر الانكسار والانسحاب التي تجتاح بعض الناس وتقضى عليهم .

وانظر البُون بين كلام «ابن عباس» و«بشار» ، وبين ما قاله «صالح بن عبد القدوس» لما عمى :

ضرير العين فى الدنيا نصيبٌ  
على الدنيا السلام ، فما لشيخٍ  
ويُخْلِف ظنهُ الأملُ الكذوبُ  
يموت المرءُ وهو يُعَدُّ حيَا  
وما غيرُ الإله لها طبيبٌ  
يَنْتَنِي الطبيبُ شفاءً عيني  
فإنَّ البعضَ من بعضٍ قريبٌ  
إذا مات بعضُك فابكِ بعضًا

ونحن نحسُ الرقة لهذا الفؤاد الجريح ، غير أنه خير لصاحبِه أن ينهض ويسير ، ويضاعف الإنتاج في الحياة من مواهبه الأخرى ، كما فعل الرجالان قبله .



## العمل بين الأثرة والإيثار

غريزة حب النفس أصلية في بني آدم ، ولا مدعى عن الاعتراف بها ثم مراقبة سيرها في الحياة حتى لا يشرد عن سواء الصراط .

وليست هذه الغريزة شرّاً محضاً كما يبدو للنظر العاجل ، فإنَّ نشاط العمran على ظهر الأرض يعود قبل كل شيء إليها .

والقانون النفسي العتيدي القائم على حب اللذة وكره الألم ، القائم على طلب المنفعة الخاصة ورفض الضرر ، هو سرُّ الاتصال الدائم في مواكب الحياة والاتساع المستمر في دائرتها .

بل لعله سرُّ التقدُّم العلمي المطرد ، والكشفوف التي نقلت العالم من طور إلى طور .

وحبُّ النفس إن يك طبيعة الناس في الدنيا فعليه التعويل كذلك في إحراز الآخرة ، والزحزحة عن النار ودخول الجنة .

وليس ضعفةً بالمرء - كما يزعم الراعمون أن يعبد الله ابتغاء جنته أو خشية ناره ، إنَّ ذلك كمال عظيم وسلوك كريم .

ولا تخدعنك عن هذه الحقيقة شطحات الصوفية وخيالاتهم الحائرة .

﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّيْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (١)

وإنما تُحدِّرُ هذه الغريزة وتُتَقْوى عواقبها عندما تمرض ، وعندما تتوتر وتتضخم ، ويعانى صاحبها منها العَنَّت ، ويعانى منها الظلم والبَطَر .

وإحساس المرء بنفسه إذا زاد عن حدّه يحجبه عن الآخرين ، ويحصره في عالم خاص به .

ولا يزال ماضياً في تكبير شأنه وتهوين غيره .

(١) الزمر : ١٣ .

ولا تزال نفسه تعجبه ، وتنسج حول فكره غلالة سميكة من الغرور والشرابه .

ولا تزال «أنا» تنمو فيه ، ويتضاعف ورمُها وتضخُّمها ، حتى يقول : «أنا ربكم الأعلى !!» .

إنَّ حب الذات ، والعيش في إفرازاتها - ولو كانت حريراً كالذى تفرزه دودة القرْز - منتهٍ حتماً بالاختناق .

وهو اختناق أدبيٌّ وإن وصل صاحبه إلى قمة المجد والسلطان!!  
و«أنا» دائماً - شارة القصور الأدبيّ ، والتصرف البهيمى .

والأنانيون في كل مجتمع لعنةٌ ما حقه ، تحرق في سعيها الفضائل والمصالح ، وتذوب في مرضاتها الأفراد والجماعات .

ولا بأس أن نستطرد قليلاً هنا لذكر أن قوله «أنا» قد تكون آية على تحمل التبعات الضخمة .

وقد تكون مقصودة لذكر حقيقة يجب أن تتقرر في الأذهان .

وهي في هذه المجالات أقرب إلى الإيثار منها إلى الأثرة .

بل لا صلة لها بالمعانى الضيقَة التي تُعرف بها ، وذلك كما في الآية الكريمة :

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوكُمْ إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾<sup>(١)</sup>

وكمَا في قول الرسول ﷺ : «أنا النبىُّ لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب» .

فأنا في هذه المناسبات صيحة القوة لنصرة الحق ، وفاتحة العمل لدعم الإيمان ، والتعهد بأداء الواجب وإن نهضت تكاليفه ، والشعور الحادُّ بأن المرء قبل غيره مفروض عليه أن يقوم بما نُدب إليه .

وفي الحديث أيضاً : «إِنَّ أَخْشَاكُمْ وَأَعْلَمُكُمْ بِاللَّهِ أَنَا» فأنا هنا ليست ترجمة غرور واستعلاء ، ولا يمكن بتَّةً أن تومئ إلى هذه المشاعر ، وإنما هي تحديد للمصدر الذي يؤخذ منه الحق وتقتبس منه الأسوة الحسنة ، وينظر إلى ما عداه على أنه تنكبُ والتواء .

(١) سورة يوسف ، آية : ١٠٨ .



«أنا» التي يقولها امرؤ في مجال الطمع غير «أنا» التي يهتف بها رجل في مجال الفزع ، وبين الاثنين بعده المشرقيين .

والواقع أنَّ الأثرة يجب أن تعالج منذ الطفولة المبكرة ، حتى تنبت الناشئة وهي تنظر إلى نفسها وإلى غيرها نظرة لا جنف فيها ولا فصور .

وقد قلنا في كتابنا الأخرى : إن الإسلام جعل «الأخوة» العامة نظاماً عادلاً تُصان به الحقوق والواجبات ، ويتم فيه تبادل العاطفة على نحو يرقى بالإنسان ، ويجمع بين ما ينشده لنفسه وبين ما يجب عليه للآخرين .

ولعلَّ من خير ما قيل في أداب الأخوة ما نقله صاحب «قوت القلوب» : «ليكنْ صاحبك من إذا خدمته صانك ، وإن قعدتْ به مؤونَةً مانك ، وإن مددتَ يدك بخير مدَّها ، وإن رأى منك حسنة عدَّها ، وإن رأى منك سيئة سدَّها ، وإن سألته أعطاك ، وإن سكتَ ابتداك ، وإن نزلتْ بكَ نازلة واساك ، وإن قلتَ صدق قولك ، وإن تنازعتما آثرك .

إن صديقك هو من يسدُّ خللَك ، ويستر زلَّك ، ويقبل علَّك ، ومن حقَّ الصديق عليك أن تتجاوز له عن ثلات : عن ظلم الغضب ، وظلم الھفوة ، وظلم الدَّالة» .

وقد حكى «ديل كارنيجي» في كتابه قصصاً كثيرة يريد من سوقها انتزاع الأثرة من النفس ، والزجَّ بالإنسان في دائرة المحبة الشاملة والأخوة العامة ، وتدريب المرء على أن يكون فعالاً للخير مقبلاً على الناس بالبرِّ والرحمة والتكريم ، ثم قال : (أحوال الكثيرين من يقرأون هذا الفصل سيقولون لأنفسهم : هذا الحديث عن الاهتمام بالناس وإسعادهم إنْ هو إلَّا سخافة ، إنْ هو إلَّا وعظ ديني متذكر ، لا ياعم ، يفتح الله ، نفسي أولاً وليدذهب «الآخرون» إلى الجحيم .

إن كان هذا رأيك فليكن .. ولكنك إنْ حسبتَ أنَّك مصيَّب فكأنما تزعم أنَّ كل الأنبياء وال فلاسفة الذين تعاقبوا على مرِّ العصور كانوا مخطئين . وعلى أية حال إن كنت تتأيَّ عن تعاليم الأنبياء والمصلحين الدينيين فتعال نسأَل النصيحة اثنين من الملحدين ، ودعنا نبدأ بالأستاذ «هوسمان» بجامعة كامبردج . لقد ألقى في عام ١٩٣٦

محاضرة في جامعة كامبردج قال فيها: لعلَّ أعظم الحقائق التي وردت على لسان إنسان هي التي انطوى عليها قول السيد المسيح - عن ربه طبعاً - : من وجد حياته يضيئها ، ومن أضاع حياته من أجلِي وجدها .

نعم ، لقد سمعنا وعاظاً كثيرين يقولون مثل هذا القول ، ولكن «هوسمان» ليس واعظاً ، وإنما هو ملحد ، متشارئ ، فكر في الانتحار أكثر من مرة ، وبرغم ذلك كله فقد أحسَّ أنَّ الرجل الذي يُقصُّ تفكيره على نفسه لا ينال من الحياة شيئاً يذكر ؛ بل أخرى به أن يكون شقياً تعسياً ، أمّا الرجل الذي ينسى نفسه في معاونة غيره فيصيب متعة العيش .

إذا لم يكن لقول «هوسمان» تأثير عليك فلنسأل النصيحة أعظم ملحد أمريكي في القرن العشرين ، وأعني به «تيودور دريزر» ، لقد سخر «دريزر» من الأديان جميعها ؛ ووصفها بأنها أساطير الأولين ، وقصص من نسج الخيال ، وقال عن الحياة : «إنها قصة يرويها أبله ، لا مغزى لها ، ولا معنى». ولكن «دريزر» برغم ذلك يقول : إذا شاء الرجل أن يستخلص من الحياة المتعة ، فعليه أن يساهم في احتلال المتعة للآخرين ، فإنَّ متعة الشخص تعتمد على متعة الآخرين ، ومتعة الآخرين تعتمد على متعته) .



من المخزن أن تصل سمعة الوعظ الديني إلى هذا الدرك ، حتى يضطر الموجّهون -  
كى يقنعوا الآخرين بسداد نصائحهم - إلى الاستدلال عليهما بكلام أكابر الملحدين !!  
ولماذا؟ ليعلم الناس أنَّ الأمر ليس مصيّدة لاقتناص ثواب الآخرة .  
وليس استدراجاً لإطاعة أوامر الله .

لا ... إنَّ الأمر يقوم على حقيقة علمية يجب أن يستوي المؤمنون والكافرون  
في احترامها .

إذن فلنحبَّ غيرنا ، ولنجتهد في إسعاده ، فذلك أفضل طريق لراحة أنفسنا وضمان سعادتها ، وليس في ذلك استجابة لوعظ أو إرشاد .

ونحن نعلم أنَّ الآثَّة نُقْمة على أصحابها وعلى الناس ، وأنَّ الله عزَّ وجلَّ شرع لنا من التعاليم ما يُجنبنا نقائصها ، وما يجعل من البشر جماعات متكافلة متعاونة على

البر ، متواصلة بالمرحمة . فلنسمع إلى هدایات الله في هذا الشأن ، علّ ما بها من روعة وجلال يغنينا عن أقوال المحدثين الصغار أو الكبار .

إنَّ المسلم الكامل عضو نافع في أمته ، لا يصدر عنه إلَّا الخير ، ولا يُتوقَّع منه إلَّا الفضل والبر ، فهو في حركته وهدأته شعاع من نور الحق ، ومدد من روافد البركة واليمن ، وعون على تقريب البعيد وتذليل الصعب .

يسعى في هذه الحياة وقلبه مفعم بالمحبة ، ولسانه رَطْبٌ بالودِّ والمسالمة ، ويدُه مبوسطة بالنعمة بفيهَا على من يلقاه ، ويقدمها - من غير تكُلُّفٍ - إلى سواه .

تلك هي طبيعة الإسلام ورسالة المسلم في هذه الحياة . قال رسول الله ﷺ : «على كل مسلم صدقة» . فقالوا يانبئي الله فمن لم يجد ؟ قال : «يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق» . قالوا : فإن لم يجد ؟ قال : «يعين ذا الحاجة الملهوف» . قالوا : فإن لم يجد قال : «فليعمل بالمعروف وليمسك عن الشر ، فإنها - أي هذه الخصلة - له صدقة»<sup>(١)</sup> .

وهذا الحديث الكريم يقسم الناس درجات حسب مواهبهم ومنازلهم .

فالقوىُ الجَلَد زكاة قوته وجَلَدُه أن يزيد في إنتاج الأمة ، وأن يسهم في نهضتها العامة ، وأن يصل نشاطه بنشاطه أنداده ، فيتعاونون جمِيعاً على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان .

وهو بهذا العمل ينفع نفسه ، ويؤدي الضريبة التي تجب عليه للمجتمع الذي يحيا فيه ، تلك الضريبة التي عبر عنها الحديث الشريف بقوله : «على كل مسلم صدقة» فمن عجز عن هذا العمل الإيجابي الواسع فلن يعجز أن يكون عوناً للأخرين ، ومؤيداً للعاملين .

فإذا لم يرحم بنفسه أعن الرؤساء .

وإذا لم ينفع بقوته ساعد النافعين وشدَّ أزر المكافحين .

وذلك ما عبر عنه الرسول الكريم بقوله : «يعين ذا الحاجة الملهوف» .

(١) رواه البخاري .

وقد يكون المسلم في مرتبة دون هذه وتلك ، ليس له من بواته الكمال ووسائل الترقى ما يجعله قويًا ينفع أو معيناً يشفع . فعليه عندئذ أن يلزم خاصة نفسه في فعل الخير ويترك الشر ، ويتمسك بالخصلة الباقيه له من شعب الإيمان ؛ فلعل هذا أن ينجو به ، كما دل على ذلك ختام الحديث : «فليعمل بالمعروف وليمسك عن الشر فإنها له صدقة» .

هذه هي معالم السلوك الطيب كما شرحها رسول الإسلام ، تلمح فيها أن المؤمن خير كله ، يتائق في جبينه الشرف ، وتلتمس في سيرته المروءة ، ويُقبل عليه من يعرفونه ومن يُنكرونـه ، وهم واثقون من تبليـ خصاله وكرم خالـه .

إن شر الناس عند الله من لا يرجـي خـيره ولا يؤمنـ شـره .

والمؤمن لن يكون كذلك أبداً ، فصلته بالله عز وجل يجعلـه مرجـواـ الخـير مـأمونـ الشـر ، ورسالتـه فيـ الحـيـاـة لا تجعلـه عـضـواـ أـشـلـاـ ولا عـضـواـ فـاسـداـ ، بل عـضـواـ يـحـقـقـ الصـالـحـ العام ، ويـرـتـقـبـ فيـ ظـلـهـ الأـمـانـ وـنـجـحـ المـقـصـدـ .

وقد ضرب رسول الله مثلاً للمؤمن بالنخلة ، كل شيء فيها ينفع ، لأن المؤمن على اختلاف أحوالـهـ لنـ يكونـ إـلاـ نـافـعاـ ، وإنـ تـفاـوتـ مـظـاهـرـ نـفـعـهـ وـتـبـاـيـنـ آـثـارـهـ ، ولـعـلـ فـيـ

ذلك تفسيراً للآية الكـريمـ : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِكُلِّ إِنْسَانٍ طَيِّبَةً كَشْجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَرُوعَهَا فِي السَّمَاءِ ۚ تُؤْتَى أُكُلَّهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾<sup>(١)</sup>

فالآية تشرح طبيعة المؤمن ونتائج صدق اليقين في سلوكـهـ .

إنـ فـؤـادـهـ يـنـبـوـعـ جـيـاشـ بـالـإـحـسـاسـ وـالـإـفـضـالـ ، وـحـيـاتـهـ سـلـسـلـةـ موـصـولـةـ الـحـلـقـاتـ منـ فعلـ الـخـيرـ وـدـعـمـ المـثـلـ الـعـلـيـاـ وـإـبـراـزـ عـنـاصـرـ الـفـضـيـلـةـ .

والجماعة المؤمنة يجب أن تكون صورةً لما وعنته تعاليم الإسلام من إعظام لـ خـلالـ الخـيرـ ، وإنـكارـ لـ خـلالـ الشـرـ ، صـورـةـ تـجـعـلـ أـهـلـ الـأـرـضـ جـمـيـعاـ يـنـظـرـونـ إـلـىـ أـمـتـنـاـ فـتـعـجـبـهـمـ أحـوالـهـاـ وـتـزـدـهـيـهـمـ أـفـعـالـهـ .

فـإـنـ النـاسـ لـاـ تـغـرـيـهـمـ الأـقـوـالـ الـمـعـسـولـةـ قـدـرـ ماـ تـغـرـيـهـمـ الـأـعـمـالـ الجـلـيلـةـ ، وـالـأـخـلـاقـ الـمـاجـدـةـ .

(١) إبراهيم : ٢٤ - ٢٥ .

رُوِيَ أَنْ صَحَابِيًّاً وَقَعَ فِي أَيْدِي الْمُشْرِكِينَ فَحُبْسُوهُ لِيُقْتَلُوهُ، فَتَسَرَّبُ إِلَيْهِ صَبَيُّ مِنْ أَهْلِ الْحَىٰ وَقَعَدَ فِي حَجْرِهِ، وَكَانَتْ بِيَدِ الْأَسِيرِ مُوسَى يَحْلِقُ بِهَا زَوَائِدُهُ، فَتَلَفَّتْ أَمْ الصَّبَى مَذْعُورَةً؛ وَقَدْ رَأَتْ وَلِيْدَهَا فِي حَجْرِ الْأَسِيرِ، وَطَارَتْ بِلَبَّهَا الظُّنُونُ، فَأَقْبَلَتْ عَلَيْهِ فَزْعَةً، فَنَظَرَ إِلَيْهَا الْأَسِيرُ فِي وَدَاعَةٍ وَرَقَّةٍ وَقَالَ لَهَا: «أَظَنَنْتُ أَنْ يَصِيبَ ابْنَكَ شَرًّا، مَا كَنْتَ لَأَفْعُلَ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ»<sup>(۱)</sup>.

ذَاكَ هُوَ الْمُسْلِمُ الْحَقُّ. وَرُوِيَ أَنَّ «أَبَا ذَرٍ» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ قَالَ: «عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ صَدْقَةً». قَلَتْ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَنْ أَيْنَ أَتَصْدِقُ وَلَيْسَ لَنَا أَمْوَالًا؟» . قَالَ: «مِنْ أَبْوَابِ الصَّدَقَةِ: التَّكْبِيرُ، وَسُبْحَانُ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، وَتَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَا عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتَعْزِلُ الشَّوْكَ عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ وَالْعَظَمِ وَالْحَجَرِ، وَتَهْدِي الأَعْمَى، وَتُسَمِّعُ الْأَصْمَى وَالْأَبْكَمَ حَتَّى يَفْقَهَهُ، وَتَدْلِي الْمُسْتَدِلُ عَلَىٰ حَاجَةِ لَهُ قَدْ عَلِمْتَ مَكَانَهَا، وَتَسْعَى بِشَدَّةِ سَاقِيْكَ إِلَى الْلَّهْفَانِ الْمُسْتَغْيِثِ، وَتَرْفَعُ بِشَدَّةِ ذَرَاعِيْكَ مَعَ الْمُسْعِفِ، كُلُّ ذَلِكَ مِنْ أَبْوَابِ الصَّدَقَةِ مِنْكَ عَلَىٰ نَفْسِكَ»<sup>(۲)</sup>.

فَانظُرْ سَعَةَ الدَّائِرَةِ الَّتِي يَمْتَدُ إِلَيْهَا نَشَاطُ الْفَرَدِ الْوَاحِدِ فِي مَسَاعِدِ الْآخَرِينَ وَمَوَاسِيَّهُمْ.

إِنَّ الْعَافِيَةَ إِذَا مَلَأَتْ بَدْنَ امْرِئٍ فَإِنَّ اللَّهَ يُنِيبُ بِهَا حَقْوَانًا جَمِيعًا، وَيَفْرُضُ عَلَىٰ كُلِّ عَظِيمٍ وَعَصِيبٍ مَدَدًا يَنْشَطُ عَلَيْهِ الضَّعَافُ، وَيَسْتَرِيحُ بِهِ الْمَصَابُونَ ..

وَلَا غَرُورًا فَالْعَافِيَةُ رَأْسُ مَالِ ضَخْمٍ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ يَسِئُونَ اسْتَغْلَالَهِ وَيَحْقِرُونَ مَنَاهُ.

فَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ وَظِيفَةُ الْمُسْلِمِ الْوَاحِدِ فِي بَيْتِهِ الْمَحْدُودَةِ فَكَيْفَ تَكُونُ وَظِيفَةُ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بَيْنَ أَمَّ الْعَالَمِ أَجْمَعِ؟ إِنَّ أَدَاءَ حَقَّ اللَّهِ فِي هَذَا الْمَصْمَارِ النَّافِعِ أَسَاسُ النِّجَاحِ فِي الدُّنْيَا وَأَسَاسُ الْفُوزِ فِي الْآخِرَةِ . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صَنَاعَةُ الْمَعْرُوفِ تَقْنِي مَصَارِعَ السُّوءِ، وَالصَّدَقَةُ تَطْفَئُ غَضَبَ الرَّبِّ، وَأَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الدُّنْيَا هُمْ أَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الْآخِرَةِ، وَأَهْلُ الْمُنْكَرِ فِي الدُّنْيَا هُمْ أَهْلُ الْمُنْكَرِ فِي الْآخِرَةِ، وَأَوْلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ هُمْ أَهْلُ الْمَعْرُوفِ».



(۲) مَسْنَدُ أَحْمَدَ.

(۱) الْبَخَارِيُّ.

للحياة في الجسم علام تدل عليها من إحساس ونبض وحرارة . وللإيمان في القلب علام تدل عليه ، وتلفت إلى وجوده حيًّا يؤدي واجبه ، ويستعد لما يكلف به .

وقد نبه رسول الله إلى معلم خطير من معالم الإيمان حين قال : «إذا سرتك حسنتك وساعتك سيئتك فأنت مؤمن» .

أجل ، فإن انتشار القدر لخير تفعله وانقباضه لسوء ترتكبه دليل على أن هناك معنى معيناً يسيطر عليك ، ومقاييساً خاصاً تضبط به ما تحب وما تكره من خلق أوسلوك . أما الرجل الذي يواعد الدنيا غير متأنٍ بما يصدر عنه فهو رجل ميت الضمير ، والضمير الميت كالجسم الميت لا يتحرك لطعنة بله أن يهتز لوخزة !!

والإسلام يفترض أنَّ الخير في نفس المؤمن بعيد الغور كطبقات التربة الخصبة ، كلما ضربت الجذور فيها وَجَدْتُ عناصر موفورة بأسباب الحياة والنمو .

ومن ثمَّ فالمؤمن فعال للخير عن عشق ، ماضٍ فيه على تثبيت ورسوخ .

أما الآخرون من أدعياء المجتمع ، ومتصنّعى الخير لضرورات طارئة ، فإن قلوبهم متحجّرة قاسية ، وقد يكسى هذا الحجر الجلمد بطبقة من الغبار والأترية ، بيد أنَّ هذا الغبار المتراكم - مهما كثر - لا تنبت فيه بذور ، ولا تصلح عليه زراعة !!

هكذا ضرب الله لنا أمثلة الأدعية والأصلاء في فعل الخير . فقال :

**﴿لَا يُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمِنَّ وَالْأَذَى كَذَلِّي**

**يُنْفِقُ مَا لَوْرِعَهُ النَّاسُ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمَ الْأَخِرُ فَمَشَلُهُ كَشَلٌ**  
**صَفَوْانٌ عَلَيْهِ تَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَأَبْلَى فَرَكَهُ صَلَدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى**  
**شَيْءٍ قَمَّا كَسَبُوا وَاللهُ لَا يُهْدِي الْقَوْمَ الظَّاهِرِينَ لَهُمْ وَمَثَلُ الَّذِينَ**  
**يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَتَبَشِّيَّاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَشَلٌ**  
**جَنَّةٌ يَرْبُوُنَّ أَصَابَهَا وَأَبْلَى فَعَانَتْ أُكُلَّهَا ضَعْفَيْنِ قَاتَلَهُمْ بِهَا وَأَبْلَى**

**فَطَلَ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾١﴾**

(١) البقرة : ٢٦٤ - ٢٦٥ .

كما ينزل المطر على الرخام فيغسل ما على سطحه ، ويكشف عن طبيعته ، يجلى  
الجزاء الأعلى فيكتسح ما على القلوب المتحجرة من تراب يشبّها بالأرض الخصبة ،  
وبذلك تبدو على يُبسها وجفافها وإفقارها من المعروف والفضل .

أما القلوب الأخرى فإنَّ أسرار البركة المودعة فيها ، وأمال البر والإحسان المرتقبة  
منها تجعل الجزاء الأعلى يحل بها غيًّا عدَّاقاً قرع به وتردان .

فلنفعل الخير عن حبٍ مكين ، ولنطهّره من علل المن والظهور ، ولنتحرر من  
الأغراض الصغيرة التي تجعل الرجل لا يعطي إلا ليكتسب نصيراً ، أو ليتخذ يداً .

### ﴿٣٤٣٥٣٦٣٧﴾

والأمر يحتاج إلى مِرانٍ طويـل كـيـما يخلصُ العملُ من الشـوـائب التـى تـشـينـه ،  
فتـشـبـثـ «الـأـنـانـيـةـ» بـالـنـفـسـ كـبـيرـ ، وـالـتـمـاسـ العـوـضـ العـاجـلـ عـلـى بـذـلـ المـعـرـوفـ شـائـعـ  
بـيـنـ النـاسـ ، وـإـنـ اخـتـلـفـ مـشـارـبـهـمـ فـى نـوـعـ هـذـاـ الـعـوـضـ وـمـقـدـارـهـ .

ولن يخطئك - وأنت تلمح مسالك الناس - أن ترى طغيان الذات - لا حبَّ الذات -  
كامـناً وراءـ الكـثـيرـ مـنـ الـأـعـمـالـ وـالـأـحـوـالـ ، وـإـنـ اجـتـهـدـ أـصـحـابـهـ فـى إـلـبـاسـهـ صـورـاً  
بعـيـدةـ عـنـ الرـيـبةـ وـالـجـوـرـ .

والاضطراب الاجتماعي الذي نعانيه إنما ينبع من هذه العين الحمئة ، فإنَّ  
فقدان التعاون ، وقلة الاتكتراث بشؤون الجماعة ، وتأخير الاهتمام بالبلد الذي نحيـا  
فيـهـ وـالـأـمـةـ التـىـ نـرـتـبـتـ بـهـ وـالـرـسـالـةـ التـىـ نـنـتـسـبـ إـلـيـهـ ، كلـ ذـلـكـ أـمـارـةـ عـلـى ضـعـفـ  
الـيـقـيـنـ وـنـجـومـ النـفـاقـ .

وقد وصف الله عزَّ وجلَّ المنسحبين من معركة أحد وصفاً يكشف عن داء الأنانية  
المتغلغل في نفوسهم فقال :

﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهْمَنُوهُمْ أَنفُسُهُمْ يُظْهِنُونَ  
بِاللهِ غَيْرِ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ  
الْأَمْرَ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ (١)

(١) آل عمران : ١٥٤ .

فهؤلاء قوم أعجبتهم أنفسهم وحدها وأراؤهم وحدها ، فإذا لم يسمع لهم ، وإذا لم ينزل الآخرون على رأيهم ، فلن تراهم إلا ساخطين ناقدين .

ومن هؤلاء من يربط رأيه بمدى المنفعة التي تعود عليه ، فإن امتلأت يداه صالح حامداً ، وإن نسى أو تنسى انفتل يصخب ويحتاج ويتمس المطاعن .

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْزُكُ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أَعْطُوهُمْ مِنْهَا رَضْوًا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوهُمْ مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾<sup>(١)</sup>

وجمهور كبير من الناس يعيشون في حدود مطالبهم الخاصة ، فإذا كانت لهم حاجة اشتد إحساسهم بها ، وطال إلحاحهم في قضائهما . ولا يزالون يسعون وراء الذي لهم ، - أوبتعبر أدقًّا - ما يرون أنه لهم حتى يدركونه عن آخره ، بل يزيدون ويعالجون .

أما إذا كان عليهم شيء فهم يذهلون عنه ، وقلما يذكرون إلا إذا طلبوها به وأزعجوا إليه ، فإذا أدوه بعد ذلك فهو أداء ناقص مبتسر .

هذا لون من الأثرة الجائرة ذكر القرآن بعض صوره في قوله عز وجل :

﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَلُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفِنُونَ ﴾٢﴿ وَإِذَا كَانُوْهُمْ أَوْقَزَنُوْهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾٣﴿ الْأَيْنَذِنُ أَوْلَئِكَ أَنْهُمْ مُبَعُوثُونَ ﴾٤﴿ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾٥﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾٦﴾<sup>(٢)</sup>

وهذه الأثرة التي تظهر في ضعف الإيمان بالحق والجزاء ، كما تظهر في بخش مكيال أوميزان ، تظهر فيما هو أكبر وأجل .

وقد ذكر القرآن صورة أخرى لها في الرجل يقبل الحكم له لأنّه مغنم ، ويرفض الحكم عليه لأنّه مغنم ، غير ناظر لعدالة أو مصلحة عامة :

﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيُحْكَمْ بِيْنَهُمْ إِذَا فِيْقُمْ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾٧﴿ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمْ الْحَقُّ يَأْتُهُ إِلَيْهِ مُدْعَيْنَ ﴾٨﴿ أَفِقُلُوْهُمْ مَرْضٌ أَمْ أَرْتَابُوا ... ﴾٩﴾ إِلَخَ الآية .<sup>(٣)</sup>

(١) التوبة : ٥٨ . (٢) المطففين : ١ - ٦ . (٣) النور : ٤٨ - ٥٠ .

إنَّ هذا النوع من الحُلُق الرديء يُسْعِي إلى المجتمع الإسلامي إِسْأَة بالغة .  
فَإِنَّ الشَّخْصَ الَّذِي لَا تهِيجُه إِلَّا مَنافِعُه الْخَاصَّة ، وَلَا يَكْتُرُ لِلْمُصلَحَةِ الْعَامَّة  
شَخْصٌ تَشَقِّي بِهِ الْبَلَادُ وَالْعِبَادُ .

وَكُمْ تُضَارِّ الدُّولَةُ مِنْ مَوْظِفٍ يَسْتَغْرِقُ اِنْتِبَاهَهُ كُلَّهُ حَدِيثُ الْمَرَبَّاتِ وَالْزِيَادَاتِ ، وَلَا  
يَهْتَمُ أَدْنَى اهْتِمَامٍ بِحَدِيثِ الْعَمَلِ الْوَاجِبِ .

إِنَّهُ لَا يَشْعُرُ إِلَّا بِمَا يَعْسِبُهُ حَقًّا لَّهُ . أَمَّا مَا ارْتَبَطَ بِذَمَّتِهِ مِنْ تَكَالِيفٍ ، وَاقْتَرَنَ بِهِمْتَهِ  
مِنْ مَطَالِبٍ وَأَعْمَالٍ فَهُوَ لَا يَدْرِيهُ .

وَمَا عَلَى هَذَا تُبَنِّي أُمَّةٌ ، أَوْ يَقُومُ مَجَمِعٌ .

وَالْمُجَتَمِعُ الْزَكِيُّ يَقُومُ عَلَى رِجَالٍ يَعْرَفُونَ حَقَّ اللَّهِ ، وَحَقَّ الْجَمَاعَةِ عَلَيْهِمْ ، وَيَقُومُ  
بِالْأَشْغَالِ هَذَا وَذَاكَ بِأَدَاءِ مَا عَلَيْهِمَا مِنْ وَاجِبٍ ، فَإِنَّ الشَّمَرَةَ الدَّانِيَّةَ فِي هَذَا الْمُجَتَمِعِ أَنْ  
يَصْلِي إِلَى كُلِّ اِمْرَئٍ حَقُّهُ الْطَبِيعِيُّ دُونَ ضَبْرٍ أَوْ جَدْلٍ .

وَالْأَنَانِيُّونَ عِنْدَمَا يَسْلُطُونَ أَفْكَارَهُمُ الْضَّيْقَةَ عَلَى الدِّينِ يَسْخُونُ نَصْوَصَهُ ، وَيَحرِّفُونَ  
الْكَلِمَ عنْ مَوْاضِعِهِ ، فَهُمْ يَفْهَمُونَهُ ثَوَابًا بِلَا عَمَلٍ ، وَثُمَرَةً بِلَا غَرَسٍ ، أَوْ عَقَابًا يَقعُ عَلَى  
الآخَرِينَ وَحْدَهُمْ ، هَيَّاهُنَّ أَنْ يَسْهُمُوا مِنْهُ لِفَحْ !!

أَجَلْ فَإِنَّ الْمُحْصُورِينَ فِي حَدُودِ أَنفُسِهِمْ وَأَثْرَتِهِمْ وَمَنَافِعِهِمُ الذَّاتِيَّةِ تَنْعَكِسُ نَصْوَصُ  
الدِّينِ مَشْوَهَةً فِي أَفْكَارِهِمْ ، فَلَيْسُوا يَفْهَمُونَ مِنْهَا إِلَّا مَا يَشْتَهُونَ .

سَأَلْنَى بَعْضَهُمْ : أَلِيَسْ مَصِيرُنَا الْجَنَّةُ نَحْنُ الْمُسْلِمُونَ مَصْدَاقُ قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ : «مَنْ  
قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»<sup>(١)</sup> .

فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ وَقَدْرَتُ الْمَسَافَةَ بَيْنَ عَمَلِهِ وَأَمْلَهُ فَوُجِدَتْهَا بَعِيدَةً بَعِيدَةً .  
وَرَأَيْتُ أَنَّهُ لَا يَحْفَظُ مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا مَا يَظْهُرُ عَوْنَانِ عَلَى كَسْلِهِ .

كَالْمَتَسُولِ الَّذِي تَغْيِبُ عَنْ ذَهْنِهِ آيَاتُ الْقُرْآنِ كُلُّهَا ، فَلَا يَعْرِي مِنْهَا إِلَّا آيَةً وَاحِدَةً :

﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشَرُ أَمْثَالَهَا ﴾<sup>(٢)</sup>

(١) البخاري . (٢) الأنعام : ١٦٠ .

فهو يقرأ الآية ليستدرّ بها الأكفّ ويجمع الأموال .

قلت : ألا تعرف من سنّة رسول الله إلا هذا الحديث وحده؟

إنَّ رسول الله إلى جانب ما رويت يقول : «لا يدخل الجنة قاتٍ»<sup>(١)</sup> .

ويقول : «لا يدخل الجنة قاطع رحم»<sup>(٢)</sup> .

ويقول : «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كُبْرٍ»<sup>(٣)</sup> .

ويقول : «ليس منا من غشنا»<sup>(٤)</sup> .

ويقول : «ليس منا من لطم الحدود ، وشقَّ الجيوب ، ودعا بدَعْوى الجاهلية»<sup>(٥)</sup> .

ويقول : «ليس منا من خبب - أى أفسد - امرأة على زوجها»<sup>(٦)</sup> .

ويقول : «ليس منا من لم يوقر كبارنا ، ويرحم صغيرنا ، ويعرف لعلنا حقه»<sup>(٧)</sup> .

أفسيتَ هذه السنن كلّها لأنها تدلّك على ما ارتبط بعنقك من واجبات ولم تَعِ  
ما حسبيه حقاً لك وهو الجنة ، فأنتَ تطلب بلا ثمن؟!

وهذا الصنف من الناس ضعيف الإحساس بأخطائه ، فإذا أكره على الشعور بنقيصه  
اقترفها اعتقاد أن في استطاعته تكفير سيئاته كلها باعتذار تافه ، أو حسنةٍ خفيفةٍ .

إنَّ أولى الألباب لما دعوا الله أن يغفر ذنوبهم ، كان من إجابته لهم أن قال :

﴿فَالَّذِينَ هَا جَرَوا وَآخْرُجُوا مِنْ دِيَرِهِمْ وَأَوْذُوا فِي سَيِّلٍ وَقَاتَلُوا وَقَاتَلُوا لَا كُفَّرَنَّ عَنْهُمْ سِنَّاتِهِمْ وَلَا دُخُلُنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾<sup>(٨)</sup>

(٤) مسلم .

(٢) الترمذى .

(١) البخارى .

(٨) آل عمران : ١٩٥ .

(٧) الترمذى .

(٥) الترمذى .

أَمَا الْحَمْقِي فَهُمُ الَّذِينَ يَتَوَهَّمُونَ أَنَّ خَطِيئَاتِهِمُ الْكَبِيرِي تَذَوَّبُ مِنْ تَلَقَّاهُ  
نَفْسَهَا ، دُونَ أَنْ تَعْالَجَ بِالدَّلَّكِ وَالتَّطْهِيرِ وَالإنْقَاءِ ، وَمَا يَسْتَبِعُهُ ذَلِكُ مِنْ جَهْدٍ  
مُضْنِ وَسَهْرٌ طَوِيلٌ .

أَعْرَفُ مِنْ مَطَالِعَاتِي الْكَثِيرَةِ أَنَّ هُنَاكَ مِنَ الْآثَارِ مَا يَقْرَنُ الْمَغْفِرَةَ الْعَامَةَ بِعَمَلٍ قَدْ يَبْدُو  
فِي ظَاهِرِهِ سَهْلًا لِلْأَدَاءِ ، كَتْسَاقْتُ الذَّنْبِ مَعَ قَطْرَاتِ مَاءِ الْوَضْوَءِ مَثَلًاً ، فَلَا يَضْطَرِبُ  
فَهْمُكَ فِي قِيمِ الْأَعْمَالِ لِهَذِهِ الظَّواهِرِ .

وَتَأْكُدُ أَنَّ الشَّوَابَ الْجَزِيلَ لَا يَسْوَقُهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي عَمَلِ كَالْوَضْوَءِ ، إِلَّا إِذَا صَاحِبَهُ  
مِنْ عَمَقِ الإِيمَانِ وَصَدْقِ الْإِخْلَاصِ وَجَمَالِ الْاحْتِسَابِ مَا يَجْعَلُ صَاحِبَهُ أَهْلًا لِأَنَّ  
يَبْذُلُ النَّفْسَ وَالنَّفِيسَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَبارُكُ وَتَعَالَى .

إِنَّ الدِّينَ حُقُوقٌ وَوَاجِبَاتٌ ، وَإِنَّ الدُّنْيَا حُقُوقٌ وَوَاجِبَاتٌ .

وَكُلُّ عَقدٍ ذُى بَالَّ بَيْنَ طَرْفَيْنِ فَهُوَ يَنْطَوِيُ عَلَى حُقُوقٍ وَوَاجِبَاتٍ .

فَأَدَّ وَاجِبَكَ ، وَأَشْعَرَ بَعْبَيْهِ عَلَى كَاهْلِكَ ، وَلَا تَلْتَمِسُ مِنْهُ الْمَهَارَبَ .

فَإِذَا وَفَيْتَ بِمَا عَلَيْكَ ، فَانتَظِرْ حَقَّكَ ، أَوْ اطْلُبْهَ كَامِلًا فَلنْ يَعِيْكَ أَحَدٌ .

أَمَا أَنْ يَنْطَلِقَ الْمَرءُ فِي الدُّنْيَا مَتَطَلِّلًا شَعَارَهُ : « هَلْ مِنْ مُزِيدٍ » مِنْ غَيْرِ كَفَايَةٍ  
وَلَا اسْتِحْقَاقٍ ، فَهَذِهِ هِيَ الْكَارَثَةُ .

وَمُثْلُ هَذَا الْمُسْلِكِ لَا تُضْمِنُ بَهُ دُنْيَا ، وَلَا يَصْحُ بَهُ دِينٌ .



## نقاء السر والعلانية

علاج الأمور بتغطية العيوب وتزويق المظاهر لا جدوى منه ولا خير فيه ، وكل ما يُحرزه هذا العلاج الخادع من رواج بين الناس أو تقدير خاطئ لن يغيّر شيئاً من حقيقته الكريهة .

ومن هنا لم يحفل الإسلام بالظواهر إذا كانت ستاراً للتشويه مَعِيبٍ ، أونقص شائئٍ ، فما قيمة المظهر الحلو إذا كمن وراءه مخبر مُرّ؟!

من قديم غالى العرب بجمال الحقيقة ، ولم يسمحوا للعنوان - وإن لم يكن كفأها - أن يخدش من قدرها ، فقال قائلهم :

إذا المرء لم يدنسْ من اللؤم عرضه فكلُّ رداءٍ يرتديه جميل!!

على حين حَقَّرُوا جمال الملامح إذا كانت النفس خبيثةً ، والخلق وضيعاً ،  
فقال الشاعر :

علي وجه مي مسحة من ملاحة  
ألم ترَ أنَّ الماء يكدر طعمه  
وتحت الشياب الخزىُ لو كان باديَا  
وإن كان لونُ الماء أبيضَ صافيا؟

من أجل ذلك لم يعتد الإسلام بتكميل الإنسان وتحمله إلا إذا قام هذا التسامى على نفس طيبة ، وصحيفة نقية ، وفؤاد زكيٌّ ، وضمير أصيٌّ من داخله ، فله سنَا يهدى صاحبه إلى الصراط المستقيم .

الجمال عمل حقيقي في جوهر النفس ، يচقل معدنها ، ويذهب كدرها ، ويرفع خصائصها ، ويعصمها من مزالق الشر ، وينقذها من خواطرسوء ، ثم يبعثها في الحياة كما تبعت النسمة اللطيفة في وقده الصيف ، أو الشعاع الدافئ في سبرة الشتاء ...

وعندما تبلغ النفس هذا المستوى ترثى وساوس الشيطان عنها لأنها لا تجد مستقرّاً فيها ، بل لا تجد مدخلًا إليها .

إنَّ المُرءَ يَتَجَادِلُ مَعَ مَعْنَى الْخَيْرِ وَالشَّرِّ الطَّارِئَةِ عَلَيْهِ مِنَ الْخَارِجِ ، كَمَا يَتَجَادِلُ جَهَازُ الْاسْتِقْبَالِ مَعَ الْمَوْجَاتِ الطَّوَالِ أَوَّلَ الْقَصَارِ الَّتِي تُرْسَلُ إِلَيْهِ .

فِي حَسْبِ وَضْعِهِ وَانْضَبَاطِ آلاتِهِ عَلَى جَهَةٍ مُعِينَةٍ تَكُونُ طَبِيعَةُ الإِذَاعَةِ الَّتِي تَصْدُرُ عَنْهُ .

كَذَلِكَ الْإِنْسَانُ إِذَا طَابَتْ نَفْسَهُ أَوْ خَبَثَتْ .

إِنَّهُ فِي الْحَالَةِ الْأُولَى يَحْيَا فِي جَوَّ مِنَ الْخَيْرِ تَنْحَسِرُ دُونَهُ مَوْجَاتُ الْإِثْمِ وَالْعَصِيَانِ ، وَذَلِكَ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ فِي قَوْلِهِ عَنِ الشَّيْطَانِ :

﴿ إِنَّهُ لَمَنْ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ أَمْنَوْا وَعَلَى الَّذِينَ يُؤْمِنُوكُونَ ﴾  
﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَنْقُولُونَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾<sup>(۱)</sup>

أَمَا فِي الْحَالَةِ الْأُخْرَى فَإِنَّ الْمُرءَ يَسْتَجِيبُ لِدَوْافِعِ الْجَرِيمَةِ الَّتِي تُلْهُ عَلَيْهِ ، وَتَسْوِقُهُ إِلَى مَصِيرِ كَيْبٍ ، وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيْطَانَ عَلَى الْكَافِرِينَ  
يَوْمًا وَمَرَّا ﴾<sup>(۲)</sup> فَلَا يَجْعَلُ عَلَيْهِمْ إِنْتَهَى كُوْدُوْنَ عَدَّاً

وَقَدْ طَلَبَ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ يَنْقُوا سَرَائِرَهُمْ مِنْ كُلِّ غُشٍّ ، وَأَنْ يَحْفَظُوا بُوَاطِنَهُمْ مِنْ كُلِّ كَدَرٍ ، وَأَنْ يَتَحَصَّنُوا مِنْ كِيدِ الشَّيْطَانِ بِضَعَافَةِ الْيَقِظَةِ وَإِخْلَاصِ الْعَمَلِ ، وَصَدَقِ التَّوْجِهِ إِلَيْهِ جَلَّ شَاءَهُ . وَأُنْزِلَتْ سُورَةُ الْنَّاسِ كَامِلَةً تَدْعُو إِلَى الْوَقَايَةِ مِنَ الْهَوَاجِسِ الْوَضِيعَةِ وَالْخَوَاطِرِ الْمُظْلَمَةِ ، وَتَحْفَظُ عَلَى الْمُرءِ إِشْرَاقَ رُوحِهِ وَنِقاَوَةَ جَوْهِرِهِ . وَإِلَيْكَ السُّورَةُ كَامِلَةً :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾<sup>(۳)</sup> مَلِكِ النَّاسِ ﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴾ مِنْ شَرِّ  
الْوَسَوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ الَّذِي يُوَسِّعُ فِي صُدُورِ النَّاسِ  
مِنَ الْجُحَّةِ وَالنَّاسِ ﴾<sup>(۴)</sup>

هَذِهِ الْاسْتِعَاذَةُ تَصُورُ لُجَّاً الْمُؤْمِنِ إِلَيْهِ اللَّهِ يَحْتَمِي بِقُوَّتِهِ وَيَسْتَجِيرُ بِعَزْتِهِ ، أَنْ يُبْقِي عَلَيْهِ جَمَالَ نَفْسِهِ غَيْرَ مُشَوِّبٍ بِوْسُوسَةِ شَيْطَانٍ ، وَلَا مُعِيبٌ بِنَيَّةِ غَدَرٍ أَوْ خَتْلٍ أَوْ شَرِّ لأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ .

(۳) سُورَةُ النَّاسِ .

(۴) مَرِيمٌ : ۸۳ - ۸۴ .

(۱) النَّحْلُ : ۹۹ - ۱۰۰ .

والاستعاذه لا بدّ معها من عمل .

فإذا قال الفلاح : أَعُوذ بِاللّٰهِ مِنِ الْقَحْطِ ، فَمَا يُقْبَلُ مِنْهُ ذَلِكَ إِلَّا إِذَا كَانَ يَقُولُ وَهُوَ يَحْرُثُ أَرْضَهُ ، وَيَسْقِي زَرْعَهُ ، وَيَتَعَهَّدُ جَهُودَهُ حَتَّى تَبْلُغَ نَهَايَتَهَا .

وإذا قال التلميذ : أَعُوذُ بِاللّٰهِ مِنِ السَّقْطَةِ ، فَمَا يَعْنِيهُ هَذَا إِلَّا إِذَا أَقْبَلَ عَلَى دُرُوسِهِ يَسْتَذَكِرُهَا ، وَعِلْمَهُ يَحْصُلُهَا ، وَمَعْرِفَةُ الْمُشْتَتَةِ يَصِلُّ قَاصِيَّهَا بِدَانِيَّهَا .

وإذا قال المسلم : أَعُوذُ بِاللّٰهِ مِنِ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، فَمَا يَجْدِيهُ هَذَا إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَقَاوِمًا لِلْإِغْرَاءِ الشَّرِّ ، مَدَافِعًا لِلسَّيْئَاتِ الَّتِي تُعْرَضُ لَهُ ، دَائِمًا التَّحْلِيقَ مَعَ مَعَانِي الْعِبَادَةِ الْمَفْرُوضَةِ عَلَيْهِ .

أَمَّا أَنْ يَقُولُ : أَعُوذُ بِاللّٰهِ وَهُوَ مُخْلَدٌ إِلَى الْأَرْضِ يَتَّبِعُ هَوَاهُ ، فَذَلِكَ ضَرْبٌ مِنَ التَّنَاقْضِ ، لَا يَنْطَلِقُ عَلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ .

الإِسْلَامُ فِي عَالَمِ النُّفُسِ جَمَالٌ يَنْفِيُ الْقَبْحَ ، وَنَظَامٌ يُطَارِدُ الْفَوْضَىَ .

وَالْعَظِيمَةُ الْحَقِيقَةُ أَنْ يَسْتَقِرَّ الْمَرءُ فِي دُخْلِيَّةِ نَفْسِهِ عَلَى حَالٍ مِنَ السَّكِينَةِ وَالْيَقِينِ يَيَأسُ مَعَهَا الشَّيْطَانُ أَنْ يَقْذِفَ فِي رَوْعَهِ بِنَكْرٍ .

انْظُرْ إِلَى الرِّيحِ الْعَاصِفِ ، إِنَّهُ يَهْبِطُ عَلَى الصَّحْرَاءِ فَيُشَيرُ فِيهَا الغَبارَ .

وَيَهْبِطُ عَلَى الْمَاءِ فَيَغْضِبُ وَجْهَهُ ، وَيَحْرُكُ لَجْجَهُ .

وَلَكِنَّهُ يُنَاوِشُ الْجَبَالَ الشَّمْمَ فَلَا يَنْالُ مِنْهَا مُنَالًاً .

وَالْإِنْسَانُ إِذَا كَانَ أَمْرَهُ فَرُطًا ، فَإِنَّ وَسَاوِسَ الشَّيْطَانَ تُشَيرُ دَاخِلُ نَفْسِهِ زَوَابِعَ لَا يَنْتَهِي لَهَا دُوَارٌ وَلَا عَكَارٌ .

أَمَّا يَوْمُ يَحْزِمُ أَمْرَهُ ، وَيَنْتَظِمُ الإِيمَانَ شَيْوَنَهُ كُلَّهُ ، فَهَيَّهَاتُ أَنْ يَهْتَزِزَ لِهَجْمَاتِ الْأَبَالِسَةِ .

وَإِصْلَاحُ النُّفُسِ لَا يَتَمَّ بِتَجَاهِلِ عِيوبِهَا أَوْ بِإِلْقاءِ سَتَارٍ عَلَيْهَا .

وَتَجْمِيلُهَا لَا يَكُونُ بِإِقْامَةِ إِهَابٍ نَصْرٍ تَكْمِنُ وَرَاءَهُ شَهْوَاتُ غَلَاظٍ وَطَبَاعٍ فَجَّةً .

الْحَسْنُ الْمُحِبُّ أَنْ يَسْتَوِي الظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ فِي نَصَاعَةِ الصَّحِيفَةِ وَاسْتِقَامَةِ السِّيَرَةِ .

﴿وَذُرُّوا ظِهَرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيَحْزَرُونَ﴾

﴿بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾<sup>(١)</sup>

(١) الأنعام : ١٢٠ .

ويجب أن نعلم بأن اكتمال الخصائص الإنسانية الفاضلة لا يتم طفراً ،  
ولا ينشأ اتفاقاً .

بل هو نتيجة سلسلة من الجهود المتلاحقة ، والبرامج المدروسة ، والإشراف الدقيق .  
إنَّ الملائكة العظيمة تكمنُ في النفس كُمون الجمال والعذوبة والحلوى في  
البذور والبراعم .

وكما تتضاءف الحرارة والمياه وضروب العناية على استخراج أطابق الشمر من هذه  
الأصول المطوية الضامرة ، تتضاءف عناصر البيئة الصالحة والتربية الراسدة على تفتيق  
المواهب العليا في الإنسان ، وإنصاج ما يولد فجأً في أيام الطفولة وعهود الحداثة  
الأولى ، حتى يبلغ مداه ، ويصل إلى مستواه .

وكمَا تُعَطِّب الشمار ويقلُّ المُحْصُول لفساد الجو الذي أحاط بالزروع .

وكمَا تفسد الأجيال وتلتهم نضارتها الآفatas لقصور المربين والمعلمين عن تهيئة  
الجو الذي تنبت فيه الناشئة نقية الفطرة مصونة النماء .



على أنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يهب المعرفة والحكمة إلَّا إنساناً تعوَّد الإحسان  
في شئونه كُلُّها .

وتقنَّ من ضبط نفسه وإحكام أمره وتسديد خطاه .

ومشى على الصراط المستقيم لا تهزمه وساوس الشر ، ولا ترده عن غايته  
غمزات الشياطين .

يقول الله في عبده الصالح يوسف :

﴿وَلَمَّا بَغَ أَشَدَّهُ رَءَائِنَهُ حَكَمَ وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجَزَى الْمُحْسِنِينَ﴾<sup>(١)</sup>

أي مثل ما آتى من أفضاله جزاء اكتمال رجولته وصدق نيته وشرف سيرته ، يُؤتى  
من يقتدون به في إحسان العمل وإجمال السلوك .

والمربيون الأوائل من علماء الإسلام لهم جهاد هائل في قيادة النفوس إلى الحق ،  
وتحلیصها من غرائز السوء التي تشغل بها إلى الحضيض .

. ٢٢ : يوسف (١)

وحِسْبُهُمْ فِي هَذِهِ الْمَحَالَاتِ الرَّاقِيَةِ بَلَغَ مِنَ الدِّقَّةِ شَأْوًا لَا نَعْرِفُ لَهُ نَظِيرًا .

وَهُمْ يُهَبِّونَ بِالإِنْسَانِ أَنْ يَرْتَفِعَ ، وَيَنْاسِدُونَهُ فِي حَرَارَةٍ وَإِخْلَاصٍ أَنْ يَقاومَ ذَرَائِعَ السُّقُوطِ .

وَيَذَكُّرُونَهُ بِأَنَّهُ يَمْلِكُ - مِنْ فَطْرَتِهِ الْأَصِيلَةِ - مَا يُسْتَطِعُ بِهِ الْاِسْتِعْلَاءِ .

وَمِنَ الْآدَابِ الَّتِي ذَكَرُوهَا نَلَمَحُ أَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ التَّدَيْنَ إِلَّا يَقْطَةً فِي الْعُقْلِ ، وَنُبْلاً فِي الْعَاطِفَةِ ، وَسِيَادَةً لَا تَلْحِقُهَا ضَعْفَةٌ ، وَتَحْلِيقًا لَا يُدْنِيهِ إِسْفَافٌ .

لَقَدْ وَضَعُوا طَرَائِقَ<sup>(۱)</sup> لِلرِّياضَةِ النُّفُسِيَّةِ تَعْدُّ مِنْ أَبْدَعِ الدَّسَاتِيرِ فِي عَالَمِ الْأَخْلَاقِ ، وَهُمْ يَوْصُونَ مُدْمِنِي الشَّهَوَاتِ بِمَلَاحِظَةِ الْأَمْوَارِ الْأَتَيَةِ ، وَهُنَّ كَفِيلَةً بِتَخْلِصِ أَسِيرِ الْهُوَى مِنْ بِرَاثَنَ الشَّيْطَانِ عِنْدَمَا يَغْرِيَهُ بِمَوَاقِعَةِ الْمُعْصِيَةِ :

الْأُولُّ : عَزِيمَةُ حَرَيَّغَارِ لِنَفْسِهِ وَعَلَيْهَا .

الثَّانِي : جُرْعَةُ صَبَرٍ يَحْمِلُ نَفْسَهُ عَلَى مَرَاثِهَا سَاعَةَ الْإِغْرَاءِ .

الثَّالِثُ : قُوَّةُ نَفْسٍ تَشْجُعُهُ عَلَى شُرُبِ تِلْكَ الْجُرْعَةِ . وَالشَّجَاعَةُ كُلُّهَا صَبَرَ سَاعَةً ، وَخَيْرُ الْعِيشِ مَا أَدْرَكَهُ الْعَبْدُ بِصَبْرِهِ .

الرَّابِعُ : مَلَاحِظَةُ حَسَنِ مَوْقِعِ الْعَاقِبَةِ ، وَالشَّفَاءُ بِتِلْكَ الْجُرْعَةِ .

الْخَامِسُ : مَلَاحِظَتِهِ أَنَّ مَا يَنْشَا عَنِ الْهُوَى مِنْ أَلْمٍ أَشَدُّ مَا يَحْسِهُ الْمَرْءُ مِنْ لَذَّةِ .

السَّادِسُ : إِبْقَاوُهُ عَلَى مَنْزِلَتِهِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى . وَفِي قُلُوبِ عَبَادِهِ ، وَهُوَ خَيْرٌ وَأَنْفَعُ لَهُ مِنْ لَذَّةِ مَرَافِقَةِ الْهُوَى .

السَّابِعُ : إِيَّثَارُ لَذَّةِ الْعَفَّةِ وَعَزَّتِهَا وَحْلَاؤُهَا عَلَى لَذَّةِ الْمُعْصِيَةِ .

الثَّامِنُ : فَرَحَهُ بِغَلْبَةِ عَدُوِّهِ ؛ وَقَهَرَهُ لَهُ ، وَرَدَهُ خَائِبًا بِغَيْظِهِ وَغَمَّهُ وَهَمَّهُ ؛ حِيثُ لَمْ يَنْلِ أَمْنِيَتِهِ .

الْتَّاسِعُ : التَّفْكِيرُ فِي أَنَّهُ لَمْ يُخْلِقْ لِلْهُوَى ، وَإِنَّمَا هُنَّى لِأَمْرِ عَظِيمٍ لَا يَنَالُهُ إِلَّا بِمَعْصِيَةِ الْهُوَى .

(۱) الْآدَابُ الْمَذَكُورَةُ بَعْدَ لِلْعَلَّامَةِ ابْنِ الْقَيْمِ نَقْلًا عَنِ التَّصُوفِ الإِسْلَامِيِّ لِزَكِيِّ مَبَارِكٍ .

العاشر : أن يكره لنفسه أن يكون الحيوانُ البهيمُ أحسنَ حالاً منه ؛ فإنَّ الحيوان يمثِّل بطبعه بين مواقع ما يضره وما ينفعه فيؤثر النافع على الضار ، والإنسان أعطى العقل لهذا المعنى .

الحادي عشر : أن يسير بفكرة في عواقب الهوى ، فيتأمل كم أفاقت عليه معصيته من فضيلة ، وكم أوقعته في رذيلة ، وكم أكلة منعت أكلات ، وكم من لذة فوت لذات ، وكم من شهوة كسرت جاهًا ، ونكست رأساً ، وقبحت ذِكْرَا وأورثت ذمًا ، وألزمت عاراً لا يغسله الماء ، غير أن عين الهوى عمياً .

الثاني عشر : أن يتصور العاقل انقضاء غرضه من يهواه ، ثم يتصور حاله بعد قضاء الوطر ، وما فاته وما حصل له .

الثالث عشر : أن يتصور ذلك في حق غيره حقَّ التصور ، ثم ينزل نفسه تلك المنزلة ، فحكمُ الشيء حُكمُ نظيره .

الرابع عشر : أن يتفكر فيما تطالبه به نفسه من ذلك ، ويسأل عنه عقله ودينه يخبرانه بأنه ليس بشيء .

الخامس عشر : أن يأنف لنفسه من ذلَّ طاعة الهوى ، فإنه ما أطاع أحد هواه إلا وجد في نفسه ذلاً ، ولا يغتر بصولة أتباع الهوى وكِبُرُهم ، فهم أذل الناس بواطن ، قد جمعوا بين الكِبْر والذل .

السادس عشر : أن يوازن بين سلامة الدين والعرض والمال والجاه ، وبين نيل اللذة المطلوبة ، فإنه لا يجد بينهما نسبة البتة ، فليعلم أنه من أسفه الناس ببيعه هذا بهذا .

السابع عشر : أن يأنف لنفسه أن يكون تحت قهر عدوه ، فإنَّ الشيطان إذا رأى من العبد ضعف عزيمة ، وسقوط همة ، وميلًا إلى هواه ، طمع فيه وصرعه وأجده بلجام الهوى وساقه حيث أراد . ومتى أحسنَ منه بقوَّة عزم وشرف نفس ، وعلو همة ، لم يطمع فيه إلا اختلاساً وسرقة .

الثامن عشر : أن يعلم أنَّ الْهُوَى مَا خَالَطَ شَيْئاً إِلَّا أَفْسَدَهُ ، فَإِنْ وَقَعَ فِي الْعِلْمِ أَخْرَجَهُ إِلَى الْبِدْعَةِ وَالضَّلَالَةِ ، وَصَارَ صَاحِبَهُ مِنْ جَمْلَةِ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ . وَإِنْ وَقَعَ فِي الزَّهْدِ أَخْرَجَ صَاحِبَهُ إِلَى الرِّيَاءِ وَمِنْخَالَفَةِ السُّنَّةِ . وَإِنْ وَقَعَ فِي الْحُكْمِ أَخْرَجَ صَاحِبَهُ إِلَى الظُّلْمِ وَصَدَّهُ عَنِ الْحَقِّ . وَإِنْ وَقَعَ فِي الْقِسْمَةِ خَرَجَتْ عَنْ قِسْمَةِ الْعَدْلِ إِلَى قِسْمَةِ الْجُحْرُ . وَإِنْ وَقَعَ فِي الْوَلَايَةِ وَالْعَزْلِ أَخْرَجَ صَاحِبَهُ إِلَى خِيَانَةِ اللَّهِ وَالْمُسْلِمِينَ حِيثُ يُولَى بِهَوَاهُ وَيُعَزِّلُ بِهَوَاهُ . وَإِنْ وَقَعَ فِي الْعِبَادَةِ خَرَجَتْ عَنْ أَنْ تَكُونَ طَاعَةً وَقُرْبَةً ، فَمَا قَارَنَ الْهُوَى شَيْئاً إِلَّا أَفْسَدَهُ .

الحادي عشر : أن يعلم أنَّ الشَّيْطَانَ لَيْسَ لَهُ مَدْخَلٌ عَلَى ابْنِ آدَمَ إِلَّا مِنْ بَابِ هَوَاهُ ، فَإِنَّهُ يُطِيفُ بِهِ لِيَعْرِفَ أَيْنَ يَدْخُلُ عَلَيْهِ حَتَّى يُفْسِدَ قَلْبَهُ وَأَعْمَالَهُ ، فَلَا يَجِدُ مَدْخَلًا إِلَّا مِنْ بَابِ الْهُوَى ، فَيُسَرِّى مِنْهُ سَرَّيَانُ السُّمْمِ فِي الْأَعْضَاءِ .

العشرون : أن يتذَكَّرَ أَنَّ مِنْخَالَفَةَ الْهُوَى تُورِثُ الْعَبْدَ قُوَّةَ فِي بَدْنِهِ ، وَقُوَّةَ فِي لِسَانِهِ ، وَأَنْ أَغْزَرَ النَّاسَ مِرْوَءَةَ أَشَدُّهُمْ مِنْخَالَفَةَ لَهَوَاهُ ، وَأَنَّهُ مَا مِنْ يَوْمٍ إِلَّا وَالْهُوَى وَالْعُقْلُ يَعْتَلُجَانِ ، فَأَيَّهُمَا قَوْيٌ عَلَى صَاحِبِهِ طَرْدَهُ وَتَحْكُّمُهُ ، وَكَانَ الْحُكْمُ لَهُ . وَأَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ جَعَلَ الْخَطَأَ وَاتِّبَاعَ الْهُوَى قَرِينَيْنِ ، وَجَعَلَ الصَّوَابَ وَمِنْخَالَفَةَ الْهُوَى قَرِينَيْنِ .

الحادي والعشرون : أن يعرِفَ أَنَّ الْهُوَى تُخْلِطُ وَمِنْخَالَفَتِهِ حَمْيَةً ، وَأَنَّهُ يُخَافُ عَلَى مَنْ أَفْرَطَ فِي التُّخْلِطِ وَجَانَبَ الْحِمْيَةَ أَنْ يَصْرُعَهُ دَائِهُ . وَأَنَّ الْهُوَى رِقٌ فِي الْقَلْبِ ، وَغُلُّ فِي الْعَنْقِ ، وَقِيدٌ فِي الرِّجْلِ ، وَمُتَابِعٌ لِأَسِيرٍ ، فَمَنْ خَالَفَهُ عَتَّقَ مِنْ رِقِّهِ وَصَارَ حَرَّاً ، وَخَلَعَ الغُلُّ مِنْ عَنْقِهِ ، وَالْقِيدُ مِنْ رِجْلِهِ ، وَاسْتَطَاعَ مُسَائِرَةَ الصَّالِحِينَ .



## بين الإيمان والإلحاد

لقيت نفراً من الشبان الملحدين - وهم للأسف منتشرون في هذه الأيام انتشار الحلفاء والخسائش الضارة في أرض لا صاحب لها - وحاورت بعضهم أبغى استكشاف ما في نفسه ، فوجدت فكرتهم عن الله أشبه بفكرة اللقيط عن أبيه لا يعرفه ولا ينصله !!

ووجدت جمهرتهم تفكرون بهذا الإله عن تقليد أعمى غرور بليد . !!  
فهم يحسبون أن العلم والإيمان ضدان .

وإن الارتقاء الثقافي يصحبه حتماً إقصاء الدين من الطريق !!

ثم هم يرون أنفسهم - وإن لم يدرسوها شيئاً طالياً عن علوم المادة - قد أصبحت لهم مكانة العلماء الذين فجروا الذرة . فهم يصطنعون نظرتهم نفسها عن الحياة وحالقها كما تُحكى لهم لا كما هي على حقيقتها ، ومن ثمّ فهم يتبعون الأحسنَ الأحسنَ من قصور في العلم وسوء في التقليد !!

أعرف واحداً من هؤلاء ما نظر يوماً في مرصد للأفلاك ، ولا دخل يوماً معملاً للكيمياء ، ولا غمس يده في تجربة خطيرة من التجارب الكونية ، ومع هذه الجهالة فهو ملحد ، لأنه من العلماء ، والعلماء لا إيمان لهم إلا بالمادة .

ويمكنك أن تضم إلى هؤلاء الأغوار طائفة أنصاف المتعلمين .

وهي طائفة عرفت بعض الحق وجهرت ببعضه الآخر .

ولم تترى لتستكملاً معرفتها ، بل أصدرت حكمها الخاسِ على ضوء ما عرفت فقط .

وتصور كيف تكون فوضى التقاضي لو أن القضاة أصدروا أحكامهم بعد الاستماع لنصف روايات الخصوم ونصف دفاع المحامين !؟

كذلك فعل أولئك الملحدون !! فقد أعلنا كفراً بهم بعد أنصبة محدودة من الدراسة التي نقلت إليهم بعض خصائص الأشياء ، وكشفت لهم بعض آفاق الوجود ، وحكت لهم بعض فصول القصة .

وهذا النوع من الكفر أعقد من صاحبه الأول لأنَّه أوغل في باب الغرور والتقليل .  
قال «فرانسيس بيكون» : (إنَّ قليلاً من الفلسفة يجذب العقل إلى الإلحاد ، ولكن التعمق في الفلسفة خلائق أن يعود بالمرء إلى الدين) .

وقال : «دليل كارنيجي» : (إنَّ لاذكر الأيام التي لم يكن للناس حديث فيها سوى التناقض بين العلم والدين ، ولكن هذا الجدال انتهى إلى غير رجعة) .

### ﴿۴۳﴾

وأراني مضطراً إلى تقرير حقيقة قد تغرب عن بال كثيرين ، هي أنَّ هناك فارقاً بين الإيمان بالله كما وقر في نفوس لفيف ضخم من المفكِّرين والعلماء ، وبين الانتساب إلى دين من الأديان المعروفة - خصوصاً في الغرب .

فإنَّ العلم المجرَّد هَدَى أَلْفَ العلماء إلى الله ، ووقفهم أمام قدرته الرائعة مبهورين .  
وكذلك فعل التفكير السليم عند كثير من الساسة والقادة .

بَيْدَ أَنَّ أولئك الذين خالجتهم إحساس قوى بأنَّ للعالم رباً جليلاً ، استراحوا إلى هذه المرحلة من مراحل الإيمان ، وكرهوا استكمال زادهم الروحى ما يعرفون من أديان .

وهم معذرون في هذا التوقف إلى حدَّ ما ، ففي أي طريق يسرون لطلب المزيد من معرفة الله؟!

إِنَّهُمْ إِنْ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى لَنْ يَجِدُوا فِي كُنَائِسِهِمْ وَلَا فِي صَحَافِهِمْ مَا يُغْرِي بِتَزِيدٍ مِّنْ عِلْمِ الدِّينِ .

إِنَّ مِضَاتِ عَقُولِهِمْ أَبَانَتْ لَهُمْ جَانِبًاً مِّنْ جَلَالِ الْأَلْهَمِيَّةِ الْمُبَدِّعَةِ لِلْوُجُودِ ، فَلَمْ يَرْجُوْنَ بِأَنفُسِهِمْ فِي مَشْكُلَةٍ لَا تُسِيغُهَا عَقُولُهُمْ أَبْدًا؟ وَهُنَّ أَنَّ هَذِهِ الْأَلْهَمِيَّةُ مَكَوَّنَةُ مَثَلًاً مِّنْ ثَلَاثَةِ أَفَانِيمْ : أَقْنُومُ الْأَبِ ، وَأَقْنُومُ الْابْنِ ، وَأَقْنُومُ الرُّوحِ الْقَدْسِ؟!

إِذْنَ فَلِيقْفُوا عِنْدَمَا عَرَفُوا .

ولينشتوا سلوكيَّهم في الحياة على ما يطمئنون إلى صحته من تجارب وأفكار ،  
بعيداً عمَّا يقوله أولئك الكهان والرهبان .

وأذكر أنَّ الكاهن كُلْف بزيارة «الماريشال جورنج» في أيامه الأخيرة ، بعد ما سجنَه الحلفاء تمهيداً لشنقه ، أخذ يؤدى واجبه الديني في تعزية القائد الألماني المقهور .

وما عساه يقوله راهب نصرانيٌّ يؤمن بصلب عيسى فداء عن البشر وخطاياهم؟!  
على أية حال لقد شرع يتكلم ، حتى قاطعه «جورنج» بقوله : يا أبا تاها ، أنا مؤمن  
بالله ، وأعتقد أن المسيح رجل نبيل .

تلك عقيدة الرجل ، إنَّه هو وألوف من الساسة والقادة والعلماء والعظماء يؤمنون  
بالله ، وهذا حقٌّ ، ويؤمنون بأنَّ المسيح إنسان نبيل وهذا حقٌّ .

أما ما عدا ذلك فلديهم صدود عن قبوله كما يُصدِّرُ المراء عن طعام يعاشه .

فليم يبتعد عنه في صمت ، إذ لا ضرورة في النَّغْيٍ عليه ما دام ليس هناك  
إكراه على ازدراده .

وجمهرة العلماء والمفكِّرين في العالم الصليبي على هذا الغرار .

أما العلماء اليهود فمعروفهم بالله يصحبها شعور غامر بجنسهم المضطهد .

ولديهم بقايا من توحيد الله لم يشبهها التثليث الذي اعتقدوه النصاري .

وهو لاء العلماء يعتقدون في قراة أنفسهم أنَّ كنائس النصارى تقوم على عبادة رجل  
ولد لغير رشدة ، جاءت به أمه عن اتصال حرام!!

وأغلبهم يحمل من الإِلْفَكِ والضغينة ما يجعله شرًّاً مستطيراً على الناس .

وأقلهم من هذبَه العلم ، وكفکف ما في طبعه من قسوة وحقد .

والملهم أنَّ الإيمان بالله بديع السموات والأرض لم يزل - كما كان - قائماً بالأنفس ،  
ولم يزل صوت الفطرة العالى ، وإن أخفته أحياناً ما يحيط به من إضافات ضالة .

وهذا الإيمان طرف الحقيقة التي بلغت تمامها في الإسلام .

والرجال الذين تجيش مشاعرهم به ، هم في تلك اللحظات المتألقة أقرب إلى  
الإسلام منهم إلى أي دين آخر .

وقد أخذ الله على هؤلاء أنهم يُحسنون معرفته في لحظات شدَّتهم .. ثم ينسونه  
عندما تدركهم العافية :

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرَ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفَلَكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ  
بِرَبِيعٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَهُنَّا بِهِنَّا بِعَاصِفٍ وَجَاءَهُمْ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ  
مَكَانٍ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أَحْيَطُ بِهِمْ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ كَ

لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١﴾ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُوَ  
يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴿٢﴾

والواقع أنّى استقصيت حالات كثيرة جداً لعلماء الغرب ومفكريه ، فاستيقنت أنّ فى نفوسهم إيماناً حسناً ، وأنّ معرفتهم بالله تجرى فى نسق أبعد من ضيق اليهودية وتعقيد النصرانية وأدنى إلى سماحة الإسلام وبساطته .

ولكن هؤلاء يكرهون الإسلام والمسلمين مع ذلك . !!

وهم معذرون فى هذه الكراهية إلى حد ما ، فأهل الإسلام حجاب غليظ دون تعاليمه .

وتقهقرهم البالغ فى كل ميدان يصدّ عامة الناس عن إحسان الظنّ به .

ورسالة محمد نفسها - من الناحية العلمية البحث - لم تُعرض عرضاً يُرى الناس جوهرها كما جاء من عند الله . !!

ولو أنها عُرِضَتْ كذلك لوجدت تجاوباً هائلاً مع الخاصة الذين يبنون إيمانهم على منطق العقل ، ويحررونه من مواريث الخرافة ، ولوجدت تجاوباً كذلك مع العامة الظماء إلى ينابيع ثرّة بضروب التوجيهات والوصايا .

وذاك كله ما احتشد احتشاداً في القرآن الكريم وسنة محمد ﷺ .

### ❀❀❀❀❀

إنَّ الألوف التي وهَتْ صلتها بالدين في أقطار الغرب ، وتجهَّمت للبيع والكنائس ليست كافرة بالله ، ولا خارجة على سنن الفطرة ما دامت تتوجه إليه وفق فهمها البسيط . إنها تَوَدَّ من أعماقها لو توثقت صلاتها بالله عن طريق صحيح شعر فيه بالراحة والقرار .

إنَّ المفتاح الذي أديري فيها لم ترَكِبْ أسنانه بطريقة تتواءم مع طبيعة القفل المغلق ، فبقى الباب مقفلًا لأنَّ المفتاح الجلوب لم يصنع شيئاً .

(١) يونس: ٢٢ - ٢٣ .

ولو أنَّ هذه القلوب العطاش إلى اليقين والسكينة وجدت مفتاحها الأصيل  
لانفرج الباب الموصد ، ولنهلت هذه الأفئدة المحرومة من نطاف الإيمان الصافي  
ما يروى غليلها .

على أن أصحاب النفوس الكبيرة لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام أزمة «الحق» التي  
تحتاج بلادهم . فبحثوا عن الله وحده ، ومدُوا حبالهم إليه وحده ، ولم يرُوا في غيره إلا  
بشرًا مثلهم ولو كان عيسى نفسه .

وبذلك تأسس إيمان صحيح - وإن يك محدوداً - بعيداً عن الكهانات وطقوها  
وتعاويذها وتماثيلها

وهذا الإيمان لا يسمى إحاداً وإن لم يَدِنْ بالتوراة والإنجيل والقرآن ، لأنَّه يجهل الأَخِير ،  
أو يعرفه على غير وجهه ، ولأنَّ الأوَّلين لا ينسجمان مع طاقته العقلية والنفسية الواسعة .

### ﴿٣٤﴾

وعلى هذا الأساس الذي مهَّدناه نتمشى مع «ديل كارنيجي» وهو يقول :  
( لقيت «هنري فورد» قبل وفاته ، فتوقعَتُ أنْ أرى عليه سيماءَ رجل منهك القوى من  
فرط الجهد الذي بذله في إنشاء مؤسسة تجارية من أضخم المؤسسات في العالم ، غير أنَّي  
فوجئت حين وجدته على درجة كبيرة من الرزانة والهدوء ، وكأنَّه آية في الاتزان والطمأنينة .  
برغم بلوغه الثامنة والسبعين من عمره .

فلما سأله : هل عانى من القلق شيئاً؟ أجاب : كلاً ، فإنَّى أعتقد أنَّ الله - سبحانه -  
قدير على تصريف الأمور ، وأنَّه - تعالى - في غير حاجة إلى نصيحة مني ، ولهذا فأنا  
أترك له تصريف أموري بحكمته جل شأنه ، فعلام إذن يتولاني القلق؟! ) .

هل كان «فورد» زميلاً لابن عطاء الله السكندرى في هذا المنطق الممتلىء بالتسليم  
والثقة فيما تحببه به الأقدار؟!

إنَّ كان المستر «فورد» لم يعرف ابن عطاء الله ولم يأخذ عنه ، فإليك خلاصة لكلام  
هذا العالم المسلم تلمع فيه قوة الشبه بين المنطقين ، على تباعد الديار والأعصار!!

قال ابن عطاء الله يحضر على التسليم لله ، ويحضر أذاب التجدد<sup>(١)</sup> :

الأول : علمك بسابق تدبير الله فيك ، وذلك أن تعلم أنَّ الله كان لك قبل أن تكون لنفسك .

فكمَا كان لك مدبرًا قبل أن تكون ولا شيء من تدبيرك معه ، كذلك هو سبحانه مدبر لك بعد وجودك .

فَكُنْ كمَا كنْتَ لَهُ ، يَكُنْ لَكَ كمَا كنْتَ لَكَ .

الثاني : أن تعلم أنَّ التدبير منك لنفسك جهل منك بحسن النظر لها .

الثالث : علمك بأنَّ القدر لا يجري على حسب تدبيرك ، بل أكثر ما يكون هو ما لا تدبر ، وأقلُّ ما يكون ما أنت له مدبر .

الرابع : علمك بأنَّ الله تعالى هو المtower لتدبير ملكته ، علوها وسفلها ، وغيتها وشهادتها ، وكما سلمت له تدبيره في عرشه وكرسيه وسمواته وأرضه ، فسلم له تدبيره في وجودك بين هذه العوالم .

وسيثبتُ إلى الذهن حتماً بعد الاستماع إلى هذه النصائح أنَّ الإنسان لكي يتم يقيمه يجب أن يتجرد من حَوْله وطَوْله وأن ينخلع من قواه وأن يهمل الأسباب وأن ينتظر من تدبير الله بعدئذ أن يقضى له ما يشتهي . وهذا خطأ محض ، وما إليه قصد ابن عطاء الله ، ولا به عمل «مستر فورد» .

فإنَّ شعور الإنسان بحوله ضرورة .

ونهوه عنه للأسباب المعتادة حق .

ولذلك يستدرك ابن عطاء الله بعد كلامه السابق فيقول : (إن التسبيب لا ينافي التوكُل) .

(١) عن التصوف الإسلامي .

انظر إلى قوله ﴿لَوْ تُوكِّلُتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقًّا تُوكِّلُهُ لِرِزْقِكُمْ كَمَا يُرْزِقُ الطَّيْرَ،  
تَغْدُو خَمَاصًا وَتَرُوحُ بَطَانًا﴾<sup>(١)</sup> ، تراه يدلُّ الأمْرُ بالتوكل ، لا على نفي الأسباب ،  
بل إنه يدلُّ على إتيانها بقوله : تغدو ، وتروح !! فقد أثبتت لها غُدوًا ورواحًا .

وهذا سببها الذي تحيا به وتعيش عليه .

ونقول نحن : إن الإسلام يرفض كل تشكيك في حرية الإرادة .

ويرد بعنف كل توهين للطاقة العظيمة التي منحها الإنسان كيما يكبح في هذه  
الدنيا ، ويرتقب نتائج كدحة .

غير أننا عندما ننظر إلى شؤوننا على ضوء الواقع لن يفوتنا أن لحظة ضيق الدائرة  
التي نعمل فيها بقدرنا وإرادتنا بالقياس إلى الدائرة الواسعة التي تعمل فيها القدرة  
العليا ، والإرادة العليا .

والأسباب التي تتعلق بها محاكمة بمحاجلات رحيبة لسلطان لنا عليها  
في أغلب الأحيان .

ومن ثم فلنفكفف غرورنا بما نملك ، ولا نحاول بنفح الفم أن نغالب عصف الرياح .  
ذلك ما ينشده دعاة التجريد ، أن تستمسك بالأسباب ، وأن تستريح إلى ما  
يصنع الله بعد .

### ﴿أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ﴾

على أننا مضطرون إلى أن نلقى هذه النصائح بقليل أو كثير من الخذر .

فإن كلمة «خفف السير» قد تقال لسائق عجل يندفع إلى الأمام بسرعة رعا تودي به .

أما إذا وجّهت الكلمة لقاعد يلعب ، أو ماشٍ متمهل فهو قبيح .

والأمريكان المسعورون وراء حطام الدنيا يُقطّفهم الفشل ، ويُبطرهم الظفر ، محتاجون  
إلى كلام «فورد» و«ابن عطاء الله» وغيرهم .

أما الوانون المتراخون من أهل الشرق فلهم كلام آخر أحسن سياقاً ، وأفعل أثراً .

وأقطار الشرق الإسلامي الآن مزيج من الصنفين المتناقضين .

(١) تيسير الوصول .

يوجد فيهم من يقال له : اعمل لتحيا ، ومن يقال له اهدأ لتحيا .  
والى البكائين على ما فات ، المتأثرين وراء تحقيق المعجزات ، الدائرين حول محور  
من أنفسهم يصارعون المُنى وتصارعهم دون الانتهاء إلى قرار . إلى هؤلاء نوجه كلمة  
«وليم جيمس» : «إِنَّ بِيْنَنَا وَبِيْنَ اللَّهِ رَبِّنَا لَا تَنْفَصِمْ ، فَإِذَا نَحْنُ أَخْضُنَا أَنفُسَنَا  
لِإِشْرَافِهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - تَحَقَّقَتْ أَمْنِيَاتُنَا وَأَمَالُنَا كُلُّهَا» .

أما القاعدون في ظلام الركون إلى الأقدار فإنهم يُضرّبون - باسم الله - كى ينهضوا  
إلى ميدان العمل .



ومن الناس من يحترم الإيمان ، ويسعى لإشاعته في المجتمعات ، لا لأن الإيمان  
حقٌّ ، بل لأن آثاره في النفوس والجماعات مستحبةٌ .

ولذلك يقول : لو لم يكن هناك إله لوجب أن نجعل للناس إليها يطلبون رضاها ،  
ويخافون عذابها .

فالإيمان عند هؤلاء ضرورة اجتماعية لحفظ الأمن وترويض العوام .

وهم لذلك لا يكترون لِكُنْهِ هذا الإيمان ، ولا لـ متعلقاته .

ليكن ما يكون ما دام يؤدى نتائجه القريبة .

وهذا تفكير سخيف ، وإزراء بحقيقة الدين وقيمةه ، بل استهانة بالحقيقة نفسها  
وبأقدار عارفيها .

فإن الاعتراف بوجود الله يجب أن يكون خصوصاً العقل والفؤاد للأدلة التي استبانت  
صحتها ، ولا محি�ص عن المصير إليها والتسليم بها .

أما إذا تظاهرت الدلائل على أنه لا إله هنالك ، فإن ربط العامة أو الخاصة بـ وهم كبير  
يُعد خدعة سمعجة .

ونحن نحمل الحياة والأحياء عن هذا اللون من الخداع ، ونرى أن يفتح البشرُ أعينهم  
على الحق وحده .

فالإيمان بالله الواحد ليس لعبة سياسية ، أو تشريعياً استثنائياً .

كلا ، إنَّ الحقيقة التي ضلَّ عنها الغافلون ، أو المستغلُون .

والنور الذي أغلقت دونه أجفان العميان .

أما الرجال الذين رُزقوا صفاء الفطرة ، ونقاء الفكر ، فلن يتبعوا عن الله أبداً .

إِنَّ هَذَا إِلَيْمَانَ الْوَثِيقَ مَعْدُنَ قَلْمَانَ تَخْلُوْ مِنْهُ نَفْسٌ عَظِيمَةٌ .

وهو على اختلاف مراتبه وألوانه السناد الروحى الأمين الذى يهرب إليه فى الشدائى  
ويعتمد عليه فى حمل الأعباء وملاقاة التوب .

وربما سبق إلى الوهم أن أغلب ذوى الأسماء اللامعة - أعنى فى ميادين الجد -  
قليلو الذخر من هذا العنصر النفيس .

وقد يروج لهذه الفرية بعض الصحافيين الذين لا دين لهم .

وذلك باطل . فكثير جداً من كبار الرجال لهم في الله عقيدة صلبة ، وإن شاب صلابتها تصوّر ساذج أو خطأ مشهور على مابيننا آنفاً .

قال «ديل كارنيجي» : (أعرف رجالاً ينظرون إلى الدين نظرتهم إلى شيء مقصور على النساء والأطفال والوعاظ ، ويتباهون بأنهم «رجال» يسعهم أن يخوضوا المعارك بلا سند ولا معين .

فما أشدّ الدهشة التي تتولاهم حين يعلمون أن معظم «الرجال» - أعنى الأبطال المشهورين - يضرعون إلى الله كل يوم أن يؤازرهم ويعاونهم .

خذ مثلاً البطل «جاك دمبسي». لقد أخبرنى بأنه لا يأوى إلى مضجعه قبل أن يتلو صلواته ، ولا يتناول طعاماً حتى يحمد الله الذى وهبه إياه ، وأنه لا يفتأ يردد الصلوات والدعوات فى أثناء تدربه على الملاكمه ، وقبل كل مباراة يخوضها .

وحدثني أدولاد استيتينوس المدير الأعلى لشركة جنرال موتورز ووزير خارجية أمريكا الأسبق أنه كان يصلّي ويتهلل إلى الله أن يهبه الحكمة والسداد ليلاً ونهاراً.

وعندما كان البطل «أيزنهاور» في طريقه إلى (أوروبا) طائراً ليتولى قيادة جيوش الحلفاء في الحرب الأخيرة، كان الشيء الوحيد الذي اصطحبه معه هو الكتاب المقدس !!

وقال له السطاح الجنرال «مارك لارك». إنه كان يقرأ الكتاب المقدس خلال سنة

الحرب كل يوم ، ثم يركع على ركبتيه ويدعو الله !!

لقد أدرك هؤلاء الأبطال أنهم ليسوا وحدهم في الحياة ، وأنهم فقراء إلى هذا الإله القادر الرحيم كي يصبحهم في دنياهم بتوفيقه ورعايته ، كما تفضل عليهم - وهم في عالم الغيب - ب恩مة الإيجاد والخلق) .

### ٣٤٣٤٣٤٣٤

وحقiq بالناس أن يفزعوا إلى الله كلما حزبتهم شدة ، أو رابتهم أزمة ، فَمَنْ غِيره - جل شأنه - يستطيع سد خلتهم ، وإشباع نهمتهم ، ورد طمأنينتهم :

**كُلُّهُمْ سَائِلٌ ، وَأَنْتَ مَجِيبٌ** تلك نعمتك ، ما لها من نفاد  
يَبْدَأَهُ مِنَ الْحَقِّ كَذَلِكَ أَلَا نَجْهَلُ هَذَا الَّذِي نَسْأَلُهُ ، وَأَلَا نَتَقْرَبُ إِلَيْهِ بِاسْلَوبِ  
يَمْقَتِهِ ، وَأَلَا نَنْسَبُ إِلَيْهِ عَنْ خَطَأٍ أَوْ عَمْدٍ مَا هُوَ بِرَيْءٍ مِنْهُ .

كان المشركون قديماً يعبرون عن عاطفتهم نحو الله بهذه الكلمات :  
**لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ** . لبيك لا شريك لك لبيك ، إلآ شريكاكاً هو لك ، تملكه وما ملك !!  
فجاء الإسلام ليصحح هذا التعبير ، ويُغَيِّرُ الفهم الذي أوحى به .

مع استبقاء العاطفة الأصلية التي تربط البشر بخالقهم الأعلى ، وتسوقهم إلى ساحتة راغبين راهبين ، فغيّر العبارة على النحو الآتي : **لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ** ، **لَبَّيْكَ لَا شريك لك لبيك** . إنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمَلْكُ ، لَا شريك لك !!  
إنَّ تَصْحِيحَ الاعْتِقَادِ وَالْعِبَادَةِ هُوَ الْهَدْفُ الْأَوَّلُ لِلْإِسْلَامِ .

فقد كانت الأم الأولى تعرف الله معرفة يشوبها القصور والخطأ :

**(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ** )<sup>(١)</sup>

فلم يكن بد من إزاحة هذا الجهل ، ودحض تلك الشبهات .

والمؤسف أن النصارى يتوجهون إلى الله كما رأيت ، ولكنهم يجعلون معه إليها آخر ،  
أو إلهين آخرين !!

ومن ثم تضطرّب وجهتهم وتجور أدعیتهم .

ويسائلون الله وهم يقصدون عيسى ، أو يسائلون عيسى وهم يقصدون الله .

(١) يوسف : ١٠٦ .

مع أَنَّ عِيسَى وَمُحَمَّداً وَغَيْرَهُم مِّنَ الْمَرْسِلِينَ لَيْسُوا إِلَّا بَشَرٌ ضِعَافًا يَفْتَقِرُونَ إِلَى  
فَضْلِ اللَّهِ ، وَيَقْفَوْنَ بِبَابِهِ وَهُمْ رَاجُونَ ثُوابَهُ وَخَاشُونَ عَقَابَهُ .

إِنَّا نَكَرْهُ الْإِلْحَادَ الَّذِي جَعَلَ مِنَ الْأَجِيَالِ الْحَاكِرَةِ قَطْعَانًا تَحْيَا فِي الْعَالَمَيْنَ ، وَهِيَ  
مُتَنَكِّرَةٌ لِرَبِّ الْعَالَمَيْنَ .

وَكُلُّ مَا نَبَغَى أَنْ يَحْلِ مَكَانَ هَذَا الْإِلْحَادِ الْمُغْتَمَ بِإِيمَانٍ يَنْهَضُ عَلَى الصَّوَابِ ، وَيَتَأَلَّقُ  
فِيهِ نُورُ الْحَقِّ .

وَالْتَّوْحِيدُ الَّذِي يُلْعِنُ الْإِسْلَامَ فِي تَقْرِيرِهِ ، وَيَحْضُرُ الْبَشَرَ عَلَى فَهْمِهِ وَالْأَخْذِ بِهِ لَيْسَ  
بِدُعَةٍ جَاءَ بِهَا النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ، كَلَّا ، إِنَّهُ تَوْكِيدُ الدُّعُوَةِ الْأُولَى الَّتِي هَتَّفَ بِهَا الْأَنْبِيَاءُ  
أَجْمَعُونَ ، وَإِبْرَازُ الْأَصْلِ الَّذِي قَامَتْ عَلَيْهِ دِيَانَاتُهُمْ كُلُّهَا .

وَالْكُتُبُ وَالرَّسَائِلُ الَّتِي مَا تَرَالُ بَيْنَ أَيْدِي النَّصَارَى إِلَى يَوْمِ النَّاسِ هَذَا تَشِيرُ إِلَى هَذِهِ  
الْحَقِيقَةِ إِشَارَةً تَنْطِبَقُ مَعَ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْعَزِيزِ أَتَمُ الْاِنْطِبَاقَ .

فَفِي سَفْرِ «الْتَّشْنِيَّةِ» إِصْحَاح٤ عَدْد٣٦ : «لَتَعْلَمُ أَنَّ الرَّبَّ هُوَ إِلَهٌ لَيْسَ أَخْرَ سَوَاهُ»  
وَذَلِكَ كَقُولُ اللَّهِ فِي كِتَابِهِ : ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾<sup>(١)</sup>

وَجَاءَ فِي هَذَا السَّفْرِ : «رَدَّدَ فِي قَلْبِكَ أَنَّ الرَّبَّ هُوَ إِلَهٌ فِي السَّمَاوَاتِ مِنْ فَوْقِ  
وَفِي الْأَرْضِ مِنْ أَسْفَلِ» ، وَهَذَا كَقُولُ اللَّهِ فِي كِتَابِهِ :

﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ حَكِيمٌ  
الْعَلِيمُ﴾<sup>(٢)</sup> وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا

وَجَاءَ فِي هَذَا السَّفْرِ أَيْضًا : «أَسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلَ ، الرَّبُّ إِلَهُنَا رَبُّ وَاحِدٌ» . وَإِسْرَائِيلُ  
هُوَ يَعْقُوبُ الَّذِي جَمَعَ أَوْلَادَهُ وَهُوَ يَحْتَضِرُ لِيَسْتُوْقَنُ مِنْ بَقَائِهِمْ عَلَى التَّوْحِيدِ :

﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ  
يَعْقُوبَ الْمُؤْمِنَ إِذَا قَالَ لِتَبَّانِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ  
وَإِلَهُ أَبَاهَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَحْدَهُ﴾<sup>(٣)</sup>

• (١) مُحَمَّدٌ : ١٩ . (٢) الزُّخْرُفٌ : ٨٤ - ٨٥ . (٣) الْبَقَرَةُ : ١٣٣ .

وجاء في سفر أشعيا ، إصحاح ٥ : ٤ «أنا ربُّ وليس آخر ، لا إله سواي» ، وجاء فيه أيضاً : «أنا الأول ، وأنا الآخر ، ولا إله غيري» ، وهذا كقول الله :

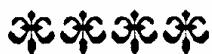
﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ لَهُ  
مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَحْكُمُ وَيُنْهَا وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ  
هُوَ الْأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ (١)

وجاء فيه أيضاً : «لأنِّي أنا الله وليس لي شبيه» ، وذلك كقول الله في كتابه :

﴿لَيَسْ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (٢)

ولم يخلُ العهد الجديد من بقايا حقٍ يعلقُ العباد بباريهم الأعلى ، وتقفهم في مجال العبودية المخصة على اختلاف ألسنتهم وألوانهم .

لا يفضل أحد الآخر إلا بمدى ما يكُنه من إخلاص ، ويترافق به من قُربٍ إلى الله الواحد القهار .



ولقلة التنزيه وفشو الجهل بالله كانت المشاعر العامرة بالتوحيد المطهرة من أدران الشرك أحب شئ إلى الله .

وكلما ظهرت في الدعاء آثار لإجلال الله والاعتراف بعظمته المفردة وكماله المطلق ، كان ذلك أقرب إلى القبول وأدنى إلى الاستجابة .

روى أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول : «اللهم إني أسألك بأنني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد». فقال النبي للرجل : «لقد دعوت الله بالاسم الأعظم الذي إذا سُئل به أعطى ، وإذا دُعى به أجاب» (٣) .

(١) الحديد : ١ - ٣ .

(٢) الشورى : ١١ .

(٣) الترمذى .

أجل ، ألا ترى الرجل قد اضطررت فى نفسه عقيدة ضللت عنها ألف مولفة من الناس؟ أين من التنزية الذى يملاً فؤاده شرك جماهير تحسب أن الله ابناؤنا وتحسب أن له صاحبة؟!

وكذلك شجع رسول الله كل دعوة ينصح فيها ما يجب لله من تمجيد ، وما يستحقه تبارك وتعالى من ثناء وحمد ، وما يُشعر بفقر العالم كله إليه وقيامه به ، مثل : «يابديع السموات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام . يا أرحم الراحمين لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، يا حي يا قيوم» .

ومن الأدعية التى يتفرق فيها رواء الإعزاز والإخلاص ما روى : «اللهم إني أسألك بعاقد العز من عرشك ، ومنتهى الرحمة من كتابك ، واسمك الأعظم ، وجذك الأعلى ، وكلماتك التامة» .

وما روى أيضاً : «اللهم إني أسألك باسمك الطاهر الطيب المبارك الأحب إليك ، الذى إذا دعيب به أجبت ، وإذا سئلت به أعطيت ، وإذا استرحمت به رحمت ، وإذا استفرجت به فرجت ..» .

وهذه الأدعية باب واسع ، يرجع إليها فى مظانه من شاء الاستزاده .

### ﴿ ﴿ ﴿ ﴿

هل ندع نفوس الناس تناسب فى فجاج الحياة وحدها ، وتتوغل فى متهاها ، دون مولى يرعاها ، ودون نصیر يعصبها؟

إن الإنسان مهما ادعى القوة ضعيف .

ومهما انفرد بنفسه فسوف تكتنفه الوحشة والخيرة .

وما أكثر المسارب والمشعبات التى يصل المرء إليها ثم لا يدرى : أيها يأخذ؟ وأيها يترك؟

وهو إن ضل الطريق يوماً فى معضلة واجهته فقد يظل يتعرّف السير أياماً أوأعواماً من غير أن يبلغ غاية يستقر عندها .

لأنه يضرب ابتداءً على غير هدى؟!

ما أفقرنا إلى من يلهمنا الصواب ، ويهدينا إلى الحق كلما اشتبهت علينا الأمور .  
والإنسان معرض للألام من كل ناحية فيه ، إنه كمدينة مفتوحة يمكن أن تُدك في  
أى وقت ، ومن أية جهة .

والمرء إذا نظر إلى بدنـه وجد أن كل ذرة فيه يمكن أن تكون منفذًا لمرض عضال  
يبيـعـه على الأـنـينـ العـالـىـ .

وإذا نظر إلى شأنـه كـلهـ وـجـدـ أنـ أـىـ أـمـرـ منـ أـمـورـهـ يـمـكـنـ أنـ يـنـقـلـبـ عـلـيـهـ ليـجـرـ وـرـاءـ  
الـشـقـاءـ الطـوـيلـ .

ما أفقـرـناـ إـلـىـ اـسـتـدـامـةـ النـعـمـةـ ،ـ وـاتـقـاءـ النـقـمـةـ ،ـ وـالـاسـتـرـواـحـ فـىـ الـحـيـاـةـ إـلـىـ ماـ يـجـعـلـ  
الـلـهـ فـىـ الـحـيـاـةـ مـنـ يـُـسـرـ وـبـرـكـةـ وـسـكـينـةـ !!  
إـنـ هـذـاـ كـلـهـ هـوـ مـاـ تـكـفـلـهـ الـصـلـاـةـ لـلـمـؤـمـنـ .

إـنـ الإـسـلـامـ نـظـمـ وـقـفـاتـ كـرـيمـةـ يـنـاجـيـ الإـنـسـانـ فـيـهـ رـبـهـ عـدـةـ مـرـاتـ فـىـ  
الـيـوـمـ الـوـاحـدـ .

فـىـ هـذـهـ الـوقـفـاتـ يـكـلـمـ الإـنـسـانـ رـبـهـ ،ـ فـيـعـتـرـفـ أـولـاـ بـحـمـدـهـ وـمـجـدـهـ ،ـ ثـمـ يـسـأـلـهـ بـعـدـ  
ذـلـكـ هـدـاـيـةـ تـحـفـ النـعـمـةـ وـيـجـانـبـهاـ السـخـطـ .

فـىـ هـذـهـ الـوقـفـاتـ يـقـفـ الإـنـسـانـ أـمـامـ رـبـهـ يـسـتـعـينـهـ وـيـسـتـرـضـيـهـ .

يـقـفـ أـمـامـ ذـىـ الـعـلـمـ الشـامـلـ لـيـكـمـلـ لـهـ قـصـورـ مـعـرـفـتـهـ .

وـأـمـامـ ذـىـ الـقـدـرـةـ الـهـائـلـةـ لـيـكـمـلـ لـهـ مـاـ يـعـجـزـ عـنـهـ حـتـمـاـ لـضـعـفـ قـوـاهـ .

يـقـولـ اللـهـ تـعـالـىـ -ـ فـىـ حـدـيـثـ قـدـسـىـ -ـ :ـ «ـ قـسـمـتـ الـصـلـاـةـ بـيـنـ وـبـيـنـ عـبـدـىـ  
نـصـفـيـنـ .ـ فـإـذـاـ قـالـ :ـ الـحـمـدـ اللـهـ رـبـ الـعـالـمـيـنـ ،ـ قـالـ :ـ حـمـدـنـىـ عـبـدـىـ .ـ وـإـذـاـ قـالـ :ـ  
الـرـحـمـنـ الرـحـيمـ ،ـ قـالـ :ـ أـثـنـىـ عـلـىـ عـبـدـىـ ،ـ وـإـذـاـ قـالـ :ـ مـالـكـ يـوـمـ الدـيـنـ ،ـ قـالـ :ـ  
مـجـدـنـىـ عـبـدـىـ ،ـ وـإـذـاـ قـالـ :ـ إـيـاـكـ نـعـبـدـ وـإـيـاـكـ نـسـتـعـينـ ،ـ قـالـ اللـهـ :ـ هـذـاـ عـهـدـ بـيـنـ وـبـيـنـ  
عـبـدـىـ ،ـ وـلـعـبـدـىـ مـاـ سـأـلـ ،ـ فـإـذـاـ قـالـ :ـ اـهـدـنـاـ الـصـرـاطـ الـمـسـتـقـيمـ صـرـاطـ الـذـيـنـ أـنـعـمـتـ  
عـلـيـهـمـ ،ـ قـالـ اللـهـ :ـ لـعـبـدـىـ مـاـ سـأـلـ»ـ(١)ـ .ـ

(١) أـحـمدـ .

إنَّ الرُّكْضَ فِي مِيادِينِ الْحَيَاةِ بِقَدْرِ مَا يَجْلِلُ الْبَدْنَ بِالْغَبَارِ وَالْعَرْقِ يَجْلِلُ الرُّوحَ  
بِالْغَيْوَمِ وَالْأَكْدَارِ .

والمرء - إثر كل شوط طويل - يحتاج إلى ساعة يلم فيها شعثه ، ويعيد النظافة  
والنظام إلى ما تعكرَ وانتكث من شأنه كله .

وليس الصلاة إلَّا لحظات لاسترجاع هذا الكمال المفقود أو المنشود .

عن أبي سعيد أنه سمع النبي ﷺ يقول : «الصلوات الخمس كفارة  
لما بينها . أرأيت لو أنَّ رجلاً كان يعمل ، وكان بين منزله وبين معمله  
خمسة أنهار ، فإذا أتى معمله عمل فيه ماشاء الله فأصابه الوسخ أو  
العرق ، فكلما مرَّ بنهر اغتسل ، ما كان ذلك يبقى من درنه؟  
فكمَا عَمِلَ خَطِيئَةً فَدَعَا وَاسْتَغْفَرَ غُفرَ له ما كان قبلها»<sup>(١)</sup> .

وآهٌ من سُعْارِ المَادَّةِ الَّذِي يلْفَحُ الوجهَ فِي معركةِ الخِيزِ !

إنَّ البَشَرَ يَقْتَحِمُونَ هَذِهِ السَّاحَةَ الْمَائِجَةَ وَغَرَائِزَ الْأَثَرَةِ أَيْقَظُّونَ مَا تَكُونُ فِي دَمَائِهِمْ ! .  
إِنَّ حَوَائِجَهُمْ وَحَوَائِجَ أَسْرِهِمْ وَأَرْحَامِهِمْ هِيَ الَّتِي يَرَوْنَ فِي أَثْنَاءِ هَذَا السَّبَاقِ الطَّوِيلِ .  
أَمَا التَّرَاحِمُ وَالْإِيْثَارُ وَالْبَرُّ فَقَلْمَمُهَا تَبْدُو صُورَهَا النَّبِيلَةَ لِأَعْيُنِهِمْ .

وَتَرَكَ النَّاسُ تَصْرِعُهُمْ هَذِهِ الْمَشْبُوبَةُ قَتْلًا لِكُلِّ مَا فِي الْإِنْسَانِيَّةِ مِنْ فَضَائِلِ .

فَلَا عَجَبٌ إِذَا شَرَعَ اللَّهُ الصَّلَاةَ لِلنَّاسِ كِيمَا تَنْجِيَهُمْ مِنْ هَذَا السَّعِيرَ بَيْنَ الْحَيْنِ  
وَالْحَيْنِ . عَنْ أَنْسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ مَلَكًا يَنْادِي عَنْدَ كُلِّ  
صَلَاةٍ : يَا بْنَى آدَمَ ، قُومُوا إِلَى نِيرَانِكُمُ الَّتِي أَوْقَدْتُوْهَا فَأَطْفَئُوهَا»<sup>(٢)</sup> .

وَفِي رَوَايَةٍ : «تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ ، إِذَا صَلَّيْتُمُ الصَّبَحَ غَسَلْتُهَا ، ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ  
تَحْتَرِقُونَ ، إِذَا صَلَّيْتُمُ الظَّهَرَ غَسَلْتُهَا ، ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ ، إِذَا صَلَّيْتُمُ الْعَصْرَ  
غَسَلْتُهَا ، ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ ، إِذَا صَلَّيْتُمُ الْمَغْرِبَ غَسَلْتُهَا ، ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ ،  
إِذَا صَلَّيْتُمُ الْعَشَاءَ غَسَلْتُهَا ، ثُمَّ تَنَامُونَ فَلَا يُكْتَبُ عَلَيْكُمْ حَتَّى تَسْتَيقِظُوا»<sup>(٣)</sup> .

(٣) الطبراني .

(١) البراز .

(٢) الطبراني .

وفي الحديث تصوير لما ي الواقعه العامة من صغائر وذنوب في معايشهم المضطربة المشابكة ، وما تلطفه الصلوات وترتبطه من هذه الجبهة والجنوب .

الصلاوة تسام يرفع المرء إلى السماء كلما أخلد إلى الأرض ، ويصله بالله كلما قطعته عنه أسباب الغفلة والذهول .

ولننقل هنا ما رواه «دييل كارنيجي» عن الدكتور «ألكسيس كاريل» مؤلف كتاب «الإنسان ذلك المجهول» وأحد الحائزين على جائزة «نوبل» قال : (لعل الصلاة هي أعظم طاقة مولدة للنشاط عرفت إلى يومنا هذا . !!

وقد رأيت - بوصفي طبيباً - كثيراً من المرضى فشلت العقاقير في علاجهم ، فلما رفع الطبّ يديه عجزاً وتسليمًا تدخلت الصلاة فأبرأتهم من عللهم .

إن الصلاة كمعدن «الراديوم» مصدر للإشعاع ، ومولود ذاتي للنشاط .

وبالصلاحة يسعى الناس إلى استزادة نشاطهم المحدود حين يخاطبون «القوة» التي لا يفني نشاطها .

إننا نربط أنفسنا - حين نصلى - بالقوة العظمى التي تهيمن على الكون ، وسائلها ضارعين أن تمنحنا قبساً منها نستعين به على معاناة الحياة ، بل إنَّ الضراعة وحدها كفيلة بأن تزيد قوتنا ونشاطنا ، ولن تجد أحداً ضرع إلى الله مرة إلاّ عادت عليه هذه الضراعة بأحسن النتائج ) .

وهذا الكلام هو عندى خير تفسير لقول الله عزَّ وجلَّ :

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ إِلَيْهِمْ

دُعُوَةُ الدَّاعِ إِذَا دَعَاهُنَّ فَلَيُسْتَجِيبُوا إِلَيْهِمْ وَلَيُؤْمِنُوا بِلِعْلَهُمْ يُرِشِّدُونَ﴾<sup>(١)</sup>

أىَّ خير يكسبه الإنسان إذا استيقظ من منامه فكان أول تفكيره الاتصال برَّه ، والاستعانة به ، والاستمداد منه؟!

إنَّه ينال ضماناً من السماء أن يقضى سحابة نهاره وهو في حِرْزٍ منيع !!

أجل؛ لقد أصبح فأرضي ربَّه ولاذ به ، وطلب حمايته .

والله عزَّ وجلَّ أحقُّ من يعطي الأمانَ من استأمنه ، وأن يمنح جواره من استجار به .

(٢) مسلم .

(١) البقرة: ١٨٦ .

وفي الحديث : «من صَلَّى الصبح فهو في ذمة الله ، فلا يطلبكم الله من ذمته بشيء ، فإنه من يطلبه من ذمته بشيء يدركه ثم يَكُبُّه على وجهه في نار جهنم»<sup>(٢)</sup> .  
هذا إعلان من الله للناس أن يكرموا رجلاً بدأ يومه بالصلاه ، ثم غدا إلى عمل ، فغدت معه كلامه الله ورعايته .

وفي رواية عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال : «من صَلَّى الصبح فهو في ذمة الله تبارك وتعالى ، فلا تخفروا الله تبارك وتعالى في ذمته ، فإنه من أخفر ذمته طلبه الله حتى يَكُبُّه على وجهه» .

وقيل : إن الحجاج أمر سالم بن عبد الله بقتل رجل ، فقال سالم للرجل : أصليت الصبح ؟ فقال الرجل : نعم ؟ قال : فانتطلق ، فقال له الحجاج : ما منعك من قتله ؟ فقال له سالم : حدثتني أبي أنه سمع رسول الله يقول : «من صَلَّى الصبح كان في جوار الله يومه» .

فكريتُ أن أقتل رجلاً قد أجاوه الله<sup>(١)</sup>

والناظر في بعض العبارات التي تصوّر صلة الله عزّ وجلّ بعباده المخلصين له ، يجد أن الله لم يدخلهم في جواره ، بل إنه نزلهم منزلة نفسه ، وجعل إيزاءهم عدواً عليه - تقدست ذاته - .

ومن ثم يقول في حديثه القدسى : «من عادى لي ولِيًا فقد أذنته بحرب»<sup>(٢)</sup> .  
ومسوالات الله تعنى مزيداً من التعلق به واللّجأ إليه بالصلاه ، وبغيرها من الفرائض والنواfal .

وقد يبلغ هذا التكريم الإلهي لمن يرتبون بالله في حياتهم وشؤونهم كلّها أن الله يلتحق به ، وينسبهم إليه ، ويجعل معاملتهم كأنها معاملة له هو .

قال رسول الله ﷺ : «إن الله عزّ وجل يقول يوم القيمة : يا ابن آدم مرضت فلم تُعْدْنِي !! قال : يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟! قال : ما علمت أن عبدى فلاناً مرض فلم تُعْده ؟ أو ما علمت أنك لو عُدْته لوجدتني عندك .. يا ابن آدم

(١) مسلم .

(٢) أحمد .

(٢) البخاري .

استطعْمَتُك فلم تطعْمنِي؟ قال : يارب كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟! قال : أما علمت أنه استطعْمَك عبدى فلان فلم تطعْمه؟! أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي .. ابن آدم استسقِيْتُك فلم تسقني؟! قال يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟! قال : استسقاك عبدى فلان فلم تسقه ، أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندي»<sup>(١)</sup> .

وهذا الحوار العجيب بين الدلالة في مدى إعزاز الله لقوم من الناس لا تزال صلاتهم بالله تستوثق وتتوارد حتى يعد الله كرامتهم من كرامته ومكانتهم من مكانته .

على أن أى إنسان مهما ارتفعت عند الله درجته فهو ليس بمنجاً من متاعب الجهاد وأكدار الحياة الحافلة بأفاني من الغُشم والجحود .

أتري عمر بن الخطاب أعدل حاكم عرفته الدنيا كيف قُتِل مُتهماً بظلم؟

إن كان الرجل الكبير قد أصابه ما أصاب ، فإن عيادته في جراحته القاتلة كأنها عيادة للنفسه .

وكل ذلك ما أصاب المسلمين الأولين من أزمات الحصار الخانق الذي ضربه المشركون عليهم ، وعرضوهم فيه لألوان الجوع والعطش ، وأجلاؤهم أن يأكلوا ورق الشجر حتى تقرّحت أشداقهم .

إنه ليس جوع تَسْوُل كما يفهم الحمقى ، ولكن جوع كفاح وتصحية .

قد تقول : فما فائدة حسن الصلة بالله وسعة الرعاية التي يبسطها على عباده المحبين وأوليائه المقربين إذا كانوا لم ينجوا من براثن الظلم ، ولم يفلتوا من حبائل الغدر؟!

وأين سياج العناية العليا حول عمر وعثمان وعلى الدين قتلوا شر قتلة؟ وهذا التساؤل لا يقدح فيما قررنا آنفاً .

وكل ما يوجبه أن نصحح مفاهيم الحياة الكبيرة في أذهان الناس حتى لا يضلوا في فهم ظواهرها .

ما رأى أولئك المتسائلين إذا عرفوا أنَّ عمر كان يدعوه قبل وفاته أيام أن يرزقه الله الاستشهاد؟ وأن تكون شهادته لا في الجبهة الشرقية التي يدور القتال فيها مع فارس ، ولا في غيرها من جبهات القتال الأخرى مع الرومان؟ لا .. بل في دار الهجرة ، أى في المدينة نفسها ..

لكان الرجل كان يحدد الطريقة التي يؤثر أن تجيء بها منيّته !!

(١) مسلم .

إنَّ عمر وأمثاله من كبار الرجال يعرفون طبيعة هذه الحياة الدنيا ، ويعرفون الوظيفة المضنية التي يقوم بها أولو العزم في غرس الإيمان والخلق والعدالة ، وفي خلع الحشائش السامة والuousج الشائك الذي ينتشر في تربة هذه الأرض البائسة ويملئها بالظلم والظلمات .

إنَّ هؤلاء الرجال يعرفون وظائفهم وينهضون بآثقالها في طمأنينة وسرور .  
وما يلقونه في حياتهم من حرمان لا يؤودهم .  
وما يختتم حياتهم من مصارع لا يُفزعهم .

بل قد يكون أمنيتهم على نحو ما دعا عمر بن الخطاب ، ومثل ما روى عن سقراط بعد الحكم عليه بالقتل مسموماً :

سقراط أعطى الكأس - وهي منيَّة - شفتى محب يشتته التقبيل  
يجب أن نوضح أطراف هذا القدر الذي يبدو فاجعاً ثقيلاً ، فنؤكد أنه لا يدلُّ على  
أية شارة من شارات السُّخَط أو القسوة ، وأنَّ الله إِذْ سمح به - تمشياً مع السنن الكونية  
التي أنشأ الحياة عليها - ينفذه جلَّ شأنه وهو أرضى ما يكون على عبده وأرغبه ما  
يكون في الإحسان إليه .

وتأمل قوله عزَّ وجلَّ في حديثه القدسى : «من أهان لى ولیاً فقد بارزنى بالمخاربة  
وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددى في قبض نفسِ عبدِ المؤمن ، يكره الموت ،  
وأكره مساءاته ، ولا بدَّ له منه»<sup>(١)</sup> .

يا عجباً !! ما هذا الحنوُّ البالغ ، وهذا العطف السابغ؟!  
الموت حقٌّ ما منه بدُّ ، والله يريد إنفاذ قضائه الحتم .  
لكنَّ العبد يكره الموت .

والله لا يحب أن يشعر عبده بأنَّ إساءةً جاءته من عند ربِّه .  
فانظر إلى هذا التصوير في إيقاع القضاء ، وما تنضح به عبارة : «ما ترددتُ في شيء  
أنا فاعله ترددى في فعل هكذا ..» .

إنَّ كلَّ ما يدلُّ على قسوة أو سخط مُنْتَفَبَّةٍ من جانب الله فيما تتعرض له حياة  
الأبطال والأمجاد من كبوات وألام اقتضتها طبيعة النَّسَق العالى الذي يحيون فيه .

(١) البخارى .

وهو لاء الأمجاد - من الناحية الأخرى - يستقبلون أقضية الله بتسليم وبشاشة .  
ويكفى أن يلحظوا مجئها من الله لتتبدل وعورتها سهولة ، ومرارتها عذوبة .  
فهي أمام الأنوار المعتادة كأنها أرzae لا تُحتمل .

وأما هي بالنسبة إلى من سيقت إليهم فأعراض خفاف أولطاف .

لو أن أهل الإقدام ينظرون إلى الحتوف نظرة الجبناء إليها ما ثبت منهم أحد ، لكنهم  
يحتقرن ما أعظمها هؤلاء ، فيُقبلون بينما هؤلاء يولون الأدبار .

كذلك أهل الإيمان ينظرون إلى الأحداث الضخمة على ضوء علاقتهم بالله ،  
فما يملكون فرع أو يضطرب لهم فكر .

وإذا توجسوا من خطر فوق طاقتهم فزعوا إلى الله كما يفزع الطفل إلى أحضان أبيه ،  
يتقى به المكرور وينشد لديه الحماية .

وفي الحديث : كان النبي ﷺ إذا حَزَّهُ أَمْرٌ فَزَعَ إِلَى الصَّلَاةِ<sup>(١)</sup> .

ويقول «دليل كارنيجي» : (ترى لماذا يجلب الإيمان بالله والاعتماد عليه - سبحانه وتعالى - الأمان والسلام والاطمئنان؟

سأدع «وليم جيمس» يجيب عن هذا السؤال : إنَّ أمواج المحيط المصطحبة المتقلبة لا تعكِّر قط هدوء القاع العميق ، ولا تقلق أمنه ، وكذلك المرء الذي عمَّق إيمانه بالله خليق ألا تعكِّر طمأنينته التقلبات السطحية المؤقتة .

فالرجل المتدَّين حقاً عصى على القلق ، محتفظ أبداً باتزانه ، مستعداً دائماً لمواجهة ما عسى أن تأتى به الأيام من صروف .

فلماذا لا نتجه إلى الله إذا استشعرنا القلق؟ .. ولماذا لا نربط أنفسنا بالقوة العظمى المهيمنة على هذا الكون؟ لا يقعدنَّ بك عن الصلاة والضراعة والابتهاج أنك لست متدينًا ..



(١) البخاري .

والصلاه فى الإسلام تعنى شيئين ، أحدهما خاص ، والأخر عام :

أحدهما هذه الوجبات الروحية الموزعة على آناء الليل وأطراف النهار متضمنة أفعالاً شتى من قراءة ، وتسابيع ، وخشوع ، وتنزيه ، وركوع ، وسجود ، وقيام ، وقعود ، وفق ما رسم لها الشارع من صور وهيئات .

وهذه الصلاه ركن فى الإسلام لا يُعفى مؤمن من أدائها ، وهى لقلبه ويقينه كالغذاء لجسمه .

فمن حافظ عليها صَحَّ دينه ، ورَبَا إيمانه ، وترشَّح لغفران الله ورضوانه .  
ومن تهاون بها مع علمه بحقّها وثمرتها تعرّض للضياع والهلاكه .

قال رسول الله ﷺ : «خمس صلوات افترضهنَ الله ، من أحسن وضوءهنَ وصلاؤهنَ لوقتهنَ ، وأتمَ ركوعهنَ وسجودهنَ وخشوعهنَ كان له على الله عهدٌ أن يغفر له . ومن لم يفعل فليس له على الله عهد ؛ إن شاء غفر له وإن شاء عذَّبه» (١) .

أمّا من أهملها عن جُهْد واستهانة فهو أقل من أن ينسب إلى إيمان أو يحترم له دين .

وقد تعنى الصلاة الدعاء المطلق .

كلما ساورت الإنسان حاجة ، أو أفلقه هم ، أو هدّده مرض ، أو أزعجه أزمة هرع إلى الله يستنجد به ويسأله الرحمة والعافية .

والإسلام مشحون بمئات الأدعية التي أحصت تقريباً كل ما يعرض للإنسان من رغبة ، أو يرهب من محذور ، أو يستزيد من نعمة .

وقد وضع هذه الأدعية المفصلة كلُّها بين يدي الإنسان ، ليجأ إليها إلى الله كلما جاش بفؤاده شعور .

والجميل أنَ الله يحبُّ من عبده أن يطلب منه ما يبتغي ، وأن يسأله من فضله كيف شاء .

بل إنَ الله يحدِّر الإنسان من الاكتفاء بقواه الخاصة .

(١) أبو داود .

فإنَّ هذا القصور يحرم صاحبه بركات العناية العليا ، ويُسْجِنُه طول حياته في حدود ضعفه وجهله .

وفي الحديث القدسي :

«يا عبادِي كُلُّكُمْ ضالٌّ إِلَّا مِنْ هُدِيَتِهِ ، فَاسْتَهْدِونِي أَهْدِكُمْ .

يا عبادِي كُلُّكُمْ جائعٌ إِلَّا مِنْ أطعْمَتِهِ ، فَاسْتَطِعْمُونِي أَطْعِمْكُمْ .

يا عبادِي كُلُّكُمْ عارٍ إِلَّا مِنْ كسوتِهِ ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ .

يا عبادِي إِنَّكُمْ تخطئُونَ بِاللَّيلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرُ لَكُمْ» .

أرأيتَ هذا الإِلْحَاجَ فِي رَدِّ الْإِنْسَانِ التَّائِهِ إِلَى رَبِّهِ لِيَتَزَوَّدَ مِنْهُ ، وَيَسْتَقْوِي بِهِ ، وَيَعْتَمِدُ عَلَيْهِ ..

إِنَّهُ مَا يُحِرِّمُ مِنْ هَذَا الْخَيْرِ الْمُبَذَّلِ إِلَّا شَقِّيَ مُسْكِينٌ .

ولذلك قال رسول الله ﷺ : «لا تُعْجِزُوا فِي الدُّعَاءِ ، فَإِنَّهُ لَا يَهْلِكُ مَعَ الدُّعَاءِ أَحَدٌ»<sup>(١)</sup> .

وقال : «الدُّعَاءُ سِلَاحُ الْمُؤْمِنِ ، وَعِمَادُ الدِّينِ ، وَنُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»<sup>(٢)</sup> .

وقال : «إِنَّ اللَّهَ حَسِيْرٌ كَرِيمٌ ، يَسْتَحِي - إِذَا رَفَعَ الرَّجُلَ إِلَيْهِ يَدِيهِ - أَنْ يَرَدَّهُمَا صَفْرًا خَائِبَتِينَ»<sup>(٣)</sup> .

وقال : «سُلُّوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يُسْأَلُ ، وَأَفْضَلُ الْعِبَادَةِ انتِظارُ الْفَرْجِ»<sup>(٤)</sup> .



(١) مسلم .

(٢) الحاكم .

(٣) أبو يعلى .

(٤) الترمذى .

كم من عبقرىات مرغتها فى الوحد خصومات  
خسيسة !!

إن وقائع الحياة أتعى مما نتمنى ، ودسائس الحاقدين  
ومكايدهم ومؤامراتهم لا تنتهى حتى تبدأ .

إن الحال فى كل زمان تحتاج إلى أمداد سريعة من  
المساندة أو العزاء لتعيد إلى الموهوبين ثقتهما  
بأنفسهم وتشجعهم على المضي في طريقهم دون  
يأس أو إعياء ..

إنهم في حاجة لأن يقال لهم : لا تأسوا ، فإن ما  
تتوjosون من نقد أو تحاصل هو كفأ ما أتيتم من  
طاقة ورسوخ .

محمد الغزالى

## روحانية الرسول

للنفوس المعتادة لحظات تصفو فيها من كدر ، وترقى من غلظة ، وترقى إلى مستوى يحلق بأفكارها ومشاعرها إلى جونقى طهور .

لكنها لا تلبث طويلاً حتى تهبط إلى أفقها الداني ، لتعيش فيه أكثر وقتها ، ولترمق سويعات الكمال التي تعتبرها ، وكأنها ألق عارض ، أومعنى نصح من عالم بعيد .

وللنفوس العظيمة مجال أرحب مدى ، وأطول امتداداً ، تشرف فيه على الحياة ولها فكر أوعى ، وشعور أقوى .

وستقيم على نهج من السلوك الرفيع قلما تزل عنه .

فهي كالطير الذي ألف الذرا لا ينحط دونها إلا ماماً .

إذا هبط فما يبقى إلا ريشما يرفف بجناحيه صعداً إلى حيث يعيش .

كذلك خلق الله الناس ، وكذلك درجوا منذ الأزل .

فهم بين عامة مغلولين في قيد من مطالبهم المحدودة ، وربما انفكوا عنه حيناً .

وبين خاصةً أمكنهم الخلاص من أغلب هذه القيود ، وربما تشبت أحدها بأقدامهم فأرهقهم حيناً .

إذا كان شأن العامة أنزل رتبة من شأن الخاصة ، فإن هؤلاء الممتازين أنفسهم ، يقع بينهم من التفاوت في الخير والفضل ما يشبه التفاوت بين أبعاد الكواكب .

بعضها يفكر الناس في الوصول إليه ، لأنـه - وإن بعد - قريب .

وبعضها تنقطع الأوهام دونه ، لأن الشقة إليه لا يقطعها إلا الخيال الشرود .

والفارق بين عظامء الناس لا يدركها حصر .

وقد اقتضت حكمة الله أن يختار حملة الوحي الأعلى من الصفة المنتقاة بين هؤلاء الخاصة ، وهي صفة مبرزة في كل شيء .

فلو أقيمت سباق عامٌ بين أولى المواهب الناضجة ، والقرائح القوية ، والمعادن الصافية ،  
والأبدان النقية ، لكان أنبياء الله - وحدهم - أصحابَ السُّبْقِ فيه .

إنَّ الأنبياء رجال لا يُدآون في ذكائهم ، وصلابة عزائمهم ، وبُعد هممهم ، وسعة  
فطنتهم ، وإدراكهم الشامل لحقائق النفوس وطبعات الجماعات .

ومن الخطأ الجسيم أن تحسب أولئك المرسلين على قدر ما من «الطيبة» والسداجة ،  
رشحهم لقيادة بعض الناس في عصور التخلف والبساطة .

كلا ، كلا ، فإنَّ زعامة الأم في القديم والحديث لا تنعقد صدقاً إلا لرجال أتوا من  
المقدرة النفسية ما يوطئ لهم الأكنااف ، ويجمع حولهم الآلاف .

وقد أومأ القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة في قوله :

﴿وَإِذْ كُرِّرَ عِبْدًا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي  
وَالْأَبْصَرِ ﴿١٩﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَا هُمْ بِخَالِصَةٍ ذُكْرَى الدَّارِ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَهُمْ  
عِنْدَنَا مَا لَمْ نَصْطَفِنَ الْأَخْيَارِ﴾<sup>(١)</sup>

فهل فقهت أسرار العظمة في أطواء هذا الوصف الموجز ؟ أولى الأيدي والأبصار !!  
 أصحابِ القوى الفارهة ، والأبصار النيرة .

أصحابِ الإقدام الذي لا يشوبه عجزٌ ، والنظر الذي لا يشينه جهل .

إنهم مستخلصون من أجيال الدنيا ، كما تستخلص أطاييف البستان النَّصِير في هدية  
مستحبة ، قد يُترك فيها الجميل إلى ما هو أجمل منه .

ذاك هو معنى الاصطفاء .

٣٤٣٤٣٤٣٤

في ماضي الحياة ، وحاضرها ، ومستقبلها ، كان الوحي الإلهي - ولا يزال - العاصم  
الذي يمسك الأرض أن تزول ، والحضارات أن يتبس فيها الرُّشد بالغنى .

ولن يخطئك - وأنت تَرْمِق سَدَنَة هذا الوحي المبارك - أن تستجلِّي هامة شماءَ تَوَجَّها  
البخل والأدب ، وزانها اليقين والصدق ، برزت بين هداة السماء بروزاً كاد يحجب ما حوله .

(١) سورة ص : ٤٥ - ٤٧ .

مَنْ هُؤلَاءِ الدُّعَاءُ الْكَرَامُ؟ . وَمَنْ ذَلِكَ الْعِلْمُ الْبَاسِقُ؟ .

هُؤلَاءِ النَّبِيُّونَ الَّذِينَ وُكِلُوا إِلَيْهِمْ أَنْ يَهْدِوَ النَّاسَ رَدْحًا مِّنَ الزَّمْنِ فِي الْعَصُورِ الْأُولَى .  
أَمَّا هَذَا النَّبِيُّ الْمُتَفَرِّدُ ، فَقَدْ كُلُّفَ أَنْ يَهْدِيَ النَّاسَ الدُّهُرَ كُلَّهُ ، وَأُرْسَلَ بِكِتَابٍ يَبْقِي  
بَيْنَهُمْ ، مَا بَقِيَ اللَّيلُ وَالنَّهَارُ !! .

وَسَطَ أُولَئِكَ الصَّالِحِينَ الْمُصْلِحِينَ تَلْمِعُ - فِي خُشُوعٍ وَتَوقِيرٍ - مُحَمَّدُ بْنُ  
عَبْدِ اللَّهِ صَاحِبِ الرِّسَالَةِ الْخَاتِمَةِ ، وَمُلْتَقِيِ الْعَقَائِدِ وَالْفَضَائِلِ التِّي نَاطَ الْقَدْرُ بِهَا  
صَلَاحُ الْأُولَئِينَ وَالآخَرِينَ ،

إِنَّهُ الْمُثُلُ الْعُلِيَا كُلُّهَا فِي إِطَارِ مِنَ الْلَّحْمِ وَالدَّمِ ، تُسْتَطِعُ أَنْ تَعْرِفَهُ فِي يَسِيرٍ مِّنْ  
الْكِتَابِ الَّذِي جَاءَ بِهِ ، وَمِنْ الْحِكْمَةِ التِّي يَتَفَجَّرُ بِهَا مِنْ طَقْهِ .

بَيْدَ أَنْكَ لَنْ تُسْتَطِعَ الاتِّصالُ بِهِ إِلَّا إِذَا نَشَدْتَ لِنَفْسِكَ الْمُثُلَ الرَّفِيعَةَ  
الَّتِي تَحْيَا فِي سِيرَتِهِ .

أَمَا الْوَاقِفُونَ مَعَ أَنفُسِهِمْ فِي بَدَائِيَ الشُّوَطِ ، فَهُنَّ هَيَّاهُنَّ أَنْ يَرْتَبِطُوا بِهِ .

الْعُصَمَاءُ الَّذِينَ يَبْغُونَ التَّوْبَةَ ، وَالْجَهَّالُ الَّذِينَ يَطْلَبُونَ الْعِلْمَ ، وَالْحَائِرُونَ الَّذِينَ يَبْحَثُونَ  
عَنْ قَرْارٍ ، وَالْقَاصِرُونَ الَّذِينَ يَسْعَوْنَ وَرَاءَ الْكَمَالِ ، أُولَئِكَ جَمِيعًا فِي جَهَادِهِمْ لِبَلْوَغِ  
أَهْدَافِهِمْ سُوفَ يَعْرُفُونَ الْكَثِيرَ عَنْ «مُحَمَّدًا» لَأَنَّهُمْ سَيَهْتَدُونَ بِأَيِّهِ ، وَيَنْتَفَعُونَ بِنَصْحِهِ .  
وَلَنْ يَعْرُفَ «مُحَمَّدًا» أَبْدًا مِّنْ سَفَهِ نَفْسِهِ ، وَحَقَّرَ عَقْلَهُ وَقَلْبَهُ .

إِنَّ مِنْ خَصَائِصِ الْقِيَادَاتِ الْرُّوحِيَّةِ الْكَبِيرِيَّةِ أَنَّهَا تَقْدِحُ زِنَادَ النِّشَاطِ الإِنْسَانِيِّ فِيمَنْ  
اقْرَبَ مِنْهَا ، وَتَطْلُقُ قَوَاهُ الْكَامِنَةِ لِيُخْدِمَ الْحَقِيقَةَ الْكَبِيرَيَّةَ فِي حَدُودِ مَا أُوتِيَ .

وَإِذَا كَانَ الْزُّعُمَاءُ الْقَوْمِيُّونَ يَتِيحُونَ فَرْصَةً وَاسِعَةً لِخَدْمَةِ الْوَطَنِ مَثْلًا عِنْدَمَا يَهْبُّونَ  
لِلنَّهُوْضِ بِهِ وَإِعْلَاءِ شَأنِهِ ، فَالْقَادِهُونَ الْرُّوحِيُّونَ يَهْيَئُونَ لِأَتِبَاعِهِمْ وَحَوَارِيُّهُمْ فَرْصَةً وَاسِعَةً  
لِإِحْرَازِ الْكَمَالِ ، ثُمَّ لِغَرْسِهِ فِي دُنْيَا النَّاسِ ، لِتَحْلُوَ بِهِ هَذِهِ الدُّنْيَا وَتَعْلُوَ .

وَمَنْ ثَمَ قَلَنا : لَا يَعْرُفُ مُحَمَّدًا بِهِلْلَهِ مِنْ احْتِبَسَ فِي سِجْنِ الدُّنْيَا ، أَوْقَدَ عَنْ  
نَصْرَةِ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ .

وينابيع الحياة العاطفية والفكرية في نفس الرسول الكريم «محمد بن عبد الله» تجلى من معرفته الساطعة بالله ، وذكره الدائم له ، وأخذه بنصيبيه الضخم من معانى الكمال في أسمائه الحسنى .

ذلك أن الله خلق آدم على صورته ، واستخلفه في هذه الأرض ليكون نائباً عنه ، ومكّنه منها ، بل كلفه أن ينشط في استغلال خيرها وامتلاك أمرها ، ووصاوه أن يحترم أصله الإلهي العريق ، فلا يتخلّى عنه إلى نزعات الطّين ، ووساووس الشياطين .

يجب أن يكون عالماً ماجداً ، قادراً كريماً ، رحيمًا مُنعماً وهاباً ، إلى آخر ما ترمز إليه أسماء الله الحسنى من صفات الكمال وشارات العظمة والجمال .

والعالم - من أزله إلى أبده - لا يعرف إنساناً استغرق في التأمل العالي ، ومشى على الأرض وقلبه في السماء كما يعرف في سيرة محمد بن عبد الله عليه السلام .

إنه خير من حَقَّ في نفسه وفي - الذين حوله - حياة الإنسان الكامل .

الإنسان الرباني المستخلف في ملکوت الله لينقل إليه أطرافاً من حقيقة هذه الخلافة الكبيرة .

وفي المواريث العقلية والعاطفية التي تركها هذا النبي الكريم ترى كل العناصر التي يستطيع بها أي إنسان أن يقوم بوظيفته الصحيحة في هذه الحياة  
انظر إلى قوة العاطفة ودفقها في هذه المناجاة الحارّة :

روى الإمام أحمد وأبو داود والنسائي عن زيد بن أرقم أن النبي عليه السلام كان يقول  
دُبُّر صلاتِه :

«اللهم ربنا ورب كل شيء .

أنا شهيد أنك رب وحدك لا شريك لك .

اللهم ربنا ورب كل شيء ، أنا شهيد أنّ محمداً عبدك ورسولك .

اللهم ربنا ورب كل شيء ، أنا شهيد أنّ العباد كلهم أخوة .

اللهم ربنا ورب كل شيء ، اجعلني مخلصاً لك وأهلي في كل ساعة من الدنيا والآخرة .  
يَا ذا الجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ، اسْمَعْ وَاسْتَجِبْ .

الله الأكبير الأكبير ، نور السموات والأرض .

الله الأكبير الأكبير ، حسبي الله ونعم الوكيل .

الله الأكبير الأكبير» .

إنَّ ألفاظ اللغة حين تعجز عن ملاحة هذا الجيشان المنساب في كل دعوة ، تجعل الرسول المنيب المتبعِد يلْجأ إلى التكرار في العبارة الواحدة لينفس عما استكناً في صدره من روعة ومحبة وإجلال .

إنه في ظاهره ترداد للفظ واحد ، وهو في باطنه تعبير عن معانٍ متجددَة من الولاء والهيمام .

ويستوقفك في هذا الدعاء أن تتوسط شهادة النبي لشخصه بالرسالة بين توحيد الله والإقرار بأنَّ العباد كُلُّهم إخوة .

ما معنى أن يقول محمد لربِّه : «أشهد أنَّ محمداً عبدُك ورسولُك»؟

ذلك ضرب من الإصرار على تحمل الأمانة وإبلاغ الرسالة للناس كافة ، مهما كذبوا بها وتنكروا أصحابها .

إنَّ الرجل الذي يحسُّ بأنَّ العالم أجمع يستغرب بعثته ، وأنَّ قوى الشر فيه تحاول زحزحته ، وأنَّها قد تفلح أحياناً في الكيد له وإشعاره بالعزلة والضعف ، إنَّ هذا الرجل يرى من الطبيعي أن يشهد لنفسه بالحق لتكون هذه الشهادة المتكررة ردًّاً بليغاً على المرجفين والمكذبين .

وهي تجيء بعد أن يقذف الروح الأمين في قلبه شهادة أخرى من الله ومن الملائكة

الأعلى ، تؤكِّد هذه الحقيقة : ﴿لَكُنَّ اللَّهُ يَشَهِّدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ وَيُعْلِمُهُ وَالْمَلَائِكَةُ يَشَهِّدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (١)

وإنَّك لتسمع دوىَّ الوحي وهو يرسل هذه الشهادة مرة أخرى ، فتحسُّ في نبراتها زمرة صاحب الحق وهو يواجه المفترين ويُخجلهم من باطلهم ، ويمضي في ذكر ما عنده من صدقٍ بين ، وأدلة دامغة :

(١) سورة النساء ، آية : ١٦٦ .

﴿ قُلْ أَمَّى شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَدَةً ﴾

قُلَّا اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِكُمْ وَأُوحِيَ إِلَى هَذَا الْقَرْءَانِ لِأَنِّي ذَرْكُمْ بِهِ وَمَنْ  
بَلَغَ أَئِتَكُمُ الْشَّهَادَةَ وَدُونَ أَنْ مَعَ الْهَمَاءِ الْهَمَاءُ أُخْرَى قُلْ لَا أَشَهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ اللَّهُ  
وَحْدَهُ وَإِنَّمَا يَرَى مِمَّا تُشَرِّكُونَ ﴾ (١)

﴿ ﴿ ﴾

والشاهد في سيرة رسول الله - ﷺ - أنَّ حَدَّةَ الانتباه الذهني تسودها كلَّها .

فأمثانا قد يثور انتباهه لبواعث مفاجئة ، ثم تركد مشاعره لزوالها .

أمَّا هذا النبي الكريم فهو في نهاره مستجمعُ الفكر مرَّكُزٌ ، لا يكاد يمسُّه فتورٌ  
أو ذهول عن شيء ، دقَّ أو جَلَّ .

فإذا نام نضحت هذه الحساسية الشديدة على حالته النفسية ، فهو في رقاده  
يقظان القلب .

وبنهاة النهار ويقظة الليل تقوم على هذا الاتجاه المستمر إلى الله ، والتثبت  
العجب بذكره .

إذا أوى إلى فراشه قال : « اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ ،  
وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ ، لَا مَلْجَأً وَلَا مَنْجَى مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ . أَمْنَتُ  
بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ ، وَبِنَيْكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ » (٢) .

انظر إلى هذا التفاني في مرضاه الله ، ثم إلى هذا الختام الذي يُعلن فيه الرسول  
إيمانه بنفسه وكتابه .

إنه - كما أَبَنَا - عزيمة وإصرار .

وهو كذلك إقرار من الداعية أنه أول من يصدع بواجبات دعوته ، وأول من يلبي  
مطلوب رسالته ، وأول من يطيع أمر الله ، وينفذ حكمه ، ويقيم حدَّه ويُعلى شعائره .

روى ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان النبي ﷺ إذا قام من الليل  
يتهدى قال :

(١) الأنعام : ١٩ . (٢) البخاري .

«اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ قَيْمُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ .  
وَلَكَ الْحَمْدُ، لَكَ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ .  
وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ .  
وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ الْحَقُّ، وَقَوْلُكَ الْحَقُّ، وَالجَنَّةُ الْحَقُّ،  
وَالنَّارُ الْحَقُّ، وَالنَّبِيُّونَ الْحَقُّ، وَمُحَمَّدٌ الْحَقُّ، وَالسَّاعَةُ الْحَقُّ» .

«اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ أَمْنَتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ؛ إِلَيْكَ أَنْبَتُ، وَبِكَ  
خَاصَّمْتُ؛ إِلَيْكَ حَاكَمْتُ؛ فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخْرَتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا  
أَعْلَنْتُ، أَنْتَ الْمُقْدَّمُ وَأَنْتَ الْمُؤْخَرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» (١) .

ونحن فيما نألف من تجاربنا نرى أن حياة التأمل الحمض والمناجاة الحلوة ، لا تخلص  
لصاحبها إلا بعيداً عن الناس ، وفي نجوة من لعوهم العريض ، وشئونهم التافهة .  
ومن ثم فهمى لا تُعرَفُ إلا لأصحاب الأبراج العاجية ، والصومع القصية من الأدباء  
المترفعين ، أو العباد المنقطعين .

والحق أن للجماهير ظلاً كثيفة ، ومطالب وأهواء لا تنتهى .

وقلما يبصر نفسه من يُلقى بنفسه في غمارهم الموار .

إلا أن الدارسين لحياة النبي العظيم «محمد» ﷺ يرون في مسلكه ما يخالف هذه  
العادة المأثورة عن بعض الممتازين من الناس .

فهو قد عالج من قضايا المجتمع ومشكلات الأفراد ، وأحوال الأصدقاء والخصوم ،  
ودقائق الحرب والسلم ، وبلا من أطوار النفوس ، وتقلب المشاعر ، واختلاف الأفهام ما  
لم يتع مثله لبشر آخر .

ومع ذلك فإن صفاءه النفسي ، وتوقده العقلى لم تشبههما شائبة .

كان يترك أثره العميق في الآخرين ، ولا يتأثر هو بما في نفوسهم من ضيق  
وانحصار . إنه موجّه يدفع ولا يندفع .

(١) البخاري .

ورقىًّا معنيوياته جزء من صميم ذاته ، لا يمكن أن يختلف عنه ، أو تتفاوت قيمته بين ارتجال وإعداد .

أما كثير من العظاماء فارتقاهم الأدبى عَرَضُ اكتسبوه بوسائل معينة ، وضوابط خاصة .

وهم على حق إذ يتوجّسون من ضياعة ، أونقص حرارته ، مع مخالطة الجھال والدھماء .

ل لكنكَ ترى هذا النبیِّ الجليل بين أفواج الأعراب ، وصخب الجماعات المختلفة يرسل كَلِمَة الرتيب فلا تدرى بأيهما تعجب؟ .

برقة الروح الذى يصبح عباراته ، أم بروعة التنسيق الذى يؤلف بين ألفاظه؟! .  
وكلا الأمرين لا يقترب منه إلَّا صاحب قلم ينشد الصفاء لنفسه ، والهدوء لفكره ، ثم بعد ذلك يكتب فى رَوْيَة وأنة ومهل .

ولاريب فى أن مصدر هذا العلو الدائم ، والقوة المصاحبة هو ما أشرنا إليه آنفاً من اتصال قلبه برب الأرض والسماء ، وجريان فكره فى نسقٍ لاتدركه الخاصة بِلَه الدهماء .



وطبعى أن يعيش صاحب هذه الرسالة طيلة عمره مُبَرِّأً من كل عيب منزهاً عن آية ملامة .

لا يؤثر عنه فى سرّه وعلنه ورضاه وسخطه إلَّا ما تهوى العُلا .  
ما من كبير إلَّا وله سقطة ، حتى لقد تواضع الناس أن يغتفر بعضهم لبعض هنات أوسيئات لا بدَّ أن ي الواقعوها .

لكن هناك صنفاً من الناس ليس فى شرابهم قدَّى قطُّ .  
هم المصطفونَ الأخيار من عباد الله .

وفى الطبيعة الوضاءة من هذا النَّفَر النقى إمامٌ فَذٌ ، ورحمة مُهْداة ، ونبيٌّ معصوم .  
هو محمد بن عبد الله .

صلوات الله عليه فى الأولين والآخرين .



## بقدر قيمتك يكون النقد الموجه لك

رذيلة الحسد قديمة على الأرض قدَّمَ الإنسان نفسه .

ما إن تكتمل خصائص العظمة في نفس ، أو تكتاثر موهاب الله لدى إنسان حتى ترى كلَّ محدود أو منقوص يضيق بما رأى ، ويطوى جوانحه على غصب مكتوم ، ويعيش منغصاً لا يريحه إلا زوال النعمة ، وانطفاء العظمة ، وتحقق الإِخْفَاق .

وقد كنتُ أظنُّ أنَّ مسالك العظماء ، وأنماط الحياة المترفة التي تميَّز تفكيرهم ومشاعرهم هي السبب في كراهية الساقطين لهم وتبُّرُّهم بهم .

ثمٌ تبيَّنتُ خطأ هذا الظنُّ ، فكم من موهوب لا تزيده مَجَادَته إلا تقرباً إلى الناس وعطفاً عليهم .

ومع ذلك فإنَّ التعليقات المرة تتبعه ، وكذلك التشويه المتعمَّد لأنَّه الطيبة ، والتضخيم الجائر لأخطائه التافهة !!

فما السر إذن ؟

السر أنَّ الدميم يرى في الجمال تحدياً له ، والغبي يرى في الذكاء عدواً علينا ، والفاشل يرى في النجاح إِزْرَاءً به ، وهكذا . . . !!

فماذا يفعل النوازع والمُبرِّزون ليريحوا هذه الطبائع المنكوبة ؟ .

إذا محسني اللاتي أُدِلُّ بها      كانت ذنوبياً ، فقل لى : كيف أعتذر؟

وقد رأى أحد العلماء أن يضع حدًّا نفسيًّا لهذا العراق بين أولى الفضل والمحروميين منه ، فقال :

إن يحسدوني فإني غيرُ لائمهم      قبلى من الناس أهلُ الفضل قد حُسِدُوا  
فدام لى ولهم ما بى وما بهمُوا      ومات أكثرُنا غَيْظًا بما يجد

وليت الأمر ينتهي باستجابة هذا الدعاء .

إنَّ وقائع الحياة أعتى مانتنمٌ ؛ ودسائس الحاقدين ومكايدهم ومؤامراتهم لا تنتهي حتى تبدأ .

وهم يصلون في أحيان كثيرة إلى ما يشتهون من سوء .

وكم من عقريات مرغتها في الوحل خصومات خسيسة !! .

إنَّ الحال في كل زمان تحتاج إلى أمداد سريعة من المساندة أو العزاء لتعيد إلى المهوبيين ثقتهم بأنفسهم ، وتشجّعهم على المضي في طريقهم دون يأس أو إعياء .

وذلك لكثره ما يصيبهم من تعويق المثبتين وإيذاء الناقمين والشامتين .

أجل ، إنَّهم في حاجة لأن يقال لهم : لاتأسوا ، فإن ما توجّسون من نقد أو تجاهل هو كفاء ما أوتتُم من طاقة ورسوخ .

قال «ديل كارنيجي» : (كثير من الناس يجدون تشفيًّا في اتهام شخص يفوقهم ثقافة أو مكانة أو نجاحاً ، مثل ذلك أننى تسلمتُ رسالة من سيدة تصبُّ فيها جام نقمتها على «جنرال وليم بوت» مؤسس «جيش الخلاص» .

و كنتُ قبل ذلك قد أذعتُ حديثاً في الراديو أمتدح فيه الرجل وأثنى على جهوده .

وقد كتبتُ إلى هذه السيدة تقول : «إنَّ الجنرال بوت احتلس ثمانية ملايين دولار من المساعدات التي جمعها للفقراء والمساكين ..»

والحقُّ أنَّ التهمة سخيفة ، وهذه المرأة ما كانت تستهدف الواقع ، وإنما كانت تبغي النيل من رجل عظيم ، رجل أرفع منها براحل .

وقد أقيمتُ برسالتها في سلَّة المهملات ، وحمدتُ الله على أنَّى لستُ زوجاً لهذه المرأة !

فإنَّ الرسالة لم تزدني علمًا بالجنرال «بوت» كما تبغي كاتبتها ، وإنما زادتني علمًا بالكاتبة نفسها ، فكما قال «شوبنهاور» : ذرو النفوس الدينية يجدون المتعة في البحث عن أخطاء رجل عظيم .

قال : وقلَّما يصدق المرء أن رئيساً لجامعة كبرى يمكن أن يُسلِّك في عداد ذوى النفوس الدينية .

ولكن المدير السابق لجامعة «بيل» وهو «تيمونى داويت» وجد متعة كبيرة فى سوق الاتهامات المغرضة المكذوبة ضد الرئيس «توماس جيفرسون» العظيم ، محرر وثيقة الاستقلال !! .

### ﴿ۚۖۖۖۖۖ﴾

إن «مدير جامعة» منصب علمي جليل ، وجدير بن يلُونه أن يكونوا آياتٍ في النبل والسموّ ، لا قادة لحملات التضليل والافتراء .

ولكن الروابط مفكوكة بين كِبار الوظائف وكِبار النفوس .

وكم بين كبار الموظفين من رجال تصرفهم الأثرة وحدها ، ويُضريهم الاستعلاء وتنازع السلطان واحتياز المنافع واسترضاء الأتباع !! .

أمّا الصور الكالحة للحسد ، الطامسة للحق ، المرهقة للضمائر ، فهى بين أولئك الكبراء فى مناصبهم ، المرموقين بالتجلة والاحترام فى أغلب الأحيان .  
ومنذ أربعة عشر قرناً ظهر «محمد بن عبد الله» فى العرب .

وكان أصحاب الرياسات الدينية المجلّة من الأخبار والرهبان قد أحسوا نباء ، والتقووا به ليستوثقوا من صدق دعوته وصحّة رسالته .

ولم يحتاج الأمر إلى طول تحيسن ، فسرعان ما أيقن القوم أنّهم أمام رسول من رب العالمين ، يجب أن يؤمنوا به ، وأن ينضموا إليه .

يَيْدَ أَنَّهُمْ طَوَّا أَنفُسَهُمْ عَلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ ، وَكَرِهُوَا - عَنْ تَجَاهِلٍ لَا عَنْ جَهَلٍ - أَنْ يَذَكُرُوهَا بَلْهُ أَنْ يَنْشُرُوهَا !! ﴿الَّذِينَ أَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقَاتًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾<sup>(1)</sup>

ولمَ ذلك الكتمان؟ حفيظةُ ذوى النفوس الدينية عندما تلمع دلائل الع神性 والجد قد ساقتها الأقدار إلى إنسان !! .

هو الحسد . . !!

ولستُ أعرف منظراً أشوه ولا أقبحَ من كاهن أو واعظ يتحدث عن الله بلسانه ، ومن وراء أردitiه الفضفاضة ووظيفته الدينية نفسٌ ترتع فيها جرائم الأنانية الصغيرة والتطلع الخسيس .

. (1) البقرة: ١٤٦

﴿ وَدَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَبِ لَوْرِدُونَكُمْ قَنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ  
كُفَّارٌ حَسَدَا مِنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ قَنْ بَعْدِ مَاتَيْنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ (١) ﴾

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا أَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْءَ ائِنَاءَ اللَّهِ إِلَيْهِمْ  
الْكِتَبَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنَّهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴾ (٢) ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَنْفَسُهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِغَيْرِهِ أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ  
مِنْ فَضْلِهِ عَلَى أَمَنَ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ (٣) ﴾

والغريب أنَّ الأَخْبَارُ وَالرَّهْبَانُ مَضَوا فِي مَعرِكَةِ الْحَقْدِ - لَا الْحَقُّ - إِلَى نِهايَةِ الشُّوَطِ .

فَلَبِّلُوا أَتَابِعَهُمُ الْأَغْرَارَ ضِدَّ الدِّينِ الْجَدِيدِ وَنَبِيِّهِ ، وَأَشَاعُوا حَولَهُ قَالَةَ السُّوءِ ، وَأَثَارُوا بِمَوْقِفِهِمْ  
حَرُوبًا طاحِنَةً مَا كَانَ أَغْنَى الدِّنِيَا عَنْهَا لَوْ تَطَهَّرَتِ النُّفُوسُ مِنْ هَذِهِ الْغَيْرَةِ الشَّخْصِيَّةِ السَّيِّئَةِ .  
وَأَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ اخْتَارَ نَبِيِّهِ الْأَخْيَرَ مِنَ الْأَمَيِّنِ اخْتِصارًا لِلْمُتَاعِبِ الَّتِي تَنْشَأُ لَوْ أَنَّهُ  
اخْتَيرُ مِنْ آبَاءِ الْكَنِيسَةِ .

وَهَذَا كَلَامٌ أَقُولُهُ بَعْدَمَا بَلَوْتُ الْعَمَلَ فِي الْبَيِّنَاتِ الْدِينِيَّةِ بِضَعْعِ عَشَرَةِ سَنَةٍ .

فَلَوْ كَانَ «مُحَمَّد» وَاحِدًا مِنْ أُولَئِكَ الْمُحْتَرِفِينَ ، ثُمَّ اصْطَفَتْهُ الْعِنَايَةُ مِنْ بَيْنِهِمْ لِيُؤْدِي  
رِسَالَةَ الصَّلَاحِ وَالْإِصْلَاحِ ، لَقَالَ كَارِدِينَالْ عَجُوزٌ : أَنَا أَسْنَنُ مِنْهُ !! .

وَلَقَالَ ثَانٌ : أَنَا أَسْبَقُ مِنْهُ فِي الْخَدْمَةِ .

وَلَقَالَ ثَالِثٌ : إِنْ كَانَ عَالِمًا فَلَيْسَ إِدَارِيًّا ، وَإِنْ كَانَ إِدَارِيًّا فَلَيْسَ بِعَالِمٍ مُثْلِي !! .

وَلَقَالَ رَابِعٌ : إِنَّهُ يَخْطُرُ فِي إِقَامَةِ الطَّقوسِ !! .

وَلَا تَهْمِهُ خَامِسٌ بِكَذَا ، وَسَادِسٌ بِكَيْتٍ !! .

(١) البقرة: ١٠٩ . (٢) النساء: ٥٤ . (٣) البقرة: ٩٠ .

ثم يجتمع عليه المتنافرون ، ليشنّوا دعوته ، ويحبطوا رسالته !! .

وقد كان الله قادرًا على أن يجعل عيسى واحداً من علماء اليهود ، ولكنه ترك بيئتهم تغلى بأحقادها وبنزاعها على الرياسات والمطامع ، ثم جعل كلامه على لسان طفل ، يُنطقه الوحيّ وهو في المهد ، لعل الكهان الشيوخ يتَّعظون !! .

و«ديل كارنيجي» يوضح بعض خبايا هذه الغيرة الشخصية بقوله : (في سنة ١٨٦٢ كسب الجنرال «جرانت» لجيوش الشمال - في الحرب الأهلية الأمريكية - معركة حاسمة ، وبهذا غداً معبود الجماهير في يوم وليلة وتجاوיב أصداء هذا النصر في أوروبا نفسها .

ولم تكد تمضي ستة أسابيع على هذا الفوز حتى قُبض على «جرانت» وانتزع جيشه منه .

وبكى القائد المقهور من فرط الإذلال واليأس كما يبكي الطفل ، لكن لماذا قبض عليه؟ لأنّه أثار حسد رؤسائه ، وأهاج غيرتهم ... .

❀❀❀❀❀

إنّ النجاة من ظلمات الحياة ومظالم الناس وأحقادهم ليس بالأمر السهل .

لابدّ لها من أصوات يبعثها ربُّ الفلق الذي يستطيع وحده أن يمحو آية الليل بآية النهار !! .

وقد أمرنا الله أن نستعيذ به من شرور الحاسدين ، كما نستعيذ به من شر الليل الغاصق ، ومن صنوف الأذى كلّها ، سواء حملتها هامة أو دابة أو إنسان .

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝ مَلِكِ النَّاسِ ۝ إِلَهِ النَّاسِ ۝ مِنْ شَرِّ  
الْوَسُوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝ الَّذِي يُوَسِّعُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝  
مِنْ أَنْجَحَتْهُ وَالنَّاسِ ۝﴾ (١)

\_\_\_\_\_  
(١) سورة الفلق .

هذه الاستعادة ضرورة ، فالذين رُزقوا من النعم المادية أو الأدبية ما يغرى الآخرين بتنقصهم ، وسد منافذ الحياة والارتقاء أمامهم ، أحوج الناس إلى تأييد الله لهم ، كى يؤدوا رسالتهم ويُبرزوا موهبهم .

ومع أن أنبياء الله أكبر من أن يفقدوا ثقتهم بأنفسهم أمام سيل التكذيب والاتهام الذى يرميهم به الحاسدون والكافرون ، فإنهم احتاجوا فى كل لحظة إلى معونة الله وتبنيته ، حتى لا يؤثّر فيهم استخفاف أو تحقيير :

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفْنَاكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾<sup>(١)</sup>

﴿وَكُلَّا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ سَخْرَوْ اِمْنَهُ قَالَ إِنَّ تَسْخِرُوْ اِمْنَا  
فَإِنَا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخِرُوْنَ ﴾٢٨﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُوْنَ مَنْ يَأْتِيْهِ  
عَذَابٌ يُنْجِزُهُ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾<sup>(٢)</sup>

❀❀❀❀

(١) الروم : ٦٠ . (٢) هود : ٣٨ - ٣٩ .

## كن عصيا على النقد ..

قلت في كتابي «خلق المسلم» بعد كلام عن فضيلة القوة: تلك طبيعة الإيمان إذا تغلغل واستتمكن، إنَّه يُضفي على صاحبه قوة تنطبع في سلوكه كلَّه ، فإذا تكلَّم كان واثقاً من قوله ، وإذا اشتغل كان راسخاً في عمله . وإذا اتجه كان واضحاً في هدفه . وما دام مطمئناً إلى الفكرة التي تملأ عقله ، وإلى العاطفة التي تعمر قلبه ، فقلما يعرف التردد سبلاً إلى نفسه ، وقلما تزحزحه العواصف العاتية عن موقفه . بل لا عليه أن يقول لمن حوله :

﴿أَعْمَلُوا عَلَى مَا كَانُوكُمْ إِنِّي عَمِيلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَمَّا كُنْتُمْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِنُهُ وَيَحْلِلُ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّفِيمٌ﴾ (١)

هذه اللهجة المقرونة بالتحدي . وهذه الروح المستقلة في العمل ، وتلك الثقة فيما يرى أنه الحق ، ذلك كله يجعله في الحياة رجل مبدأً متميز ، فهو يعاشر الناس على بصيرة من أمره ، إن رأهم على الصواب تعاون معهم ، وإن وجدهم مخطئين نأى بنفسه واستوحى ضميره وحده .

قال رسول الله ﷺ : «لا يُكُنْ أَحَدُكُمْ إِمَّةً ، يقول : أنا مع الناس ؛ إنَّ أَحْسَنَ النَّاسَ أَحْسَنَتْ ، وإنَّ أَسَاءَوَا أَسَاءَتْ !! ولكنَّ وَطْنَنَا أَنفُسُكُمْ إِنَّ أَحْسَنَ النَّاسَ أَنْ تَحْسِنُوا ، وإنَّ أَسَاءَوَا أَنْ تَجْتَنِبُوا إِسَاعَتَهُمْ» (٢) .

والحق أنَّ الرجل القوي يجب أن يدع أمر الناس جانباً ، وأن يندفع بقواه الخاصة شاقاً طريقه إلى غايته ، واضعاً في حسابه أنَّ الناس عليه لا له ، وأنهم أعباء لا أ尤ان ، وأنَّه إذا ناله جُروح أو مسَّه إعياء فليكتم ألمه عنهم ، ولا ينتظر خيراً من بشّهم أحزانه .

وَلَا تَشْكُ إِلَى خَلْقٍ فَتُشْمِتَهُ شَكْوِ الْجَرِيعِ إِلَى الْغَرِيْبَانِ وَالرَّحَمَ

(٢) الترمذى .

(١) الزمر : ٣٩ - ٤٠ .

وبعض الأقوياء تتحول عنده قلةُ الاكتراش بالناس ، وإساءة الظن بما يبدون من أراء ، أو يكتنون من مشاعر إلى عاطفة تفيض بالزراية ومتلئ بالقسوة ، على نحو ما قال «المتنبي» :

ومن يعرف الأيام معرفتي بها      وبالناس رؤي رمحه غير راحم  
ونحن لا نقرُّ هذا الانحراف في إهدار القيمة .

وكلَّ ما نوصى به ألاَّ تُعطى العامة فوق ما لها من حقوق عقلية أو خلقية ، فإنَّ مستويات الجماهير لا تتحكم في تقرير الحق ، أو تحديد الفضيلة .

بل تُؤخذ الحقائق والفضائل من ينابيعها الأصيلة دون مبالاة بالجاهلين لها أو الخارجين عليها ، وإن كانوا ألوفاً مؤلفة .

وعلى الرجال الكبار أن يبنوا سلوكهم فوق هذه الأسس ، فلا يتبرّموا بالنقد المثار ، أو يقلقاً الكثرة الهجامية والشتائمين .

قال «ديل كارنيجي» : (قابلت ذات يوم «جنرال سميدللي بتلر» الملقب بشيطان الجنحيم ، والمعروف بأنه من أحزم القواد الذين تعاقبوا على بحرية الولايات المتحدة ، فأخبرنى أنه كان في صباه طموحاً إلى الشهرة الواسعة ، والجاه العريض ، وقوة الشخصية .

ولهذا كان يضيق بأقل ما يُوجَّه إليه من نقد ، ويهيج لأتفه ما يمسَّ الكرامة والكبرياء .

غير أن الأعوام الثلاثين التي قضاها في البحرية غيرت طباعه ، وجعلته أمنع من أن ينال منه النقد .

قال لي : لطالما ذقتُ صنوفاً من الإهانة والإذلال ، وطالما رميتُ بأنى كلبٌ عقور ، وحيةٌ رقطاء ، وثعلبٌ مراوغ .

ولطالما لعنى خبراء في فن الشتم فلم يدعوا مقدعاً من ألوان السباب إلا رموني به !! . فهل ترانى أقيتُ بالاً إلى ذلك كله ؟ كلا .

ولو أئنني سمعت اليوم واحداً يسبّنى لَمَا حولت نظرى إليه لأعرف من عساه يكون .

والجملة الأخيرة تشبه قول الشاعر العربي في تجاهل السفهاء :

لو أنَّ كلَّ كلب عَوَى الْقَمْتَه حِجْرًا لَأَصْبَحَ الصَّخْرَ مُثْقَالًا بِدِينار

إنَّ أصحاب الحساسية الشديدة بما يقول الناس ، الذين يطيرون فرحاً بدمهم ، ويختفون جزعاً من قدمهم ؛ هم بحاجة إلى أن يتحرّروا من هذا الوَهْم ، وأن يسكبوا في أعصابهم مقادير ضخمة من البرود وعدم المبالاة ، وألاً يغترّوا بكلمة ثناء أو هجاء ، لو عُرِفتْ دوافعها ووُزِنَتْ حقيقتها ما ساوت شيئاً .

وهبّها تساوى شيئاً ما ، فلماذا يرتفع امرؤ أو ينخفض تبعاً لهذه التعليقات العابرة من أفواه المُتسلّين بشئون الآخرين !؟ .

إنَّ أَحْسَنَ مَا قيلَ فِي إِدْرَاكِ الْجَمَاهِيرِ لِلصَّوَابِ هُوَ مَا جَاءَ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ :

﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضْلُلُوكَ

عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ (١)

وقد وجد الكاتب الأميركي نفسه مضطراً إلى الانصياع لهذه الحقيقة فقال : (لقد اكتشفتُ من سنوات أتنى وإن عجزت عن اعتقال ألسنة الناس حتى لا يطلقوا في ظلماً وعدواناً ، إلا أنه وسعني أن أفعل ما هو خيرٌ من هذا . أن أتجاهل لوم الناس ونقدّهم . . .).

ويقول : (إنني أعلم علم اليقين أن الناس لا يشغلهم التفكير في زيد أو عمرو أكثر من لحظات ، فهم مشغلون بالتفكير في أنفسهم منذ يفتحون أعينهم على اليوم الجديد حتى يأowون إلى مضاجعهم ، وأنَّ صُدُاعاً خفيقاً يلمُ بهم لهو كفيل أن يلهيهم عن خبر موته أو موتك . . .).

أجل ، هذه حقيقة الناس الذين نهتمُ بأحكامهم علينا ونحسب لرضاهם وسخطهم ألف حساب .

(١) الأنعام : ١١٦ .

وحرى بنا - ونحن نزن آراء الناس - أن تُنْبَهُ إلى الملابسات التي تجعل كثيراً منهم يوافق مثلاً ، أو يرفض ، بل يؤمن أو يكفر .

فإن عبد الله بن أبي - كبير المنافقين في الصدر الأول - ظل ينظر إلى الإسلام نظرة تحفهم وقلق ، حتى إذا انتصر المسلمون في معركة « بدر » أسرع الرجل وشيعته إلى الدخول فيه بحجة أن « هذا أمر قد توجّه » يعني ثبت واستقراره بعد ما نال من نصر .

والذين يبنون احترامهم لأمر ما على أساس ما يقارن هذا الأمر من عناصر الغلبة والظهور كثيراً جداً في الناس .

أما الذين يعتقدون الحق المجرد ولو أثخته الهزائم ، ويغالون بنفاسته ولو مُرْغ في التراب ، فهو لاء غرباء في العالم .

العامة للأسف مع صاحب الدنيا ولو كان زَيْمَاً .

والألسنة في إعلاء شأنه قلما تفتر رغبة أو رهبة .

ولذلك قيل : إذا أقبلت الدنيا على أحد أعارته محاسن غيره ، وإذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه :

والناس من يَلْقَ خِيرًا قائلون له ما يشتهي ، ولا مُخْطئ الْهَبَلُ

وقد كره النبي ﷺ ألا يتحرك الناس إلا تحت ضغط هذه الدوافع الدنيئة ، فقال : « بئس العبد عبد رَغْبٌ يُذَلُّه ، بئس العبد عبد رَهَبٌ يُضْلِلُه » .

بيَدَ أن مشاعر الرغبة والرهبة والمنفعة والحرمان ما تزال السر الدفين وراء كثير من النقد والرضاء والنقاوة والتأييد .

وقد كان « إبراهام لنكولن » حريصاً على أن ينتصر في المعارك التي خاضها ، لماذا ؟ لأنَ النصر سيقطع جميع الألسنة التي تناوشة .

أما إذا انهزم فلو نزلت الملائكة تعذر له ما قبلت الجماهير عذرها ، ولكن أسرع إلى تصديق خصومه وقبول الاتهامات التي وجّهت له بالحق أو بالباطل .

ولذلك يقول «لنكولن» : (لو أُنْتَ حاولت أن أقرأ فقط لأُرُد على ما وُجِّهَ إلَيْ من نقد ، لشغل هذا وقتى كله ، ولعطلنى عن أعمالى !! .

لكننى أبذل جهدى فى أداء واجبى ، فإذا أثمرت جهودى فلا شيء من النقد الذى وُجِّهَ إلَيْ يهمنى بعد ذلك ، إنه سيختفى من تلقاء نفسه .

أما إذا خاب مسعى فلو أقسمت الملائكة على حسن نيتى ما أجدانى هذا فتيلًا ، حسبي فيما يتصل بآراء الناس أنى أديتُ واجبى وأرضيت ضميرى ) .

وبديهى أن المرء يلوذ بهذا الاستعلاء والاستغناء إذا دهمه سيل من هزات الحاسدين واتهامات الحاقدين ، وكان الحق معه .

أما الانتقاد الصحيح لما وقع فيه من أخطاء ، أو الاستدراك على ما فاته من كمال ؛ فيجب أن نقbleه على العين والرأس .

ولو كان النقاد مدخولى النية ، سيئى القصد .

فسوء نيتهم عليهم وحدهم ، وخير لنا أن ننتفع بما أجراه القدر على أسلتهم من تصويب .

ومن يدرى ؟ لعل ذلك الانتفاع يكون أغليظ لغافتهم المريضة .

والعاقل يتسمّع ما يقوله أعداؤه عنه .

فإن كان باطلاً أهمله فوراً ولم يأس له .

وإن كان غير ذلك تروي في طريق الإفاده منه .

فإن أعداء الإنسان يفتّشون بدقة في مسالكه ، وقد يقفون على ما نغفل نحن عنه من أمم شؤوننا .

وقد يقىل : رحم الله امرأً أهدى إلى عيوبى ، فمن أهدى إلينا عيوبنا قبلنا هديته في الحال ، ثم سارعنا إلى إصلاح ما بطن وما ظهر من نفوسنا ، حتى لا يبقى مجال لشانىء ، أو فرصة لناهز .



## حساب نفسك

ما من عمل مهم إلاً وله حساب يضبط دخله وخرجه ، وربحه وخسارته .  
إلاً حياة الإنسان ، فهى وحدها التى تسير على نحو مبهم لا يُدرى فيه  
ارتفاع أو انخفاض .

هل يفكر أكثراً أو أقلنا ، فى إمساك دفتر يسجل فيه ما يفعل وما يترك من  
حسن أو سوء ؟ ويعرف منه بين الحين والحين رصيده من الخير والشر ؟ وحظوظه  
من الربح والخسارة ؟ ! .

لو أتنا نحيط فى الدنيا خبط عشواء ، ونتصرف على ما يحلو لنا دون معنى  
أو حسيب لجاز على تفريط وحمق أن نعيش حياتنا كما يبعثر السفيه ماله ، وأن نذهب  
عن الماضي وما ضمّ من تجارب ، وأن نقتحم المستقبل غير متّهيّبين خطأ أو خطيئة !! .  
فكيف ولله حفظة يدوّنون مثقال الذرة ، ويعدّون لنا قوائم بحساب طويل :

### «وضع»

الْكِتَابُ فِتْرَةٌ لِجُورِهِ مِنْ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَوْمَئِنَّا مَا لَكُمْ  
هَذَا الْكِتَابُ لَا يَعْنِي دُرْصَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَجَدُوا  
مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَنْظِلُونَ رِبَّكَ أَحَدًا» (١)

أما يجب أن نستكشف نحن هذا الإحصاء الذى يخصنا وحدنا ؟ ! .

أما ينبغي أن نكون على بصيرة بمقدار ما نفعل من خطأ وصواب ؟ ! .

الحق أن هذا الإنطلاق فى أعماء الحياة دون اكتتراث بما كان ويكون ، أو الاكتفاء  
بنظرة خاطفة لبعض الأعمال البارزة أو الأعراض المخوفة ، الحق أن ذلك نذير شؤم .  
وقد عد القرآن الكريم من الأوصاف البهيمية التى يُعرف بها المنافقون الذين لا  
كيسة لديهم ولا يقين .

(١) الكهف : ٤٩ .



﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾

﴿فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ شَهْرًا لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُرِيدَّكُرُونَ﴾<sup>(١)</sup>

وعلماء التربية في الإسلام متذمرون على ضرورة محاسبة المرء لنفسه تمشياً مع طبيعة الإسلام ، وإنقاذاً لقول رسول الله ﷺ : «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم»<sup>(٢)</sup> . قوله : «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله»<sup>(٣)</sup> .

وقد كتب هؤلاء العلماء فصوصاً مطولة في المراقبة والمحاسبة يمكن الرجوع إليها . ويوري «ابن المقفع» أن يسجل الإنسان ما يصدر عنه جاعلاً الصفحة اليمني للحسنات واليسرى للسيئات .

وإن كان «ديل كارنيجي» يذهب إلى تدوين السيئات فحسب ، على أساس أن المرء يعنيه تلافى أخطائه ، والنجاة مستقبلاً مما وقع فيه آنفاً .

قال : (في أحد أدراج مكتبى ملفٌ خاص مكتوب عليه : «حماقات ارتكبته» !! . وأنا أعدُّ هذا الملف سجلًا وافياً للأخطاء التي وقعتُ فيها ، ، وبعض هذه الأخطاء أملتها ، والبعض الآخر خجلت من إملائته فكتبته بنفسي .

ولو أنتَ كنتَ أميناً مع نفسك لكان الأرجح أن يمتلك مكتبى بامثال هذه الملفات المليئة بالأخطاء والحماقات !! .

وعندما استخرج سجلًّا لأخطائى ، وأعيد قراءة الانتقادات التي وجهتها لنفسي ، أحسُّ أنتَ قادر على مواجهة أقصى وأعظم المشكلات مستعيناً بغير الماضي الذي دَوَّنته .

لقد اعتدتُ أن ألقى على الناس تبعة ما أواجهه من مشكلات . لكن بعد أن تقدمت بي السن وازدادت حكمتي - فيما أحوال - أدركتُ أنتَ وحدى المسؤول عما أصابنى من سوء .

وفي ظننى أنَّ كثيراً من الناس يصلون إلى هذه النتيجة نفسها عندما يدرسون أنفسهم .

(٢) الترمذى .

(٣) المنذرى .

(١) التوبة : ١٢٦ .

ولقد قال «نابليون» في منفاه بجزيرة القديسة «هيلانة» : لا أحد سواي مسؤول عن هزيمتي . لقد كنت أنا أعظم عدو لنفسي !! .

### ٣٤٣٤٣٤٣٤

في صدر شبابي الأول كنتُ دقيقاً في محاسبة نفسي ، و كنتُ أرسم برامج قصيرة الأجل للتطهير مما أحقره من خلال وأعمال ، وأذكر أنني استعنتُ بإحدى المفكّرات السنوية لإثبات الأطوار التي اتّصل بينها من الناحيتين الذهنية والنفسية ، وإن كنتُ فشلت آخر مرّة في استدامة هذا الأسلوب .

ويرجع فشلّي إلى أنّي أطلب النتائج المستحبّة بسرعة ، على حين أكون مُحاصرًا بظروف لا تسمح بذلك أبداً .

وقد مزقت هذه المفكرة في ساعة يأس لأنّي نظرت في صفحاتها - و كنتُ أدون حالي بأمانة - فوجدتّها لا تشير إلى أي تقدم ، كانت أشبه بملفّ مريض لا تتغيّر حالته مع عظّم وعناء السهر .

وأحسّ الآن ، أنّي أخطأت في الاستجابة لهذا اليأس ، لأنّي نظرت للأمر من ناحية ضيقّة ، ناحية الحصول على نتائج معينة في أيام محدودة ، جاهلاً أو متّجاهلاً ما يكتنف النفس من وعورة طباعها الرديئة ، ومن عوائق البيئة التي لا حصر لها .

كنتُ كالسبّاح الذي يعارك أنواع عاتية .

حسبُه - إن وقف في مكانه - أنه لم يتّأخر ، وأنه لم يغرق .

وهذا ضرب من النجاح ، يتبعه مع الصبر الجميل إحراز النجاح الكامل .

وقد فاتني هذا الدرس وأنا شاب أتعلّم إلى الفضيلة والكمال ، وأتعشّق المُثل العليا ، ذلك لأنّ في بلادنا أزمة طاحنة في المربيّن الآخيار .

وحدث وأنا غلام في مرحلة التعليم الثانوي أن اجتاح قريتنا حديث عن الأسباح التي تظهر بالليل ، وشعرت بوجل يملّكتني وأنا استمع إلى أنباء هذه الكائنات الخفية ، ثم انكّرت من نفسي هذا الفزع الذي لا ينبغي أن يخامر مؤمناً ، فإنّ المؤمن يخشى الله وحده .

واذن فالاؤدبُ هذه النفس الهلوّ ، وبِمَ؟ بإكراها على مواجهة ما تخاف . وبعد العشاء اخترقّت وحدى أعماء الليل الخيم على البلد والحقول .

وَدَلَفَتُ إِلَى الْمَقَابِرِ الْمُوحَشَةِ الْوَاقِعَةِ بَعِيدًاً عَنِ الْعُمَرَانِ !! .  
وَأَخْذَتُ أَنْقُلَ خَطْوَى بَيْنَ دُرُوبِهَا الضَّيْقَةِ ، وَعِينَاهِ تَسْتَشْفَانِ كُلَّ شَيْءٍ حَوْلِيِّ ،  
وَقَلْبِي لَا يَفْتَأِي يَدْقُّ .

وَكَانَتْ رَحْلَةُ شِعْرَتِنَا مِنْ أَعْمَاقِي بَكْرَهِي لَهَا ، وَلَكِنَّ مَا مِنْهَا فِي نَظَرِي بَدَّ .  
لَقَدْ قَرَرْتُ أَنْ أَدْخُلَ هَذِهِ الْمَقَابِرَ مِنْ طَرِيقِ ، وَأَخْرُجَ مِنْ طَرِيقِ آخَرَ ، وَأَنْ أَكْرَرَ هَذِهِ  
الْجَوْلَةَ فِي لَيَالٍ عَدَّةٍ لِأَغَالِبِ فِي نَفْسِي هَذَا الْخُوفُ الَّذِي لَا يَلِيقُ بِي .

لَقَدْ كُنْتُ فِي مِيدَانِ الرِّيَاضِيَّةِ النُّفُسِيَّةِ أَتَعْسَفُ الطَّرِيقَ أَحِيَاً كَثِيرًا لِقَلْةِ الْمُرْشِدِينَ  
الَّذِينَ يَرْعَوْنَ النَّاشرَةَ ، وَنَدْرَةِ التَّشَافُوتِ الَّتِي تَأْخُذُ بِنَاصِيَتِهِمْ إِلَى الصَّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ  
وَمَعَ مَا خَلَفَتِهِ فِي أَعْصَابِي هَذِهِ الْمَحاوِلَاتُ الْمُضْنِيَّةُ ، فَلَسْتُ أَسْفًا عَلَى مَا بَذَلْتُ مِنْ  
جَهْدٍ ، أَخْطَأْتُ فِيهِ أَوْ أَصَبَّتُ ، فَلَأَنْ أَشْتَطَّ فِي حِسَابِ نَفْسِي أَفْضَلُ مِنْ أَنْ أَدْعُهَا  
تَنْطَلِقَ مِنْ غَيْرِ حِسَابٍ .

### ۳۳۳۳۳۳۳

وَكَانَ يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ مَوَارِيثُ التَّصْوِفِ فِي ثَقَافَتِنَا الْإِسْلَامِيَّةِ هَادِيًّا حَسَنًاً  
لِوضَعِ رِقَابَةِ حَصِيفَةِ عَلَى النَّفْسِ ، تَخَلَّصَهَا مِنْ أَفَاتِهَا ، وَتَبَلُّغُ بِهَا مَا تَطْبِقُ مِنْ أَفَاقِ  
السُّمْوَّ ، لَوْلَا أَنَّ كَتَبَ التَّصْوِفَ بِحَاجَةٍ إِلَى غُرْبَلَةٍ شَامِلَةٍ تَفْصِلُ مَا فِيهَا مِنْ جُوهرٍ  
عَمَّا فِيهَا مِنْ حَصَى .

فَمَا أَيْسَرَ أَنْ يُوصَفَ الدَّاءُ فِي هَذِهِ الْكِتَبِ عَلَى أَنَّهُ دَوَاءً !! .

وَمِنْ ثُمَّ يَخْتَلِطُ الدَّوَاءُ الْقَاتِلُ بِالشَّفَاءِ الصَّحِيحِ .

وَتَخْتَلِطُ أَقْوَالُ الْمُجَانِينَ وَالسُّفَهَاءِ بِحُكْمِ الْعَارِفِينَ وَالْفَلاسِفَةِ .

وَقَدْ كَانَ «دِيلْ كَارْنِيَّجِي» شَبِيهًًا بِحُكْمِ الْمُتَصَوِّفَةِ عِنْدَمَا نَوَّهَ بِبُضُورَةِ مَحَاسِبَةِ  
النَّفْسِ فِيمَا حَكَاهُ عَنْ «هـ . بـ هـ» مِنْ رِجَالِ الْمَالِ الْأَمْرِيَكِيَّينَ ، فَقَدْ كَانَ  
يَخْصُّصُ مَسَاءَ السِّبْتِ مِنْ كُلِّ أَسْبُوعٍ لِمَرْاجِعَةِ مَا كَسَبَ وَاكْتَسَبَ ، وَالتَّأْمِلُ فِي كُلِّ  
مَقَابِلَةٍ تَمَّتْ ، وَكُلِّ مَنْاقِشَةٍ دَارَتْ ، وَكُلِّ عَمَلٍ أَنْجَزَ .

ثُمَّ يَسْأَلُ نَفْسَهُ : أَيْ خَطَأً ارْتَكَبَهُ ، أَيْ تَوْفِيقَ صَادَفَهُ ؟ وَهَكُذا .

قال : (ولعل «هاول» قد استعار هذه الطريقة في «مراجعة النفس» من «بنيامين فرانكلين» ، إلا أن الفارق الوحيد بينهما أن هذا لم يكن ينتظر حتى تحل نهاية الأسبوع ، بل كان ينصب لنفسه هذه المحاكمة العسيرة كل مساء ، وقد اكتشف أن هناك ثلاثة عشر خطأ خطيرًا يقترنها على الدوام .

وهذه أهم ثلاثة ، منها : تضييع الوقت سُدَىً ، الانشغال بالتوفه ، والجدال مع الناس على غير طائل .

ورسخ في ذهن «فرانكلين» أنه مالم يتخلص من هذه الأخطاء فلن يتقدم في الحياة شيئاً يُذكر .

ومن ثم عمد إلى تخصيص أسبوع لمحاربة كل نقيةة من نفائه على التوالى ، وأفرد سجلاً يدون فيه يوماً بيوم أنباء انتصاره على نفائه أو هزيمته أمامها .

وقد لبث الرجل في حرب ضد أخطائه أكثر من عامين ، فلا عجب أن غداً واحداً من أعظم رجالات أمريكا ) .



والحق أن ترويض النفس على الكمال والخير ، وفطامها عن الضلال والشر يحتاج إلى طول رقابةٍ وطول حساب .

إن عمارة دار جديدة على أنقاض دار خرية لا يتم طفراً ، ولا يتم عن ارتجال وإهمال .

فكيف ببناء نفس ، وإنشاء مستقبل؟! .

أترى ذلك يتم وليد غفلة وذهول؟! .

كلا ، لا بد من حساب دقيق يعتمد على الكتابة ، والمقارنة ، والإحصاء ، واليقظة .

فإذا شئت الإفادة من ماضيك ، بل من حياتك كلها ، فاضبط أحوالك وأنت تعهد نفسك .

اضبطها في سجل أمين يحصى الحسنات والسيئات ، ويغالب طبيعة النسيان في ذهن الإنسان .

# خاتمة

لكى تصون الحقيقة وتضبط حدودها ، يجب أن تعرف هذه الحقيقة وأن تعرف غيرها معها .  
قد تقول : «وما شأن هذا الغير؟!» .

ولماذا يخدش الجهل به حسن التصور للحق المجرد؟ .

والجواب أنَّ الصورة الكاملة لا بدَّ لها من حدود تنتهي إليها ، وعند النهاية المرسومة لهذه الحدود تبدأ حقائق مغايرة .

ولن تميز معرفة الشيء إلا إذا عرفت الأغيار المجاورة له أو المشتبه به ، ولذلك قال الأقدمون : «بضدِّها تتميّز الأشياء» .

والناس في معاملاتهم المالية إذا باعوا عقاراً لم يكتفوا بذكره ، بل شرحوا حدوده الأربع ، وجعلوا من ذكر القطع المجاورة وبيان أصحابها سياجاً لضبط الحقيقة التي تعنيهم وحدها ، ولا يعنيهم غيرها إلاَّ تبعاً لها .

وقد كان «عمر» حريصاً على تعريف الجاهلية للناس ، لا لأن تعريف الجاهلية دين ، بل لأن معالم الإسلام ومواقع إصلاحه لا تستبين إلا إذا عرفت الظلمات والمظالم التي جاء هذا الدين لتبيدها ومحو شاراتها .

قال «عمر» : «إنما ينحلُّ الإسلام عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجahلية» !! .  
من هنا كان لزاماً على كل مشتعل بعلوم الإسلام أن يدرس الحياة كلها ، وأن يتعرف وجوه النشاط البشري - ومراميه القريبة والبعيدة .

إنَّ ضيق العَطَن ، وسوء البصر بما يقع في الدنيا وما يُتوقع ، والانحصار في حدود الفكرة الخاصة ، والاقتناع بجانب من المعرفة دون جانب ، كل ذلك حجاب دون معرفة الإسلام والإفادة من تراثه الضخم في ميادين الثقافة والتربية ، والفقه والتشريع ، وسياسة الأفراد والجماعات .

والدراسات المقارنة هي في نظرى أجدى الوسائل للبحث عن الحقيقة ، والظفر بها .  
وأنَّى أهيبُ بالعلماء المنصفين أن يجيلوا أبصارهم فيما بلغته الأداب والفلسفات من نتائج ، وأن يضمُّوا إلى هذه المعرفة دراسة الإسلام نفسه ، وهم بآيسير مقارنة متنهون إلى ضرورة نفع العالم بهداياته ، ومنع العوائق التي تصُدُّ الناس عنه .

وكلمة أخيرة إلى علماء المسلمين :

إنَّ قصرَ باعهم في علوم الحياة هو أبشع جريمة يمكن أن ترتكب ضدَّ الإسلام .  
هذا القصور إنَّ أمسِّوا به في هذه الدنيا متخلَّفين ، فهم عند الله ورسوله أشدُّ تخلُّفاً وأسوأ عقبى .  
إنَّ أنفسنا وببلادنا وحياتنا وأخرتنا في ظمآن هائل إلى مزيد من المعرفة والضياء .